

المطر في الشعر الجاهلي

تأليف
الدكتور أنور أبو سويلم

رئيس دائرة العلوم الإنسانية "سابقاً"
جامعة مؤتة

دار عمار
عمان

دار الجيل
بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطر في الشعر الجاهلي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.



عمان - قرب الجامع الحسيني
ص.ب ٩٢١٦٩١. هاتف: ٦٥٢٤٣٧

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطر في الشعر الجاهلي

تأليف
الدكتور أنور أبو سويلم

رئيس دائرة العلوم الإنسانية "سابقاً"
جامعة مؤتة

دار عمار
عمان

دار الجيل
بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

نظر بعض الدارسين إلى موضوعات الشعر نظرة تجزيئية، تجعل من الشعر الجاهلي وحدات منفصلة غير متَّصلة؛ فقالوا بوصف الناقة، ووصف الفرس، والفخر، والهجاء، والحماسة، والرثاء. .

تحس من خلال ذلك أنَّ الشاعر الجاهلي مختلّ التفكير ضعيف الربط، جزئي النظرة، لا ينظر إلى الكون بشمولية ولا يحسّ الحياة بوحدة وتكامل؛ لأنَّه بدوي بسيط ينظر إلى الحياة بانفصام تام، والطبيعة أمامه وحدات منفصلة فيها الجبل والكثيب والمرعى والحيوان والسماء، ومن ثَمَّ لم يتعمق أسرار الوجود، وليس لديه من قوى الربط ما يستطيع بها أن ينظر إلى الكون بشمولية وكلية.

وعندما ينظرون إلى وصف المطر يشيرون إلى قصائد مشهورة لأوس بن حجر ولامرىء القيس ولخفاف بن ندبة. . وغيرهم، جاء فيها ذكر المطر مباشراً، ولَمْ يلحظوا أنَّ الشاعر الجاهلي كان يرى في الماء معاني الحياة المختلفة، وأن هذه المعاني جاءت في شعره كله ما عدا شعر المطر المباشر، وأنه كان أدقّ بصيرة وأنفذ فكراً، وأرقى تصوّراً مما كانوا يتوهَّمونه في البدوي الجاهل.

ومن هذه الزاوية دلفت إلى المطر في الشعر الجاهلي، وهي زاوية تبدو خارجية تشبه الزاوية التي يعتمدها المُصوِّر في لوحاته، لكنها تكشف في النهاية عن تصوّر الجاهليين لفكرة المطر، وهو تَصَوُّر، كما سيبرهن هذا البحث يَدُلُّ على أنَّ الشاعر الجاهلي قد استوعب جزيئات الوجود المتناثرة، واستخلص منها معاني

كلية، وأفكاراً موحَّدة تصهرها وتجعلها كياناً موحداً منسَّقاً، وأن وعي الشاعر الجاهلي بالوجود لم يكن وعياً ضيّقاً محدوداً، بل كان وعياً شاملاً متكاملاً غير محدود.

ورأيت أن الشعراء الجاهليين كانوا يصدرون في تصورهم للمطر، عن فكرٍ متَّحد ورؤية متَّحدة وصور متشابهة إلى حدٍّ بعيد، ووحدة الصُّور تَنْبع في أساسها من وحدة التصوُّر، ووحدة التراث، ووحدة المعتقد. ومن هذه الزاوية حاولت ربط الشعر الجاهلي بالمعتقد الجاهلي الذي كان سَدَاه ولُحمته الأساطير. حقاً إنّ المرحلة التاريخية التي عاشها الجاهليون قبل الإسلام بقرن ونصف أو يزيد هي مرحلة واعية بعيدة عن التفكير الأسطوري المباشر، وملتصقة إلتصاقاً قوياً برؤية الأسباب ونتائج هذه الأسباب، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يستوعبوا الفكر الإسلامي بعقلانيَّته المضيئة، وإنْ صَدَق هذا على النَّثْر فلا يمكن أن يصدق على الشعر؛ لأنَّ الشعر عميق الجُذُور يرتَدّ إلى أعماق الإنسانية في تُراثها وتقاليدها وأساطيرها، والشعر الجاهلي لم يكن كلّه نابعاً من الوعي المباشر للإنسان الجاهلي، لأنَّه تراث موغل في القِدَم، يَرْتَدُّ إلى رواسب مظلمة في أعماق الإنسان، والممارسات الأسطورية، والتفكير الشعري بمنطق أُسطوري بقي تراثاً حياً في ضمير الأمَّة، وقد نجد رواسب من ذلك التفكير الأسطوري في الشعر الإسلامي في عصوره المتتابعة، وإنْ كان يصدر ـ غالباً ـ عن قِيَمٍ بلاغية أكثر من صدوره عن قيم أُسطورية.

ومن هنا استَقْبلتُ شخصيةَ الشعر الجاهلي دون تلعثُم أو اضطراب لأنّي أُحسُّ قوةً ميتافيزيقية تسيطر على هذا الشعر وتتحكم في صياغة عباراته، وأُومن أنّ الشعراء الجاهليين ـ جميعاً ـ يَنْهلون من نبع ذلك التراث المجهول المليء بالسحر والخُرافة والأساطير.

وقد أفدت إفادةً عظيمة من دراسات رشيدة للمطر، ولولاها لم أستطع أن أُكوّن

هذا التصوُّر للمطر في الشعر الجاهلي، كدراسة الدكتور سيد نوفل عن (الطبيعة في الشعر العربي)، ودراسة الدكتور نوري حمودي القيسي عن (الطبيعة في الشعر الجاهلي)، ودراسة الدكتور إبراهيم عبد الرحمن عن (الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية) ودراسة الدكتور أحمد كمال زكي عن التشكيل الخرافي في شعرنا القديم ضمن كتابه (دراسات في النقد الأدبي) وعن (التفسير الأسطوري للشعر القديم) مقالة في مجلة فصول، ابريل ١٩٨١م ودراسة الدكتور علي البطل عن (الصورة الفنية في الشعر حتى آخر القرن الثاني الهجري) ودراسة الدكتور نصرت عبد الرحمن (الصورة الفنية في الشعر الجاهلي) و«الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي» وبحثين ممتازين له نشرهما في مجلة دراسات بعنوان «المطر، مواضع وروده في جانب من الشعر الجاهلي» و«سيدة المطر في شعر أبي ذؤيب الهذلي» ودراسة الدكتور مصطفى ناصف (قراءة ثانية لشعرنا القديم).

وبعد..

فلا أقول عن هذا البحث إلَّا أنه محاولة جديدة تكمل المحاولات السابقة لها، فإن كنت قد أصبت فهذا أملي وإلَّا فحسبي نصيب المجتهد.

الدكتور أنور أبو سويلم

مؤتة في ١/ ١٢/ ١٩٨٦



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

المطر في الشعر الجاهلي *

ـ أهميته ـ المطر في القرآن الكريم ـ المطر والجدب

ـ الهاجرة والشتاء الجديب ـ الدلالة اللغوية ـ استطلاع المطر

ـ طقوس الاستمطار ـ صورة المطر في الفكر الجاهلي



نظر الشعراء الجاهليّون إلى المطر المنثور من عالم الغَيْب بإكبار وتقديس، فرأوا فيه مادة الحياة التي خُلِقَ منها كُلُّ شيء، وأُغرموا بمراقبته وملاحظته، فسهروا اللّيل وأُرّقوا، وشعروا بقدرته على إحياء الميْت: فقَدَّسوه وعبدوه[1]، ورأوا فيه سرّاً خفيّاً، وقـوَّةً عظمى قادرة على قَهْـر الجَدْب والمحل، وبعث الخِصْب والرِّزق، تتلقّاه الحناجر العطشى بشَغَف وحبّ، والصحراء العارية تستغيث به ليدفع عنها قَحْلهـا وعُقْمهـا، فتهتزُّ نشوةً، وتسقبله كبِكْر عروب أحبَّت بعلها فاحتضنته. منه حياتهم وحياة نَعَمهـم، به يخصبون ويثرون، فتنتج نوقهم وشاؤهـم، وتَسْمَنُ وتتناسل وتتكـاثر، تَعُّمهم النُّعْمى، وإذا ما انحبس المطر آبْتُلُوا بالجوع والمَرَض والنَّهْب والفِتَن والموت.

وقـد تتبَّع الشُّعراء في الجاهلية نزول المطر تَتَبُّعاً غريباً فراقبوه ووصفوا بَرْقَه اللامع، ورعده القاصف وسُحُبه الحَافلة، ورياحه المُتَنَاوحة، ورسموا صوراً رائعةً لمنـاظـره وهـو ينثال كاللؤلؤ من قُبَّة السماء الخَيِّرة إلى قيعان الصحراء الظَّمْأى، وأشـاروا إلى السّيول والغدران والآبار، وما يُحْدِثُه من انقلابٍ في الحياة العادية فالحيوانـات تفرُّ مذعورةً، والضفادع تَنِقُّ نشوةً، والطُّيور صُبِحْنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفَلْفَل، والتِّلال العالية تُعَمَّمُ بالزَّهر والنبات، والأغوار تَطْفَح بسيول جارفة. . إلى غير ذلك من التفصيلات الدقيقة والمناظر المتنوِّعة، واللَّوحات الزاهية.

---

(١) الأزدي، الإمـام أبـوبكـر محمد بن الحسن بن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١هـ)، وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع، حققه: عز الدين التنوخي، طبعة دمشق، ١٩٦٣، ص٣٧.

(١) أهمية المطر

وقد تنبَّه اللُّغويون والأدباء إلى أهمية المطر في الشعر العربي القديم، فخَصُّوه بصُحُف كثيرة تُعنى بشرح ألفاظه، وتفسر معانيه، وتبيان أحواله، وأسمائه، وصفاته، وأشكاله، وما يَتْبَعُهُ من سَحَاب وثَلْج وبَرَد وريح ورعد وبرق وكسوف وأنواء، وخصّوا الأنواء[٢] بنصيب كبير من كتب المطر، عَصَفَتْ يدُ الزمان بأكثرها ولم يبق منها إلّا القليل وإلّا أسماء مجرّدة تكشف عن علم ضاع واندثر:

- كتاب الأنواء للدهني، معاوية بن عمَّار العبدي (ت ١٤٥هـ)[٣].
- كتاب الأنواء لابن عمّار، إسماعيل بن عمار بن عيينة الأسدي (نحو ١٥٧هـ)[٤].
- كتاب الأنواء لأبي عبد الله، القاسم بن معن بن عبد الرحمن المسعودي الكوفي (ت ١٧٥هـ)[٥].

---

(٢) معنى النوء: أنْ يسقط النجم منها في المغرب بالغداة، وقد بقي من الليل غبش يسير، ويطلع آخر يقابله تلك الساعة من المشرق، والذي ناء منها في الحقيقة هو الطالع، لأن النوء في اللغة: النهوض، ولكن العرب قلبت ذلك فجعلت النوء للساقط منها لا للطالع، فإذا قالوا: ناء نجم كذا: فمعناه سقط بالغداة.

انظر: ابن الأجدابي، أبو إسحاق (ت ٦٥٠هـ)، الأزمنة والأنواء، تحقيق: د. عزة حسن، دار سمير، دمشق، ١٩٦٤م، ص١٣٤.

(٣) ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن إسحاق بن يعقوب (ت٣٨٥هـ)، الفهرست، دانشكاه، طهران، (دون تاريخ)، ص٨٨.

(٤) الفهرست، ص ٨٨.

(٥) الفهرست، ص٦٩.

ـ كتاب الأنواء لأبي فيد، مؤرج بن عمرو السدوسي (ت ١٩٨هـ)[٦].

ـ كتاب الأنواء للنضر بن شميل اللغوي المحدث (ت ٢٠٣هـ)[٧].

ـ كتاب الأنواء لقطرب، محمد بن المستنير (ت ٢٠٦هـ)[٨].

ـ كتاب الأنواء لابن كناسة، أبو يحيى عبد الله بن يحيى (ت ٢٠٧هـ)[٩].

ـ كتاب المطر لأبي زيد الأنصاري، سعيد بن أوس (ت ٢١٥)[١٠].

ـ كتاب الأنواء للأصمعي، أبي سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ)[١١].

ـ كتاب مياه العرب للأصمعي أيضاً[١٢].

ـ كتاب الأنواء لابن الأعرابي محمد بن زياد (ت ٢٣١هـ)[١٣].

ـ كتاب الأنواء للبغدادي، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ)[١٤].

ـ كتاب الأنواء لأبي محلم الشيباني، محمد بن هشام بن عوف (ت ٢٤٥هـ)[١٥].

ـ كتاب الخصب والقحط للسجستاني، أبي حاتم سهل بن محمد (ت ٢٥٠هـ)[١٦].

---

(٦) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الإربلي (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ٨ أجزاء، ج٥، ص٣٠٤.

(٧) وفيات الأعيان ج٥، ص٤٠٤.

(٨) الفهرست ص٨٨.

(٩) الأزمنة والأنواء ص١٠٠، والفهرست ص٢٧٤.

(١٠) وفيات الأعيان ج٢، ص٣٧٩.

(١١) الفهرست، ص٥٥.

(١٢) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٦هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مصر ١٢٧٤هـ، ٢مج، ص١٩١٦، والفهرست، ص٥٥.

(١٣) وفيات الأعيان، ج٤ ص٣٠٨، والفهرست، ص٨٨.

(١٤) الفهرست، ص٨٨، و ص٢٧٤.

(١٥) الفهرست، ص٨٨.

(١٦) الفهرست، ص٥٩.

ـ كتاب الشتاء والصيف للسجستاني أيضاً[17].

ـ كتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار للزيادي، أبي إسحق إبراهيم بن سفيان (ت ٢٤٩هـ)[18].

ـ كتاب الأمطار والرياح وتغيّر الأهوية لأبي معشر جعفر بن محمد البلخي المنجم المشهور (ت ٢٧٢هـ)[19].

ـ كتاب الأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)[20].

ـ كتاب الرياح لابن قتيبة أيضاً[21].

ـ كتاب الأنواء للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)[22].

ـ كتاب الأنواء لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٦هـ)[23].

ـ كتاب الأنواء للمفضل بن سلمة بن عاصم (ت ٢٩٠هـ)[24].

ـ كتاب الأنواء لأبن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ)[25].

ـ كتاب الأنواء لوكيع، أبي بكر محمد بن خلف بن حيان الضبي البغدادي (ت ٣٠٦هـ)[26].

---

(١٧) وفيات الأعيان، ج٢ ص٤٣٣.

(١٨) الفهرست، ص٥٨.

(١٩) تحقيق: عزة حسن، دار سمير، دمشق، ١٩٦٤.

(٢٠) مطبوع في: المطبعة العثمانية، القاهرة، ١٩٥٦م، وفي حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٩٥٦م.

(٢١) الفهرست، ص٧٧.

(٢٢) الفهرست، ص٥٩، و٨٨.

(٢٣) ابن منظور، جمال الدين، محمد بن جلال الدين الخزرجي (ت٧١١هـ) كتاب نثار الأزهار في الليل والنهار، المطبعة العثمانية، القاهرة، (دون تاريخ)، ص١٩، وص٦٦.

(٢٤) الفهرست، ص٧٤.

(٢٥) الفهرست، ص١٤٩.

(٢٦) الفهرست، ص٨٨.

ـ كتاب الأنواء للزجّاج، أبي إسحق بن السَّريّ بن سهل (ت ٣١٠ هـ)[٢٧].
ـ كتاب الأنواء لأبي الحسن الأخفش الصغير (ت ٣١٥هـ)[٢٨].
ـ كتاب الرياح والهواء والنار لابن السراج، أبي بكر محمد بن السَّري (ت ٣١٦هـ)[٢٩].
ـ كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد وما حمد من الكلام، لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢١هـ)[٣٠].
ـ كتاب الأنواء لابن دريد أيضاً[٣١].
ـ كتاب الأنواء للدهني (لعلَّه الذهلي أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصير (ت ٣٦٧هـ)[٣٢].
ـ كتاب الأزمنة للمرزباني، أبي عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ)[٣٣].
ـ كتاب الأزمنة والأمكنة، لأبي علي المرزوقي (ت ٤٢١هـ)[٣٤].
ـ بعض الفصول من كتاب الآثار الباقية من القرون الخالية لأبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ)[٣٥].
ـ كتاب الأنواء وهو السفر التاسع من كتاب المخصص لابن سيده، أبي الحسن علي

---

(٢٧) وفيات الأعيان، ج١، ص٤٩.
(٢٨) الفهرست، ص٨٣.
(٢٩) الفهرست، ص٦٣.
(٣٠) طبعة ضمن مجموعة: حرزة الحاطب وتحفة الطالب، ليدن، ١٨٥٩م.
(٣١) وفيات الأعيان، ج٤ ص٣٢٤.
(٣٢) الفهرست، ص٨٨.
(٣٣) الفهرست، ص١٣٢.
(٣٤) طبعة حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٣٣٢هـ، طبعة دائرة المعارف العثمانية، استنبول، (دون تاريخ).
(٣٥) طبعة ليبزج، ١٩٢٣م، ومؤسسة الخانجبي بمصر، (دون تاريخ).

ـ كتاب الأزمنة والأنواء لابن الأجدابي، أبي إسحق إبراهيم (ت ٦٥٠هـ)[٣٧].
ـ الجزءان: الأول والثاني من كتاب: سرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشي، أحمد بن يوسف بن أحمد القيسي (ت ٦٥١هـ)[٣٨].
ـ الفن الأول في السفر الأول من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ)[٣٩].
ـ كتاب الأنواء، لأبي الحسن عريب بن سعد الكاتب (؟؟)[٤٠].
ـ كتاب الأنواء للمزيدي (لعلة مزيد بن مرثد ت ٣٧٠هـ؟؟)[٤١].
ـ كتاب الأنواء الكبير للمرثدي (المزيدي) (؟؟)[٤٢].
ـ كتاب الأنواء لأبي غالب أحمد بن سليم الرازي (؟؟)[٤٣].

---

(٣٦) طبعة المكتب التجاري، بيروت، (دون تاريخ).
(٣٧) تحقيق: عزة حسن، دار سمير، دمشق، ١٩٦٤م.
(٣٨) تحقيق: إحسان عباس، مطبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
(٣٩) طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢م، (٢٢ جزءاً).
(٤٠) تحقيق: المشتشرق دوزي، ليدن، بريل، ١٩٦١م.
(٤١) الفهرست، ص٨٨.
(٤٢) الفهرست، ص١٣٩.
(٤٣) الفهرست، ص٨٨.

(٢) المطر في القرآن الكريم

وقد استخدم القرآن الكريم صور المطر والماء والسحاب والرعد استخداما واسعاً دقيقاً فهو حياة وبعث، ومادة للحياة وأَصْل للموجودات، منه خلق كل شيء، وهو الرحمة والطُّهور والغَيْث والبَرَكة، وهو مَثَل الحياة الفانية، ومادَّة الموت، وموضع النقمة والعذاب. . وهذا التصور للمطر جاء موافقاً لتصور الفكر الجاهلي ـ كما سنرى ـ ومن أَجل ذلك سأستعرض الآيات القرآنية الكريمة التي عرضت للمطر؛ لأنها ستُعَمّق الفِكْرة التي سأُناقشها عندما أَعرض لتصور الجاهليين لفكرة المطر. وقد جعل القرآن الكريم نزول الغيث برهاناً على الإرادة الربانية القادرة على الإحياء والبعث من الموت:

قال تعالى[٤٤]: ﴿وهو الذي يُرْسل الرّياح بُشْراً بين يدي رَحْمته، حتى إذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لبلدٍ ميِّتٍ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كلِّ الثمراتِ كذلك نُخْرِجُ المَوْتى لَعَلَّكم تَذَّكَّرون﴾.

وقال أيضاً[٤٥]: ﴿وما أنزل الله من السَّماء من ماءٍ فأحيا به الأرْضَ بَعْدَ مَوْتها﴾.

وقال أيضاً[٤٦]: ﴿والله الذي أَرسَلَ الرِّياحَ فتُثير سَحَاباً فسُقْنَاه إلى بَلَدٍ ميّت فأَحْيَيْنا به الأرض بعد موتها كذلك النُّشُور﴾.

---

(٤٤) الأعراف: ٥٧.

(٤٥) البقرة: ١٦٤.

(٤٦) فاطر: ٩.

وقال أيضاً[٤٧]: ﴿والله أنزلَ من السماء ماء فأحيا به الأرضَ بعد موتها﴾.

وقال أيضاً[٤٨]: ﴿ولئن سألتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ من السَّماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ليَقُولُنَّ الله﴾.

وقال أيضاً[٤٩]: ﴿ومن آياته يُرِيْكُم البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً، ويُنَزِّلُ من السماءِ ماءً فيُحْيي به الأرضَ بَعْدَ موتها﴾.

وجاء الماء في القرآن الكريم أصلاً للموجودات ومادةً للحياة؛ منه خَلَقَ كلَّ شيء[٥٠]:

﴿والله خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ من ماءٍ، فمنهم مَنْ يمشي على بَطْنِهِ، ومنهم من يَمْشِي على رجلين ومِنْهُمْ من يَمْشِي على أَرْبَع﴾.

ومن الماء أَنبت الله حدائق ذات بهجة ﴿وأَنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾[٥١] وأَخرج به ثمرات مختلفاً أَلوانها ﴿أَلم تر أنَّ الله أنزلَ من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً أَلوانها﴾[٥٢] به تصبح الأرض مُخْضرة ﴿أَلم تَرَ أنَّ الله أَنزلَ من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة﴾[٥٣] منه شراب ومنه شجر وفيه نسيم الأنعام وبه ينبت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات: ﴿هو الذي أَنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون﴾[٥٤].

---

(٤٧) النحل: ٦٥.

(٤٨) العنكبوت: ٦٣.

(٤٩) الروم: ٢٤.

(٥٠) النور: ٤٥.

(٥١) النمل: ٦٠.

(٥٢) فاطر: ٢٧.

(٥٣) الحج: ٦٣.

(٥٤) النحل: ١٠.

وسَمَّى القُرآن الكريم الماء ﴿رَحْمَة﴾، قال تعالى[٥٥]: ﴿وهو الذي أرسل الرّياح بُشْراً بين يدي رَحْمَته، وأَنْزلَ من السَّماء ماءَ طهوراً﴾.

وقرن الرَّحمة بالمطر في آية أخرى[٥٦]: ﴿وهو الذي يُنْزل الغَيْثَ من بعد ما قَنَطوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَه﴾.

وقرن الماء بالطَّهارة والنَّقاء:

قال تعالى[٥٧]: ﴿وأنزلنا من السَّماء ماءً طهوراً﴾.

قال تعالى[٥٨] ﴿ويُنَزِّلُ عليكم من السَّماء ماءً ليطهِّركم به﴾.

ووصف الماء بالبَرَكة:

قال تعالى[٥٩]: ﴿ونَزَّلنا من السَّماء ماءً مباركاً فأَنْبَتْنَا به جَنَّاتٍ وحبَّ الحَصيد﴾.

وضرب القرآن الكريم مثلاً للحياة الفانية بالغَيْث الذي يُنْبِتُ زرعاً رائقاً يُعْجِبُ الكُفَّار، سرعان ما يَتَحَوَّل إلى هشيم تَذْروه الرّياح:

قال تعالى[٦٠]: ﴿اعلموا أَنَّما الحياة الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينةٌ وتَفاخُرٌ بينكم وتَكَاثُرٌ في الأَموال والأولاد، كَمَثَلِ غَيْثٍ أعجب الكُفَّار نباتُهُ ثم يهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثم يكونُ حطُاماً، وفي الآخرة عَذَابٌ شديدٌ ومَغْفِرةٌ من الله ورضوان وَمَا الحياة الدُّنيا إلاّ مَتَاع الغُرور﴾.

---

(٥٥) الفرقان: ٤٨.

(٥٦) الشورى: ٢٨.

(٥٧) الفرقان: ٤٨.

(٥٨) الأنفال: ١١.

(٥٩) الفرقان: ٩.

(٦٠) الحديد: ٢٠.

وقد جاءت صورة المطر من حيث هو عنصرٌ متناقض في «القرآن الكريم» واضحة وضوحاً تاماً، فهو مادة للحياة، ومادة للموت معاً، وكثيراً ما يُذْكَرُ المطر في «القرآن الكريم» في موضع الانتقام والعَذاب، قال تعالى(٦١): ﴿وأَمْطَرنا عليهم مَطَراً، فَانْظُر كيف كان عاقبة المجرمين﴾.

وقال تعالى(٦٢): ﴿وأمطرنا عليها حجارةً من سِجِّيل مُنْضُود﴾.

وقال أيضاً(٦٣): ﴿وأمطرنا عليهم مَطَراً فَسَاءَ مطرُ المُنْذَرين﴾.

وقال أيضاً(٦٤): ﴿ولقد أتوا على القرية التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء﴾.

وقال أيضاً(٦٥): ﴿فأمطر علينا حِجَارة من السَّمَاء﴾.

ورسم القرآن الكريم صُوراً مُرْعبة للماء في «طوفان نوح»(٦٦)، وفي تصويره للصواعق الهائلة، والبرق الخاطف الذي يكاد يَذْهَبُ بالأبصار(٦٧).

وهاتان الصورتان المُتَضَادَّتَان للمطر أبرزهما «القرآن الكريم» بوضوح تام: صورة الرَحْمة والطُّهْر والنِّعْمَة والحياة، وصورة العَذَاب والنِّقْمة والرّعْب والمَوْت.

---

(٦١) الأعراف: ٨٤.

(٦٢) هود: ٨٢.

(٦٣) الشعراء: ١٧٣، والأنفال: ٣٢.

(٦٤) الفرقان: ٤٠.

(٦٥) الأنفال: ٣٢.

(٦٦) انظر سورة هود.

(٦٧) النور: ٤٣، والبقرة: ١٩، والروم: ٢٤. والرعد: ١٣.

(٣) المَطَر والجَدْب

وصورة العَذَاب والنِّقْمة والخوف والقتل تَتَمَثَّلُ بالجَدْب والمَحْل والقَحْل الذي يطبع شبه الجزيرة العربية بطوابع راسخة ثابتة في الذِّهن، فيحيلُ حياتهم شقاءً، وعذاباً، وفقراً، وشُحّاً، وجوعاً: لذلك كانت معاناة العربي من الطبيعة الكنود عظيمةً، سواء في يسرها أم عسرها، فإن أَجدَبَتْ جاءت بالعذاب، وإن أُمطرت صَبَّت الموت الزُّؤام، يشتدّ بَرْدُها حتى لَيَجْمُدَ المطر على أهداب عيون الإبل(٦٨)، ويتلظَّى حرّها حتى تكاد تزهق الأنفس من سعيرها، وقد ينحبس الغيث سنوات متواليات وتنكشف السماء زمناً طويلاً عن زُرْقَةٍ رتيبة إلّا من سحائب كالقُطْن متراخيات، وحشد من ضوء وغُبار يثبت ويدوم، ويستمرُّ ما شاء الله أن يستمر. وذات يوم تنعقد الغيوم، وتنفتح أبواب السماء، بعد طول تَرَقُّب، وتسقط الأمطار على الأرض الظَمْأى ما فيضرب عاليها، ويغمر سافلها(٦٩).

وقد أدّت فكرة الجَدْب وعُقْم الطبيعة إلى تعظيم المطر، وإلى تَطَوُّر «علم الأنواء»، لأنَّ سلامة تقديرهم للمطر، ومواقع سقوطه مسألة حياة أو موت. قال الجاحظ(٧٠): «ولحاجته ـ يعني العربي ـ إلى الغيث، وفراره من الجَدْب، وضَنّه

---

(٦٨) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، مطبعة وزارة المعارف، الرياض، (دون تاريخ)، ص٤١١.

(٦٩) د. عزة النص، المزاج الطبيعي لمنطقة نجد، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الأول، السنة الأولى، ١٩٧٠م، ص٨.

(٧٠) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي =

بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرّف شأن الغيث، ولأنّه في كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كواكب، ويرى التعاقب بينها، والنجوم الثوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً، وما يسير منها فارداً، وما يكون منها راجعاً مستقيماً».

وليس الجَدْب في الصحراء العربية طارئاً في سنة من السنوات، فقد ارتبطت به دوماً حياة العرب ارتباطاً وثيقاً، ولعلّ النّواح من أجل المطر أبرز ألحان الحزن في الشعر الجاهلي، وفي الجدب تتحول الصحراء العقيم عندما تهب عليها رياح السموم جحيماً لا يطاق.

وقد ذكر «ديودور الصقلي» في القرن الأول قبل الميلاد، أَنَّ بلاد العرب في شمال اليمن إلى سوريا كان المطر يجودها غزيراً في فصل الصيف، وتجري بها أنهار كثيرة، فيزرع أهلوها في العام الواحد زَرْعَتَيْن[٧٢]:

وربما التبس الأمرُ عليه فسمَّى الأودية المُحْفَلة بالماء أنهاراً. وقد عقد الهمداني فصلاً عن أودية السّراة ومسايل الماء فيها[٧٢].

ووصف المسعودي الحجاز في عصره فقال: إنها أشجر بلاد العرب وأكثرها ماءً[٧٣].

ووصف الطبري اليمامة، فقال: واليمامة إذْ ذلك من أخصب البلاد وأعمرها،

= الحلبي، القاهرة، (دون تاريخ)، ج٦ ص٣٠.

(٧١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر ١٩٦٩، ص٣، وأحمد الحوفي (ت ١٩٨٥م)، أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٨، ص٢٦.

(٧٢) الهمداني، الحسن بن محمد (٣٣٤هـ / ٩٤٦م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: برفنسال، القاهرة ١٩٣٧م، ص٧١ ـ ٧٨.

(٧٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة القاهرة، ١٩٧١م، ج٢، ص٨١.

وأكثرها خيراً وأشجاراً[٧٤].

وتحدث الأزرقي في (تاريخ مكة) عن السّيول التي داهمت مكّة وأغرقتها، فذكر سيول وادي مكّة في الجاهلية[٧٥]، وسيول وادي مكّة في الإسلام[٧٦]، ووصف سيل الجحّاف الذي أغرق مكّة سنة ٨٠هـ[٧٧].

وقال صاحب كتاب (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام)[٧٨] نقلاً عن كتاب (إتحاف الورَى بأخبار أُمّ القُرى) في حوادث سنة سبع عشرة: فيها جاء سيل عظيم يُعْرَف بسيل (أم نَهْشَل) من أعلى مكة، من طريق الروّم، فدخل المسجد الحرام، واقتلع مقام إبراهيم من موضعه، وذهب به حتى وُجد بأسفل مكّة، وذهب السّيل بـ (أم نهشل) بنت عبيدة بن سعد بن العاص بن أمية بن عبد شمس) فماتت فيه.. وكان سيلاً هائلاً.

وقد ألف السيّد عبد الله بن جعفر بن علوي كتاباً سمّاه: (تذكرة المُتَذَكِّر فيما جرى من السيل المتبحِّر)[٧٩]، وصف فيه السيل العظيم الذي غمر مكّة ودمّرها في ٢٦ رمضان سنة ١١٥٣هـ، وقد استطرد المؤلف إلى ذكر أخبار السيول الكبيرة التي أغرقت مكّة في العصور الغابرة.

فقد يكون مطر الرّحمة مطر عذاب ونِقْمَة، وهناك حقيقة تقول: إنَّ عدد من

---

(٧٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٩ مج، ط٤، دار المعارف بمصر، ١٩٧٩، ج١، ص٦٢٩.

(٧٥) الأزرقي، محمد بن عبد الله (ت ٢٥٠هـ)، تاريخ مكة، طبعة دار الأندلس، إسبانيا، (دون تاريخ)، ص١٦٦.

(٧٦) المصدر السابق، ص١٦٧.

(٧٧) المصدر السابق، ص١٦٩.

(٧٨) قطب الدين الحنفي (؟؟)، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، المطبعة العثمانية، بمصر، ١٣٠٣، ص٤٥.

(٧٩) منه نسخة خطية بالمكتبة التيمورية في القاهرة بخط المؤلف سنة ١١٥٣هـ.

يموت في الصحراء غرقاً يفوق عدد من يموت فيها عطشاً[٨٠].

وكما أَنَّ الجَفَاف يُجْدب الصحراء، فإنَّ المطر يجرف كلَّ شيء، فلا يبقي ولا يذر. والمطر حين يهطل لا يهطل دائماً رحيماً رفيقاً، فما أكثر ما ينهمر قوياً عاتياً، يجرف التربة ويحطم الخيام والشّجر، ويتلف الزرع، ويُغْرق المنازل، ويُشَتّت القطيع، ويحوّل الأرض إلى مسايل تجعل كلّ عامرٍ دامر[٨١].

وفي أخبار نجد كثيراً ما نسمع عن السيول الهائلة والأمطار المخيفة، والصواعق المُدَمِّرة التي تقلع البيوت من جذورها، وتهلك السَّوَام والنَّاس، وتترك آثاراً من العُنْف والدمار ظاهرة[٨٢].

وقد وصف (جيمس ويللارد) هاتين الظاهرتين المتناقضتين: المَحْل والسَيْل في الصحراء الكُبْرى، فقال[٨٣]:

«مُنيت الصَّحْراء الكبرى بجفاف استمر عامين، سَفَع الأرض، فلم تسقط في البلاد نقطة من مطر طوال عام ١٨٦٧م، وفي العام الثاني تَدَفَّقَت الأمطار كالطُّوفان تدفُّقاً جرف التُّربة، ودَمَّر كُلَّ أثر للنموّ الزراعي، وأكملت الثلوج ما بدأه الجراد والجفاف والمطر، فما بقي شيء يؤكل سوى الأموات من بشر وحيوانات، ومات جوعاً خمس مجموع السكان المسلمين.

لقد كان المرء يلقي في كل خطوة تلك الهياكل السائرة: نساء يَضْمُمْن أطفالهنّ الموتى إلى أثدائهنّ الجافة، وأولاداً تركهم آباؤهم ليموتوا، وكُلُّ شيء لَفَّهُ

(٨٠) جورج غيرستر، الصحراء الكبرى، ص٩٤.

(٨١) عزة النص، المزاج الطبيعي لمنطقة نجد، مجلة كلية الأداب، المجلد الأول، السنة الأولى، جامعة الرياض، ١٩٧٠م، ص١١.

(٨٢) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ص١٤٢.

(٨٣) جيمس ويللارد، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٧م، ص٤٠٧.

الصَّمْتُ الكئيب الذي تلقيه الروح الإسلامية على الموت والآلام(!!!).

وقال[٨٤]: «ثم تأتي مشاهد الإجرام البالغ الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الحضارة(!!!) فهؤلاء آباء وأمهات يذبحون أبناءهم ليأكلوهم، وذاك أخ يقتل أخاه، وقد اختفت كل المشاعر الإنسانية بنوع من الوحشية أخذت معه عيون الناس تلمع ببريق الشَّرِّ والتهديد».

وقد نرى في وصف هذا الرحَّالة مبالغة غير معقولة؛ لكن الإحساس بقسوة الطبيعة في الصحراء العربية أمر لا نستطيع إنكاره، فصُور الجَدْب والجفاف والعُقْم محفورة في ذهن شعراء العربية حفراً، وفي مخيلات الشعراء الجاهليين صور مرعبة، ومناظر فظيعة لطوفان (نوح) المُدَمّر، والسيل العَرِم الهائل في مأرب؛ لكن هذه السيول ليست بشيء إذا قيست بسنوات الجدب العِجَاف التي حَلَّت بالحجاز وعروضها، والتي وصفها (الهمداني) وصفاً مفصلاً[٨٥] وندرة الماء، والمطر النَّزْر، والحرمان والجدب جعلهم يبالغون في تقدير الخصب، ويقدسون مواطن المياه ومنابعها، ويعتقدون فيها أسراراً غامضة، وقوى خفية[٨٦].

---

(٨٤) المصدر نفسه، ص٤٠٧.

(٨٥) الهمداني، الحسن بن أحمد (٣٣٤هـ / ٩٤٦م)، صفة جزيرة العرب، ليدن، ١٨٨٤م، ص٢١٤.

(٨٦) نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠م، ص٤٥.

(٤) الهاجرة والشتاء الجديب

وقد عُني الشعراء بتصوير هجير الصحراء الذي يُميت أنفاس الرياح، ويُحيل الحياة إلى جماد وسكون، وعندما يَسْفَح المسافرين سعير الصحراء يكاد يشوي الوجوه، ويطبخ لحم النوق، ويترك الراحلين أنقاضاً على أنقاض، وأشباحاً على أشباح. قال علقمة الفحل[٨٧].

وقـد عَلَوْتُ قَتُـودَ الـرَّحْـل يَسْفَعُني ... يومٌ تجـيءُ به الـجَـوْزاء مَسْـمُـومُ
حامٍ كأنَّ أُوار الـنـار شامـلُهُ ... دون الـثّياب ورأس المَـرْءِ مَعْمُـومُ

وقال زهير بن أبي سلمى[٨٨].

وبـلدةٍ لا ترام خائـفـة ... زوراء مُغْـبـرة جوانـبُـهـا
تسـمـعُ للجـنّ عازفـين بهـا ... تضـجّ من رَهْـبـة ثعـالـبُـهـا
يُصَـعِّـد من خوفـهـا الـفُـؤاد ولا ... يرقـد بعض الـرُّقَـاد صاحـبُـهـا
كَلَّفْـتُـهـا عِرْمـسـاً عُذَافـرةً ... ذات هبـاب فَعْـمـاً منـاكـبُـهـا

ويتكـرر في الشعـر الجاهلي منظر الحرّ اللافح، وسموم الهاجرة التي تكاد تطبخ لحم المسـافـرين عنـدما تحيل الصحراء بمظاهرها جميعاً عناصر ثابتة:

---

(٨٧) علقمة الفحل، الديوان، بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩، ص٧٣.

(٨٨) زهير بن أبي سلمى (. . . ـ ٦٠٩م)، الديوان، صنعة: أبي العباس ثعلب، تقديم: أحمد العدوي، دار الكتب المصرية، ١٩٤٤، ص٢٦٥.

الصحراء تموت، والآرام تقيل في كُنُسها، والحرباء لا تَرِيم، وليس هناك ما يَدُلُّ على الحياة إلّا خفْق الآل على رؤوس الآكام والإبل الصابرة المثابرة:

قال عبدة بن الطبيب[89]:

تهــدي الــرِّكــاب سَلوفٌ غيرُ غافلةٍ   إذا توقَّــدت الــحُــزّان والــمِــيلُ

وقال الأعشى[90]:

تَدَلَّـت عليه الـشـمس حتّى كأَنَّهــا   من الـحَــرِّ تَرْمي بالسكينــة قُورهــا

وقال المتلمّس الضبُعي[91]:

وجنــاء قَدْ طَبَـخَ الهــواجـر لَحْمَهــا   وكــأَنَّ نِقْــبَـتَــهــا أَديمٌ أَمْــلَسُ

وقال الأعشى[92]:

وودِيقــة شهــبــاء رُدِّ   يَ أُكْــمُــهــا بسَــرَابــهــا
ركــدت عليهــا يومــهــا   شَمْسٌ يحــرُّ شِهَــابــهــا
حتــى إذا ما أَوْقَــدتْ   فالــجَــمْــرُ مثــل تُرابــهــا
كَلَّفــتُ عانــســةً أمــو   ناً في نَشَــاط هبــابــهــا

---

(٨٩) عبدة بن الطبيب (. . . ـ بعد ١٣هـ)، التبريزي يحيى بن علي (٤٢١ ـ ٥٠٢هـ)، شرح المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧، ص٥٠١، وسنشير لهذا المصدر لاحقاً بـ «المفضليات».

(٩٠) الأعشى الكبير (. . . ـ ٦٢٤م)، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، ١٩٥٠م، ص٣٧٣.

(٩١) المتلمس، جرير بن عبد المسيح الضبعي، الديوان، تحقيق: كارل فولرس، ليبزج، ١٩٠٣م، ص١٩٢.

(٩٢) الأعشى الكبير، الديوان، ص٢٥٥.

قال جورج غيرستر يصف الصحراء الكبرى[٩٣]: ولن أنسى ما حييت تلك الحرارة الرهيبة، ولا تلك القفزات الهائلة من الرِّمال التي تُحرِّكها الرياح فتملأ الهواء بعشرات الآلاف من البلّورات الرمليَّة النَّاعمة اللاَّمعة، ولا تلك الحمائم التي شوتها الشمس الحارة المَجْنونة. وأدركت آنذاك أن الحياة ـ في الواحات على الرغم مما فيها من شقاء وتعاسة ـ تكتسب رَوْنقاً خاصاً عندما يرى الإنسان في محتواها الصحراء الصفراء القاحلة وهي تقف وراءها جامدة وقورة شاحبة.

وقد صور الشعر الجاهلي الجَدْبَ في الحياة العربية بصور فظيعة، وكثيراً ما يصفون الجوعى المقرورين، والعُفَاة الملهوفين ممَنْ قَذَفَتْ بهم الصحراء في فم الموت يطرقون البيوت بحثاً عن الطعام. ويعرض الشعراء في لوحاتهم صوراً كثيرة للجَدْب والقَحْل، ويقرنونهما بالريح الحُرْجُف العاتية التي تَصُكُّ الوجوه صكّاً، مما يدفع الإبل القويَّة أَنْ تلوذَ بالحالبين وبأشجار السَّلم وأفنان العضاه، وفَحْلُ النوق عندما يَسْفَعُهُ الصُّرّاد والصَّقيع يتقدَّم الشَّوْلَ راقصاً إلى الدِّفْء[٩٤].

وسمُّوا السَّنَة الجَدْبة «كَحْلاً» إمَّا لخُضْرة السَّماء فيها وآنقشاع الغيم من سمائها، وإما لسواد الحياة فيها وسوء المعيشة وضَنْكها. وسمّوها أيضاً «ضَبُعا»[٩٥]

---

(٩٣) جورج غيرستر، الصحراء الكبرى، تعريب: خيري حماد، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦١م، ص١٤٦.

(٩٤) طرفة بن العبد، الديوان، بشرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: لطفي الصقال، ودرية الخطيب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م، ص١٣٠.

(٩٥) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، ج٦ ص٤٤٦.
الضَّبُع: الأنثى من الضباع، والضَّبُع: السنة الشديدة المهلكة المجدبة، وفسروا بذلك قول عباس بن مرداس:
أبا خراشة أمَّا أنت ذا نفرٍ ... فإنَّ قومي لم تأكلهُمُ الضَّبُع
والضَّبُع: الشر، والضبع: الجور، والضبع: المطر الشديد؛ لأن سيله يخرج الضِّباع من وُجُرها.
=

لأنها تَأْكُل الأَخضر واليابس، ولا تُبْقي ولا تَذَر.

قال عمرو بن قميئة[٩٦] :

وإن صرَّحَتْ كَحْلٌ وهَبَّتْ عريَّةٌ
من الرِيّح لم تَتْرُكْ لذي المالِ مرْفَدَا

وفي مثل هذه السنين العجفاء تجود النفوس الغنيّة والقلوب الكبيرة بما تملك للجار والحليف وابن السبيل.

قال خفاف بن ندبة[٩٧] :

إذا الحسناءُ لَمْ تَرْحَضْ يديها ولم يقصر لها بَصَرٌ بِستْرِ
قروا أضيافهم رَبَحاً ببُحٍّ تجيءُ بعبقريّ الوَدْق سُمْرِ
هم الأيسار إنْ قَحَطَتْ جُمادى بكل صبير ساريةٍ وقَطْرِ

ويتَّصل الجَدْب في الشعر الجاهلي بفَصْل الشتاء الذي يُزْجي الرِّياح الشآمية التي تحصبهم بالصقيع، وتقذفهم بالسحاب العقيم.

قال المثقب العبدي[٩٨] :

= قال ابن الأثير: هو في الأصل الحيوان المعروف، والعرب تكني به عن سنة المجاعة. والكَحْل: شدة المَحْل، والكَحْل: السنة الشديدة المُجْدبة، وقيل: هي معرفة لا تدخلها الألف واللام، وكَحَلتهم السنون: أصابتهم، وفي المثل: «باءت عَرارِ بكَحْل»، إذا قُتل القاتل بمقتوله، وكَحْلة: من أسماء السماء، والمَحْلة: الأرض.

(٩٦) عمرو بن قميئة، أبو كعب، (جاهلي قديم)، الديوان، تحقيق: كامل الصيرفي، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٥م، ص ١٠.

(٩٧) خفاف بن ندبة السلمي الأنصاري، (توفي في خلافة عمر بن الخطاب)، شعره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص٥٢.

(٩٨) المثقب العبدي، عائذ بن محصن، أو شأس بن عائذ، (... ـ ٥٨٧م)، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٦٧.

إذا الـرِّيحُ جاءت بالـجَـهَـام تَشُـلُّهُ　　هَذَاليلَـهُ شَلَّ القِـلاص الـطَّرائِـدِ
وأعـقـب نوءُ الـمـرزمين بغُبْـرَةٍ　　وقَـطْر قليل الـمـاء بالـلَّيل باردِ
كفى حاجـةَ الأضْيَاف حتى يُريحُهـا　　على الـحـيّ منّـا كُلّ أروع ماجـدِ

وإذا أَسْنَتَ القوم تَمَدَّحوا بقِرى الضِّيفان من شحم النُّوق السَّمينات التَّامكات.

قالت الخنساء(٩٩):

فمَـنْ للضَّـيْف إنْ هبَّـتْ شمـال　　مَزَعْـزَعَـةٌ تُجَـاوِبُـهـا صَبَـاهـا
وألْـجَـأ بَرْدُهـا الأَشْـوالَ حُدْبـاً　　إلـى الـحُـجُـرات بادية كُلاهـا
هنـالـكَ لو نزلـتَ بآل صَخْـرٍ　　قَرَى الأضْيَاف شَحْمـاً من ذُرَاهـا

وقال عامر بن الطُّفيل(١٠٠):

إذا سَنَـةٌ عَزَّتْ وطَـالَ طُوالُـهـا　　وأَقْحَطَ عنهـا القَـطْرُ واَصْفَـرَّ عُودُهَـا
وُجِـدْنَـا كِرَامـاً لا يُحَـوَّلُ ضَيْفُنـا　　إذا جَفَّ فوْقَ الـمَـنْـزِلات جليدُهَـا

وفي الجَدْب يُقْرون الضِّيفان المُرْملين، والجَوْعى المَعْوزين، والعُفَاة الملهوفين نُوقاً لحيمات ثمينات؛ فيحيلون جَدْبهم خصباً ونعيماً وجوعهم شَبَعاً وريّاً، لكن هذا الادِّعاء لم يكن دائماً صادقاً؛ لأنَّ المَحْل والقَحْط ـ يجعل النفوس أشدَّ حرصاً واقتصاداً وخوفاً من الضَّبُع العجوز التي تأكل الزَّرْع والضَرْع، لذلك كان الجدبُ مخيفاً في الصحراء العربية، فَتَفَاءَلُوا بالخير وسمُّوا أبناءهم بمعاني المطر

---

(٩٩) الخنساء، تماضر بنت الشريد السلمي (. . . ـ ٢٤هـ)، شعرها، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م، ص١٤٠.
(١٠٠) عامر بن الطفيل العامري، (توفي في حياة الرسول ﷺ)، الديوان، بشرح الأنباري، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣، ص٤٦.

والمـاء: كالمنـذر بن ماء السَّمَاء، وأخيه (المُتَمَـطِّر)[101] وسَمُّـوا (سحـاباً)[102] و(حَياً)[103]، وسمُّوا (مَطَراً) أكثر من واحد: مطر اللَّيْثي، ومطر بن هلال، ومطر بن عُكَامس السُّلَمي، ومطر بن أبي سالم، ومطر بن عوف، ومطر بن طهمان، ومطر بن ميمون، ومطر بن فزارة الخارجي. ومن كناهم: أبو مطر وأبو الغيث، والحسين بن مطير شاعـر عباسي معروف. وسمّوا غَيِّثاً وغَوْثاً ومُغيثاً وغَيَّاثاً، والغَوْث: بَطْنٌ من طيء، وغوث: قبيلة من اليمن، وحيّ من الأزد ـ والغوث بن مرّ في مضر[104].

---

(١٠١) أبـو تمام، حبيب بن أوس الطـائي، ديـوان الحـماسـة، تعليق: محمـد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٩٥٥، ٢مج، ج١ ص٣٥.

(١٠٢) السيـد محمـد مرتضى الـزبيـدي (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م)، تاج العـروس من جواهـر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ، مادة (سحب).

(١٠٣) حسان بن ثابت الأنصاري (٠٠٠ ـ ٥٤هـ)، الديوان، تحقيق: سيد حنفي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م، ص٧٧.

(١٠٤) ديوان الحماسة، ج١ ص٨٠، وتاج العروس، مادة (غوث).

(٥) الدلالة اللغوية

وكان الجَذْب في الحسِّ اللُّغوي العربي يعني (العَيْب). قال سلامة بن جندل[١٠٥]:

كنا نَحُلُّ إذا هَبَّتْ شآميةٌ بكُلِّ وادٍ حَطِيبِ البَطْنِ مَجْدوب

(المَجْدوب: المَذْموم المعيب).

وأنشد أبو عمرو للكُميت بن زيد قوله[١٠٦]:

أبارق إنيّ لا أريد أذاكُمُ ولا ضَرْبكُم ما لم تُعِينوا على جَذْبي

أي: عَيْبي.

وقد استعمل اليَعْقوبي كلمة الصَّحْراء لتعني التُّربة التي يَدْفِنُ الناسُ فيها موتاهم[١٠٧]، أما الماء فهو الكلمة الأساسية في لغة الصحراء، فهو: الحَيَا والجَدَا والجمال والشباب والخير والنِّعْمة والخِصْب. وحيث لا تُوجد واحاتٌ في بعض المناطق الصحراوية يحصل البدو على الماء من باطن الأرض، وأحياناً يجدونه قريباً منها، ويسمونه: الثَّمَد والحِسْي.

وبعد نزول المطر قد يحفظونه في بَيْض النَّعام الفارغ ويخبِّئونه في الرَّمْل، وبذا

---

(١٠٥) سلامة بن جندل التميمي، (جاهلي قديم)، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، حلب ١٩٦٩م، ص١١٩.

(١٠٦) سلامة بن جندل، الديوان ص١٢١. ولم أجده في ديوان الكميت بن زيد (ت ١٢٦هـ / ٧٤٣م) شرح الهاشميات، تقديم: محمد الرافعي، شركة التمدن الصناعية بمصر (د. ت).

(١٠٧) جورج غيرستر؛ الصحراء الكبرى ص٩، ولم أجد هذا الاستعمال في كتب اليعقوبي المعروفة. انظر اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٩٥٧، وتاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

يأمنون العطش أيَّام القحط(١٠٨).

واتَّخذ المطرُ في أذهانهم صورةَ المُغيث من الهلاك، فسمّوه غَيْثاً، وصورة أصل الحياة فسموه حَياً، وصورة المُنْجي من العذاب فسَمُّوه رَحْمَةً.

وهو مادة للتطهير الحسّيّ والمعنويّ: قال طرفة(١٠٩):

إذا المرء لم يَغْسِلْ من اللَّوْمِ عِرضَهُ ... ولم يُنْقِهِ لم يغنِ عنه بهاؤُه

والمطر يَعْني النِّعْمة والخير، قال جويرية بن بدر(١١٠):

لعلَّهم أَنْ يمطُرُوني بنِعْمةٍ ... كما صَابَ ماءُ المُزْن في البَلَدِ المَحْلِ

وقال حسان بن ثابت(١١١):

وندمان صدقٍ تُمْطِرُ الخيرَ كَفُّهُ ... إذا راحَ فَيَّاض العَشيَّاتِ خِضْرَمَا

(والخِضْرَمُ هنا: الجواد، من الخِضْرَم وهو الماء الكثير).

وقال حسّان أيضاً:

ومُسْتَمطراً في الأَزْلِ أصبح سَيْبُهُ ... على مُعْتَفيه دائمَ الوَدْق مُنْهَلاّ(١١٢)

له كَفٌّ تفيضُ دَماً وكفٌ ... يُبَارى جودُها سَحَّ الشَّمالِ(١١٣)

كَم قَدْ ولَدْنا من كريمٍ ماجدٍ ... دامي الأظافر أو ربيعٍ مُمْطِرِ(١١٤)

---

(١٠٨) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، الأغاني، دار الكتب المصرية ١٩٢٧م، ج١٨ ص١٣٣.

(١٠٩) طرفة بن العبد، الديوان، ص١٦١.

(١١٠) بنو تميم، شعرهم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م، ص٣٣٢.

(١١١) حسان بن ثابت: الديوان، ص١٢٨.

(١١٢) المصدر السابق، ص٢٧٤.

(١١٣) المصدر السابق، ص٢٧٦.

(١١٤) المصدر السابق، ص٣٨٧.

والمطر قوةٌ عُظْمى، نافعة، فيه معنى (البَركة) والشِّفاء والحَياة؛ لذلك قال الشاعر[115]:

وما العَيْشُ إلاَّ نَوْمَةٌ وتشرُّقٌ وَتَمْرٌ كَأَكْبَاد الجِرَار ومَاءُ

وقال عبيد بن الأبرص[116]:

فذاك الماءُ لو أنّي شربتُ به إذاً شَفَى كَبِداً شَكَّاء مَكْلُومَهْ

والماء يعني أيضاً: العِزّ والمَنَعَة، والكَرَامة، والشَّرَف. قال الحصين بن الحمام المُرّيّ[117]:

أثعلبَ لو كنتم مواليَ مثلها إذاً لَمَنَعْنَا حوضَكُمْ أَنْ يُهَدَّمَا

المطر شفاء الرُّوح والنَّفس، قال المِمزّق العبدي[118]:

صَحَا من تصابيه الفؤاد المُشَوَّقُ وحان من الحَيّ الجميع تَفَرُّقُ
وأصبَحَ لا يَشْفِي له من فؤاده قِطارُ السّحاب والرّحيق المُرَوَّقُ

والماء في الحِسّ اللُّغوي العربي يعني: الغَيْث والحَيا والرَّحْمَة والطُّهر والنَّقَاء وسرّ الحياة، وهو أيضاً: ماء الشَّباب وماء الرِّقاب، وماء الجَمال، ويعني أيضاً: النِّهاية المَحْتومة للحياة، لذلك قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي[119]:

---

(١١٥) أبو تمام، جبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، ج٢ ص٤٠٤.

(١١٦) عبيد بن الأبرص (. . . ـ ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق: حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٢٩.

(١١٧) التبريزي، يحيى بن علي (٤٢١ ـ ٥٠٢هـ)، شرح المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٦٦.

(١١٨) المصدر السابق، ص٣٠١.

(١١٩) البحتري، الوليد بن عبيد الطائي، الحماسة، تعليق: كمال مصطفى، المكتبة التجارية بمصر، ١٩٢٩م، ص٤٧.

« وطَابَ المَوْتُ من شَرَع ووِرْدِ »

وتَخَيَّلوا الموت ماء ، فقال عنترة[120] :

« إنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌ »

وقالت الخنساء[121] :

« وحَوْضُ المَوْتِ مَوْرُودُ »

والمحاربون ـ كما يقول النابغة[122] ـ :

« يَتَسَاقَوْنَ المنيَّة »

ويحتملُ الماء معنى : السَّعَادة والكَرامة والعِزَّة والشَّرَف ، وطيب العَيْش . وقد عَبَّرَ عن هذه المعاني كلّها عمرو بن كلثوم في بيته المشهور[123] :

وأنَّا الشَّاربون الماء صَفْواً ويشْرَبُ غيرُنَا كَدَراً وطينا

وقد طبع الجَدْبُ الشعرَ الجاهلي بألحانٍ مأساوية حزينة ، وأصبحت حيازة الماء والسيطرة على مصادره مهمة شاقة يبذلون من أجلها الأرواح رخيصة . وقد عدّ (أبو ثمامة بن عازب الضَبّي) الماء (وطناً) يَذْحَرُ عنه الأعداء ، قال[124] :

رَدَدْتُ لضَبَّة أمواهها وكادت بلادُهُم تُسْتَلَبْ

---

(١٢٠) الأعلم الشنتمري ، يوسف بن سليمان (ت ٥٧٦هـ) ، مختار الشعر الجاهلي ، نشر مصطفى السقا ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص٣٨٩ .

(١٢١) الخنساء ، تماضر بنت الشريد السلمي (. . . ـ ٢٤هـ) ، أنيس الجلساء ، ص٢١ .

(١٢٢) الأعلم الشنتمري ، مختار الشعر الجاهلي ، ص١٦١ .

(١٢٣) الخطيب التبريزي ، يحيى بن علي (٤٢١ ـ ٥٠٢هـ) ، شرح القصائد العشر ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ ، ص٣٥٩ .

(١٢٤) أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، ديوان الحماسة ، تعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ١٩٥٥م ، ص٢٢٥ .

وكان النزاع على الماء من الأمور المألوفة في الحياة الجاهلية، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أكثر حروب الجاهلية كانت من أجل الماء، فقد اقتتلت (عَبْس وكَلْب) على ماء يقال له: (عراعر)، فقَتَلَتْ (عبس) من (كلب) جمعاً كثيراً، وفي هذا اليوم أنشد عنترة بن شداد قصيدته التي مطلعها[125]:

ألا هل أتـاهـا أنّ يوم عراعـر   شفـى سَقَـماً لو كانـت الـنَّفْسُ تَشْتَفي

ويشـير (معـاويـة بن دومـان في شعـره إلى أسباب حرب (همدان) و(قضاعة)، وكانت بسبب الماء، قال[126]:

أراد طفـيـلٌ يَمْـنَـعَ المـاء زَلَّـةً   ولم يك رأيـاً مَنْـعُـهُ المـاء لو عَقَـلْ
ففـارقت البيضُ الخِفـافُ غُمُـودهـا   ولاحت بأيـديهم مصـابيـح كالشُّعَـلْ
حسِـبْـتَ رِجـالاً أنْ تَجفَّ حُلُوقُـهـا   وأنـت على ريٍّ وفي راحـهـا الأَسَـلْ

ومثل هذه الخصومات كثيرة في العصر الجاهلي[127]:

ومن أجـل المـاء والكـلإ عرفـوا (نظام الحِمَى) إذْ كان العزيزُ منهم إذا انتجع بلداً مخصباً أوفى بكلب على جبلٍ أو على نَشَزٍ من الأرض، ثم استعوى الكلب، ووقف له من يسمـع منتهى صوتـه بالعـواء، فحيث انتهى صوتـه حماه من كلّ ناحية لنفسه، ومنع الناس منه[128]، وفسروا بذلك المثل المعروف (أعزُّ من كليب وائل)[129].

---

(١٢٥) عنترة بن شداد العبسي (. . . ـ ٦١٤)، الديوان، تحقيق سيف الدين الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨١م، ص١٣٠.

(١٢٦) الهمـدانيـون، شعـر همدان وأخبـارهـا، جمع وتحقيق: حسن أبـو ياسين، طبع دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص٣٠٨.

(١٢٧) أبو تمام، ديوان الحماسة، ج١ ص٨٧، و ٢٣٠، وج٢ ص٢٠٨.

(١٢٨) الآلوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العَرَب، بعناية محمد بهجة الأثري، ط٢، المكتبة الأهلية بمصر، ١٩٢٤م، ج٣ ص٣٣.

(١٢٩) الميـداني، أحمـد بن محمـد (٥١٨هـ)، مجمـع الأمثـال، طبـع دار مكتبـة الحيـاة، بيروت، ١٩٦١م، ج٣ ص٣٢.

ولكليب حِمَى (ضَرِيَّة)، وفيه قبره، وهو أشهر الحميات وأَسْيَرَهُا ذِكْرَاً. وقيل: هو حمى النَيْر، قال ياقوت: وفيه قبر كليب بن وائل، وهو قرب (ضَرِيَّة)[130].

وسمّى ياقوت الحموي أشهر الحميات في الجاهلية، وهي: حمى الرَّبَذَة، وضَريّة، وفَيْد، والنَّيْر، وذي الشَّرى، والنَّقيع[131]. ويرتبط الكلب بصاحب الحمى ارتباطاً يوحي باعتقاد جاهلي يؤدي إلى حُرْمة الحِمَى وقدسيته.

قالوا: كان أحد ملوك حمير قد حَمَى حِمىً ولم يسمح لغير قومه بالرعي فيه، فأجدب (الراعي الهَمْداني) الشاعر، فحل فيه ورعاه، فبلغ ذلك صاحب الحِمَى، فبعث إليه جُنْداً من حِمير، فطردهم الشاعر وهزمهم، وأنشد[132]:

رَعَيْتُ حِمَى المَلِك المُتَّقَى ... فَرُمْتُ بذلك أَمْراً كبيرا

فأَسْمَنَ منا الفتى مُهْرَهُ ... وأَبْطَنَ ذو المال مِنَّا البعيرا

فَوَجَّه في طلبي حِمْيراً ... فولَّوا غداة التقينا الظُّهُورا

فقالوا دعوا الكَلْبَ يرعى به ... فقلت آجعلوا الكَلْبَ كَلْباً عقورا

وكثيراً ما نرى العَطْشى - في الشعر الجاهلي - يهجُمُون على الماء، والجوعى يصيحون، وهم يَتَحدَّون أصحاب الحمى، فيبيحون حماهم، ويخلطون ماء الحِمَى بالدَّم. قال أوس بن حجر[133]:

نُبيحُ حِمَى ذي العزّحين نُريده ... ونحمي حِمَانا بالوشيج المُقَوَّمِ

---

(١٣٠) ياقوت الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٥٥م، ج٨، ص٣٥٦.

(١٣١) المصدر السابق، ج٣ ص٣٤٦، وج٥ ص٢٤٦، وج٨ ص٣١٢، و٣٥٦، وابن منظور، جمال الدين بن جلال الدين الخزرجي (٦٣٠ - ٧٧١هـ)، لسان العرب، مادة (حمى).

(١٣٢) الهمدانيون، شعر همدان وأخبارها، ص٢٥٦.

(١٣٣) أوس بن حجر (. . - قبيل الإسلام)، الديوان، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٢٤.

وقال عامر بن الطفيل[١٣٤] :

ولـكـنَّـني أحمـي حِماهـا وأتَّـقـي أَذاهـا وأرمـي مَنْ رَماها بمنـكـبِ

وقال زيد بن عمرو التميمي[١٣٥] :

ونـرعـى حِمَى الأقـوام غير مُحرَّم علينـا ولا يُرعَى حمانـا الـذي نحمي

وقال سحيم بن وثيل[١٣٦] :

وذادوا يوم طِخْـفَـةَ عن حِماهُـمْ ذيـاد غرائـب الإبـل الـنِّهَـالِ

وربما اتخذ (الحِمى) في الجاهلية الخاصَّةَ الروحيةَ التي يتميّز بها (التَّابو)، وهو المُحَرَّم أو المُقَدَّس الذي لا يجوز استباحته، أو الاعتداء عليه أو مسّه[١٣٧] .

---

(١٣٤) عامر بن الطفيل (. . . - في عصر الرسول)، الديوان بشرح الأنباري، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م، ص١٣ .

(١٣٥) بنو تميم: شعر بني تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م، ص٢٥٥ .

(١٣٦) المصدر السابق، ص٢٦٦ .

(١٣٧) حسن سعفان، علم الإنسان، طبعة مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٦٦م، ص٢٨١ .

(٦) اســتطلاع المطــر

ويأتي وصف المطـر في الشعـر الجاهلي ليُعَبِّر عن حاجات الأرواح العطشى لرحمة السماء، وكثيراً ما يكون تعبيراً جماعيًّا عن الرَّغبة في الطُّهر والنَّقاء والصَّفاء والقَداسة، وهي رغبة تكون مستقلةً عن الوعي الفردي الذاتي، وهي ليست وليدة العلم والإرادة الواعية؛ إنما هي وليدة الحَدس الجماعي، والشعور القومي، والخيال البدوي القبلي، لذلـك كان الموقف العـاطفي العـام في وصف المطـر متوافقاً عند الشعراء الجاهليين؛ فالمعـاني، والصـور، والـتراكيب، والمشـاهـد، والتعـابـير، والصيغ، والتشبيهات، والاستعارات، والأحداث لها حدود وأبعاد لا يكادون يتجاوزونها.

فالشعـراء كلهم يستطلعـون المطـر، ويأرقـون في ترقبـه، ويعـذبون في انتظاره، وينتحبون من أجله.

قال أبو ذؤيب الهذلي(١٣٨):

أَمِـنـك بَرْقٌ أَبيـتُ الـلَّيْـلَ أرقُبُـهُ　　كأنَّـه في عراض الـشَّـأْم مِصْـبـاحُ

وقال أيضاً(١٣٩):

أَرقـتُ له ذات الـعـشـاء كأنَّـه　　مخاريـقُ يُدْعَـى تَحْتَـهُـنَّ خَريـجُ

وقال عبيد بن الأبرص(١٤٠)

---

(١٣٨) الهذليون، شرح أشعار الهذليين، ج١ ص١٦٧.

(١٣٩) المصدر السابق، ج١ ص١٢٨.

(١٤٠) عبيـد بن الأبـرص (. . ـ ٦٠٠م)، الـديـوان، تحقيق: حسـين نصـار، مصطفى البـابي =

ـ يا من لبرق أبِـيتُ الـليـلَ أرقُبُـهُ من عارضٍ كبيـاض الـصُّبْـح لَمَّاح
ـ إنّي أُرقتُ ولم تأْرق معـي صاحـي لُمسْـتَـكـفٍّ بُعَـيْـدَ الـنَّـوْم لَوَّاح

وقال أيضاً[141]:

يا مَنْ لبرقٍ أبيـتُ الـليـل أرقُبُـهُ في مُكْـفَـهِـرٍّ وفي سوداء مَرْكُـومَـهْ

وقال أيضاً[142]:

صاحِ ترى بَرْقـاً بتُّ أَرقُـبُـهُ ذات الـعـشـاء في غمائـمَ غُرّ

وقال عبيد بن الأبرص أيضاً[143]:

أَرِقْـتُ لضَـوْء برق في نَشَـاص تَلألأ في مُمَلَّأةٍ غصـاص

وقال امرؤ القيس[144]:

ـ هل تأرقـان لبرق بتُّ أَرقُـبُـهُ كما تَكَـشَّـفُ عنهـا الـبُلْقُ أَجْـلالا
ـ أَرقْـتُ له ونـام أبـو شُريـحٍ إذا قُلْتُ قد هَدَأَ آسْـتَطَـارا
ـ قَعَـدْتُ له وصُـحْـبتي بين حامـرٍ وبـين إكـامٍ بُعْـدَ ما مُتَـأَمِّـل

وقال النابغة الذبياني[145]:

ـ أصـاحِ ترى برقـاً أُريـكَ وميضُـهُ يُضـيء سَنـاهُ عن رُكـامٍ مُنَـضَّـدِ

= الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٣٤.

(١٤١) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص١٢٨.

(١٤٢) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص٦٣.

(١٤٣) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص٧٥.

(١٤٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي (. . ـ ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م، ص٢٧١ وص١٤٨ وص٢٤.

(١٤٥) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية (. . ـ ٦٠٤م)، الديوان، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٨، ص٢٤٦، وص١٨٧.

- أرقتُ وأصْحَابي قعودٌ بربْوَةٍ لبَرْقٍ تلألأ في تِهامةَ لامع

وقال خفاف بن ندبة(١٤٦):

- أصاحِ ترى البَرْقَ لم يَغْتَمض إذا زعزعته الجنوب استطارا
- يا هل ترى البرق بِتُّ أَرْقُبُهُ في مُكْفَهِرٍّ نَشَاصُهُ قَرِدُ
- فدَعْ ذا ولكن هل ترى ضَوْء بارقٍ يضيء حَبِيًّا في ذُرَى مُتَألِّقِ

وقال طفيل الغنوي(١٤٧):

أصاحِ ترى برقاً أُريك وميضه يُضيء سناه سُوق أَثْلٍ مُرَكَّمِ

وقال سحيم عبد بني الحسحاس(١٤٨):

- أصاحِ ترى البرق لم يَغْتَمِضْ يضيء كِفَافاً ويجلو كِفَافا
- فدَعْ ذا ولكن هل ترى ضَوْء بارق يُضيء حبيًّا مُنْجِداً مُتَعَاليا

وقال الأعشى الكبير(١٤٩):

يا مَنْ يرى عارضاً قد بتُّ أَرقُبُهُ كأنَّما البَرْقُ في حافاتِهِ الشُّعَلُ

وقال لبيد بن ربيعة(١٥٠)

---

(١٤٦) خفاف بن ندبة السلمي الأنصاري (ت في خلافة عمر بن الخطاب)، شعره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص٨٧ وص٨٥.

(١٤٧) الطفيل بن عوف الغنوي (؟)، الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٨م، ص٧٥.

(١٤٨) سحيم عبد بني الحسحاس الأسدي، (ت في خلافة عثمان)، الديوان، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية ١٩٦٨م، ص٤٦، وص٣١.

(١٤٩) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس (. . ـ ٦٢٤م)، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسن، مكتبة الآداب، مصر ١٩٥٠، ص ٩٣.

(١٥٠) لبيد بن ربيعة العامري (٥٤٠م ـ ٦٦٥ ـ ٦٦٩م)، الديوان، تحقيق: د. إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٢م، ص٨٨، وص٢٩.

ـ أصاحِ ترى بريقاً هَبَّ وَهْناً كمصباح الشَّعيْلَة في الذُّبالِ
أرقت له وأنْجَدَ بَعْدَ هَدْء وأصحابي على شُعَب الرِّحَال
ـ يا هل ترى البرقَ بتُّ أَرْقُبُهُ يزجي حبيًّا إذا خَبَا ثَقَبَا
قعدتُ وحدي له وقال أبو ليلى: متى يَغْتَمِنْ فَقَد دَأَبا

وقال المرقش الأصغر[151]:

أَرَّقَني الليلَ بَرْقٌ ناصبٌ ولم يُعِنِّي على ذاك حميم

وقال حسان بن ثابت[152]:

أَرِقْتُ لتوماض البروق اللَّوامع ونحن نَشَاوى بين سَلْعٍ وفَارِع
أرقتُ له حتى علمتُ مكانَهُ بأكناف نَخْل فالتِّلاع الدَّوافع

ولست بحاجة إلى التَّدليل على أنّ الشاعر في الجاهلية كان واحداً من المسؤولين عن صنع المطر وإنزاله، أو هو الحالب الذي يأرق حتى تدر ناقة السماء[153]، فهذا أمر صَرَّح به أكثر الشعراء؛ لأن الشاعر القديم كان يقوم بدور الفنَّان المُبْدِع، والسَّاحر المتنبىء، والفيلسوف الحكيم.

ويكاد الحديث عن السُّهاد في مراقبة البرق والمطر بينما الآخرون لا يكترثون يكون من الصور المكررة في الشعر الجاهلي؛ لأن هذه مهمة الشاعر الساحر: صانع المطر[154].

---

(١٥١) التبريزي، يحيى بن علي (٤٢١ ـ ٥٠٢هـ)، شرح المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٢٤٨.

(١٥٢) حسان بن ثابت الأنصاري (. . ـ ٥٤هـ)، الديوان، ص٢٧٨.

(١٥٣) أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ٢مج، ج١ ص١٧٠.
ونصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، عمان ـ الأردن، ١٩٧٦م، ص٦٨.

(١٥٤) نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص٦٨.

(٧) طقوس الاستمطار

ونحس ـ ونحن نقرأ الشعر الجاهلي في المطر ـ تلك الحُمَيَّا التي تَنْتاب الشاعر وهو يرقب هذا الحَدَث الكوني العظيم : المطر، ويتتبع سُقُوطه، والأماكن التي سالت بها رحمته، وكأنما كان نزول المطر نتيجة لترقُّبه وصَلَواته وسَهَره وأَرقه ومُتابعته وتأمُّله .

وقد استخدم العرب ـ دون غيرهم من الأمم ـ النار طَقْساً سحريًّا لإنزال المطر، وسموها «نار الاستمطار»، ولهم فيها أساطير وحكايات وأشعار(١٥٥) . وقد أوهمنا الشعراء بهذا الطقس السحري، فأشعلوا النار في السحب المتراكمة على هيئة برق يلمع ؛ فالبرق :

«كمصباح الشَّعِيْلَةِ في الذُّبال»(١٥٦) .

أو «كما نَوَّر المصباح للعُجْم أَمْرَهم»(١٥٧) .

---

(١٥٥) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق : عبد السلام هارون، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (دون تاريخ)، ٨مج، ج٤ ص٤٦٦ . وأبو الريحان البيروتي، محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ)، الآثار الباقية من القرون الخالية، طبعة ليبزج ١٩٢٣م، ص٢٢٨ . والنويري، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩، ٢٢مج، ج١، ص١٠٩ . والقلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر (دون تاريخ)، ج١ ص٤٠٩ . وأمية بن أبي الصلت الثقفي (٨ هـ / ٦٢٩م)، الديوان، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٧م، ص٢١٣ .

(١٥٦) لبيد بن ربيعة العامري (٥٤٠م ـ ٦٦٥ ـ ٦٦٩م)، الديوان، ص٨٨ .

(١٥٧) الهذليون، شرح أشعار الهذليين، ج١ ص١٢٨ من قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي .

و «كأنما البرق في حافاته الشُّعَل»[١٥٨].

و «يلوح كأنَّه مصباحُ بانٍ»[١٥٩].

و «البرق يحترق غاباً يُضَرِّمُهُ حريقُه»[١٦٠].

ويفصح بعض الشعراء عن الدلالة الدينية في مراقبة البرق والمطر، فالمطر استُنْزِلَ بفعل ابتهالات ذلك السيد المدبر الموقر المهيب:

«الراهب المتعبد» أو «الحَبْر المُتَهَجِّد»؛ لذلك كان سَناه كـ:

«مصابيح راهب أهانَ السَّليطَ في الذُّبال المُفَتَّل»[١٦١].

والبرق «أَغَرّ كمصباح اليهود دلوج»[١٦٢].

(٨) صورة المطر في الفكر الجاهلي

والمطر حَدَث كوني عظيم، لا يَدِرُّ إلا بعد جُهد إنساني كبير، ومراقبة مُضْنية، وسهرٍ مؤلم.

ولا يولد المطر إلا بعد إلقاح وإخصاب وتزاوج؛ رياح الصَّبَا الرقيقة أو الرياح الجنوبية المُخْصبة تُلقح السُّحُب العَجْفاء فيمتلىء بطنها بالمطر. . وتتم الولادة العسيرة بعد تعَب، ونَصَب، وسَهَر، وعذاب، وتَضَرُّع، وتوسل، وأدعية، وابتهالات، فيدر الضَّرع العظيم بروح الحياة، وتحلب الرياح السحاب حلباً، أو تُمْريه مَرْياً، كما يحلب الأجير النوق، برفق وريث وتُؤَدة، يَبُسُّ لها حتى تَدِرَّ عروق ضروعها.

قال عبيد بن الأبرص[١٦٣]:

جونٌ تُكَرْكِرُهُ الصَّبَا ... وَهْناً وتمريه خريقَهْ
مَرْيَ العسيف عشارَهُ ... حتى إذا دَرَّتْ عُرُوقُهْ

---

(١٥٨) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس (. . - ٦٢٤م)، الديوان، ص٩٣.

(١٥٩) عمرو بن معديكرب الزبيدي (. . - ٢١هـ / ٦٤٣م)، شعره، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٤م، ص١٦٤.

(١٦٠) عبيد بن الأبرص (. . - ٦٠٠م)، الديوان، ص٨٩.

(١٦١) امرؤ القيس بن حجر الكندي (. . - ٥٤٠م)، الديوان، ص٤٤.

(١٦٢) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج١ ص١٢٨.

(١٦٣) عبيد بن الأبرص (. . - ٦٠٠م)، الديوان، ص٨٩.

وقال امرؤ القيس(١٦٤):

ـ أَبَسَّتْ به الريح فاستاقها وحلَّت عَزَالِيَهُ والجُلُودا
ـ راح تمريه الصَّبا ثم انتحى فيه شُؤبوب جنوب منفجر

وقال عمرو بن قميئة(١٦٥):

مُتَحلِّبٌ تهوى الجَنُوب به فتكاد يعدِلُهُ ويَنْجَفِل

وقال طفيل الغنوي(١٦٦):

أَبسَّت به ريح الجنوب فأَسعَدَتْ روايا له بالماء لَمَّا تَصَرَّم

وقال سحيم(١٦٧):

مَرَتْه الصَّبا وانتحته الجنو بُ تَطْحَرُ عنه جَهَاماً خفافا

وقال خفاف بن ندبة(١٦٨):

إذا ما مَرَتْهُ ريحٌ يمانيةٌ يردُّ ريعانَهُ إلى نَضَدِ

ويُعَبِّر «عمرو بن معديكرب» عن هذه الفكرة تعبيراً رمزياً دقيقاً، إذْ يشبِّه البرق عندما يلمع في عَتْمة السُّحب بمصباح رجل يماني بَنَى بعرسه، قال(١٦٩):

أَلم تأْرق لذا البَرْقِ اليماني يلوحُ كأَنَّه مصباحُ بانِ

---

(١٦٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي (. . ـ ٥٤٠م)، الديوان، ص٢٥٢، وص١٤٤.

(١٦٥) عمرو بن قميئة (جاهلي قديم)، الديوان، ص٩٤.

(١٦٦) الطفيل بن عوف الغنوي، الديوان، ص١٦٦.

(١٦٧) سحيم عبد بني الحسحاس، (ت في خلافة عثمان)، الديوان، ص٨٥.

(١٦٨) خفاف بن ندبة السلمي، (ت في خلافة عمر)، شعره، ص٨٥.

(١٦٩) عمرو بن معديكرب الزبيدي (. . ـ ٢١هـ / ٦٤٣م)، شعره، حققه: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٤م، ص١٦٤.

وبَعْدَ الإخصاب والإلقاح تأْتي الولادةُ سَهْلَة ميسورة، قال سبيع بن الخطيم التيمي[١٧٠]:

حلَّتْ به بعـد الهُـدُوِّ نطـاقَـهَـا   مِسْـعٌ مُسَـهَّـلَةُ النِّتَـاجِ زَحُـوف[١٧١]

ولا نستطيـع أن نلغي من أذهـاننـا فكـرة إخصـاب السُّحُب وولادة المطر في هذه الصـورة التي يرسمهـا أيضـاً «سحيم عبـد بني الحسحاس»؛ فالنوق يصيبها المخاض أثناءه، ويلدن بعد أن تُشَقَّ «السَّابياء» عن رأس الفصيل كما تفتق السَّماء بالمطر، قال[١٧٢]:

له فُرَّقٌ جونٌ يُنَـتِّـجْـنَ حَوْلَـهُ   يُفَقِّئْنَ بالمَيْث الـدِّمَاث السَّـوابيا[١٧٣]

ويتلو البرق رعدٌ يهزُّ الكون هَزًّا، فيثير القَلَق والتوجُّس والخَوف والأرق، والرَّعد في الفكر الميثوبي[١٧٤] ليس شحنات كهربائية - كما يقول علماء الطبيعة - إنما هو فَحْلٌ هائج يهدر فتتبعه إناثه، قال أبو ذؤيب الهذلي[١٧٥]:

يَجُشُّ رَعْـداً كَهَـدْر الـفَحْـل تَتْبَعــه   أُدْمٌ تَعطَّفُ حول الفَحْـل ضَحْضَـاح

فهُـنَّ صُعْـرٌ إلـى هَدْر الـفـنيـق ولم   يَجْفُـر ولم يُسْـلِه عنهُـنَّ إلـقـاح[١٧٦]

وهذا التشبيه له دلالة رمزيَّة على فكرة الإخصاب والإلقاح وولادة المطر. قال

---

(١٧٠) المفضليات، ص٣٧٤.

(١٧١) النطاق: شقة تلبسها المرأة تشد بها وسطها.
المسع: ريح الجنوب أو الشمال. زحوف: تزحف ببطء.

(١٧٢) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص٣١.

(١٧٣) الفُـرَّق: جمع فارق، وهي النـاقـة التي يصيبهـا المخـاض فتنـد في الأرض لتضـع، الميث والدماث: الأرض اللينة. السابياء: الماء الذي يكون على رأس الولد.

(١٧٤) الفكر الميثوبي: صانع الأساطير، منحوت من الميثولوجيا.

(١٧٥) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج١ ص١٦٧.

(١٧٦) يجفر: تذهب غلمته.

سحيم(١٧٧):

يكُبُّ العضاه لأذقانها ... كَكَبِّ الفَنِيق اللِّقاح العِجَافا

وأحياناً نسمع في السُّحب أصوات النوق العشار الحوامل المتلبِّدة الشَّعر، أو تلك التي تدفع بفُصْلانها خوفاً، وتدعوهن بحناجر مبحوحة حنيناً، قال عبيد بن الأبرص(١٧٨):

كأن فيه عِشَاراً جِلَّةً شُرُفاً ... شُعْثاً لَهامِيمَ قد هَمَّت بإرشاح

بُحّاً حَنَاجِرها هُدْلاً مَشَافِرُها ... تَسيم أولادَها في قَرْقَرٍ ضَاحي

إرادة الإخصاب واضحة هنا، والشعراء تحدوهم رغبةٌ ملحة لتلقي المطر كي تخصب الأرض، وتخصب النوق، فيعم الأمن والسلام والاستقرار، ويبتعد شبح الجوع والمرض والموت. والقعود للمطر وترقبه، واستخدام الطلاسم لاستنزاله، والجهود التي تبذل من أجله تتحقق، وينتصر الشاعر، ودلائل فوز الشاعر في ترقُّبه وتوسُّلاته وطُقوسه هي نفسها دلائل فوز المياسر عندما تلمع أكفُّه بالنجاح والانتصار:

قال امرؤ القيس(١٧٩):

وتخرجُ منه لامعاتٌ كأنَّها ... أَكُفٌّ تَلَقَّى الفَوْزَ عند المُفيض

ويعبر امرؤ القيس عن هذه الفكرة بصورة أخرى، فيقول(١٨٠):

أصاح ترى برقاً أُريك وَميضَه ... كَلَمْعِ اليدين في حَبيٍّ مُكَلَّل

يُضيءُ سَنَاه أو مصابيح راهبٍ ... أهانَ السَّليط في الذُّبال المُفَتَّل

---

(١٧٧) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص٤٦.

(١٧٨) عبيد بن الأبرص (. . . ـ ٦٠٠م)، الديوان، ص٣٤، من قصيدة منسوبة أيضاً لأوس بن حجر، الديوان، ص١٧.

(١٧٩) امرؤ القيس بن حجر (. . . ـ ٥٤٠م)، الديوان، ص٧٢.

(١٨٠) المصدر السابق، ص٢٤.

البرق يُشْبه في تحرُّكه تحرُّك اليدين، أومصابيح الرهبان التي يُصَبُّ الزيت عليها، وبعبارة أُخرى: حينما هيأ الراهب المصباح سقط المطر، فالمطر استجابة لدعوات راهب عظيم، ويمكن أن نرى تقلب الكفَّين سِمة من سِماته أيضاً، ويبدو أنَّ مصباح الراهب وتقليب الكفين أعانا على ولادة المطر، فالولادة ظاهرة في قول امرىء القيس: إن السحاب متراكم، يشبه أعلاه الإكليل، وقد لمع البرق وتلألأ في أثنائه.

هذه صورة واضحة الدلالة على فعل الانبثاق العظيم، وليس عندي شك في أن المعنى الروحي لولادة المطر قد فهمه شعراء العربية(١٨١).

ويتابع الشعراء بشوق ولهفة نزول المطر، فتتحقق الأمنيات، ويصح التقدير، ويصيب التنبؤ، فالمزن الثقيل يَبرُك «بَيْنَ تضارع وشَابَةَ»(١٨٢).

ويحلُّ بَرْكَهُ «بأسفل ذي رَيْد»(١٨٣).

ويضيق به «عَرْضُ خَيْم، فجُفَافٍ، فيُسُر»(١٨٤)، و«تيماء، وجبل أبان، وصحراء الغبيط، وقَطَن، والسِّتار، ويَذْبُل، وبَيْسَان»(١٨٥).

والمطر جادَ «شَرورا فالسِّتَار»، وأَصاب «جبل يَعَار»(١٨٦).

وأَسَفَّ على «الأفلاج ومَخارم سَمْسَم»(١٨٧).

---

(١٨١) مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ليبيا، (دون تاريخ)، ص١٢٦ وما بعدها.

(١٨٢) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج١ ص١٢٨.

(١٨٣) عبيد بن الأبرص (. . - ٦٠٠م)، الديوان، ص٦٣.

(١٨٤) امر القيس بن حجر، الديوان، ص١٤٦.

(١٨٥) المصدر السابق، ص٢٤.

(١٨٦) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، تحقيق: عبد السلام هارون، وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦.

(١٨٧) الطفيل الغنوي، الديوان، ص٧٥.

وحَطَّ بَرْكَهُ «بذي بَقَرٍ»[188]، ومر على الأجبال «أجبال طَيِّىء»[189].

وجاد سواريه «بالجوّ فالأمَرَات، فبضارج، فقصيمة»[190].

ومسقطه على «نِمار، فبطن الخال، فالعسجدية، فالأبلاء، فالرِّجل»[191].

وأصبح راسياً بـ «صَاحة، والأعراض، وأُثال، والبَقَّار»[192].

ورَوَّى «ضَارجاً، فذات خَيْم، فحَزَّة، فالمدافع من قنان»[193].

وتتردد أسماء الأماكن التي جادها المطر في الشعر الجاهلي تردداً واسعاً، ويحددها الشعراء تحديداً ـ يبدو في ظاهره ـ دقيقاً، وكأنما يسعى الشاعر الجاهلي لإنزال المطر في الجزيرة كلها، ويسرف الشعراء الجاهليون في تتبع الأماكن التي جرفتها السيول وأغرقتها، أو تلك التي حط بها المطر بَرْكَهُ، وكأنما يستوعب قلب الشاعر كل مكان في الجزيرة العربية، وتبدو المواضيع المتناثرة المتباعدة مؤلفة تأليفاً عاطفيًّا في روح الشاعر، ومنظمة تنظيماً دقيقاً في ذهنه، مما يدل على أن الشاعر الجاهلي كان ينظر إلى الكون نظرة كليَّة شُمُولية، لا نظرةً جزئية فردية ضَيِّقة.

وكانت الولادةُ العظمى، والحدثُ الكوني الهائل؛ تدَفَّقَ المطرُ فأحدث انقلاباً وتغييراً؛ فأحيا، وأهلك، وأغرق، ودَمَّرَ، وشَرَّد، وأرعَبَ، وطَهَّر، وأنبت، وهَدَّم.

قال امرؤ القيس[194]:

وأضحى يَسُحُّ الماء عن كلِّ فَيْقَةٍ ... يكُبُّ على الأذقان دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

---

(188) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص46.

(189) المصدر السابق، ص31.

(190) الأسود بن يعفر، الأصمعيات، ص219.

(191) الأعشى الكبير (. . ـ 624م)، الديوان، ص93.

(192) لبيد بن ربيعة العامري (540م ـ 665 ـ 669م)، الديوان ص88 ـ 93.

(193) عمرو بن معديكرب الزبيدي (. . ـ 21هـ / 643م)، شعره، ص164.

(194) امرؤ القيس بن حجر، الديوان، ص24.

وتـيـماء لم يترك بها جذعَ نَخْـلَةٍ ولا أُطُـماً إلا مَشـيـداً بجَـنْـدَل

وقال سحيم عبد بني الحسحاس(١٩٥):

يكـبُّ الـعـضَـاه لأذقـانهـا ككَبِّ الـفـنيـق اللقـاح العَجـافـا

وقال لبيد بن ربيعة(١٩٦):

أقـول وصـوبُـهُ منِّي بعـيـدٌ يَحُطُّ الـشَّـثَّ من قُلل الجـبـال

أمـا الضِّبـاب التي احـترق دمـاغُهـا من حَرِّ الصحراء، عندما يفاجئها المطر، . تخرج من جحورها مذعورة، وتبحث عن ملجإ أكثر أمناً.

قال امرؤ القيس(١٩٧):

- وتـرى الـضَـبَّ خفـيـفـاً ماهـراً ثانـيـاً برثُـنُـه ما يَنْـعَـفـر
- وأضـحى يسـحُّ المـاء عن كل فَيْقَـة يحوزُ الـضِّبـاب في صَفـاصف بيض

وقال خفاف(١٩٨):

كأن الـضِّـبـاب بالصَّحـارى عشيَّـةً رجـالٌ دَعَـاهـا مُسْـتَـضـيـف لَمْوسق

والماء المتدفق يحطُّ الوحوش من ذُراها(١٩٩)، ويُغرق الثيران الوحشية(٢٠٠)، ويُحَدِّر العُصم من الجبال إلى السهول(٢٠١)، ويستخرج الذئب من حجره والعُقاب من

---

(١٩٥) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص٤٦.

(١٩٦) لبيد بن ربيعة العامري (٥٤٠م - ٦٦٥ - ٦٦٩م)، الديوان، ص٨٨..

(١٩٧) امرؤ القيس بن حجر (. . - ٥٤٠م)، الديوان ص٤٤، و ص٧٢.

(١٩٨) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، ص٢٥.

(١٩٩) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص٨٨.

(٢٠٠) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص٢٩.

(٢٠١) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص٢٩.

وَكرها[٢٠٢]، ويهتك بيوت البقر الوحشي[٢٠٣]، فتبكي الضفادع وتنقُّ وتُرَجِّعُ لَحْناً حزيناً[٢٠٤].

وينشر المطرُ في الأرض بروداً مُنَمْنَمَة من نَسْج بُصْرى والمدائن[٢٠٥].

وتتزين الصحراء العارية بوشْيٍ عَبْقري من النَّور والزهر والعشب[٢٠٦].

وتتحول الطبيعة رسماً بديعاً ولوحةً بألوان زاهية كألوان الهوادج والرِّحال[٢٠٧]، فتأتي الوحوش تحج إلى موضع المطر، قال سحيم عبد بني الحسحاس[٢٠٨]:

كأَنَّ الوحوش به عسقلا ن صَادَفَ في قَرْنِ حَجٍّ ديافا[٢٠٩]

وليس هناك ما هو أكثر جاذبيَّة من وصف المطر في الشعر الجاهلي، لأن المطر أهم ما أقلق الشاعر الجاهلي وأحزنه، ولأن المطر ـ في الصحراء الكنود العقيم ـ أغلى من الدرّ، وأنفع من العسجد، ولأن المطر أجمل ما في حياة العربي وأقساه، فكان نبع إلهامه، وسرَّ فنِّه وسِحْره، ولأن المطر يأتي من «مصادر» غامضة بالنسبة إليه، فلا يستطيع توجيهه، أو التحكُّم فيه، أو السيطرة عليه، فقد يأتي رحيماً رفيقاً، فيكون له نعمة ورحمة، وقد يأتي عنيفاً رهيباً، فيكون له نقمة وعذاباً. . ولأن موقف الشاعر من المطر دائماً موقف التذلل والتضرّع ممزوجاً بالعشق والوجد، والرغبة والرهبة.

---

(٢٠٢) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، ص٢٥.

(٢٠٣) سلامة بن جندل، الديوان، ص١٣٦.

(٢٠٤) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج١ ص١٢٨.

(٢٠٥) سلامة بن جندل، الديوان، ص١٣٦.

(٢٠٦) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص١١.

(٢٠٧) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص١١.

(٢٠٨) سحيم، الديوان، ص٤٦.

(٢٠٩) عسقلان: سوق كانت النصارى تحجه كل سنة في الجاهلية. دياف: موضع في الجزيرة العربية، والدياف: فحل النوق أيضاً.

ولأن المطر يتَّصل اتِّصالاً متيناً بوجوده، ووجود نَعَمه وماشيته، ويعني بالنسبة إليه محو الحياة وتجدُّدها، والخلاص والتطهير، ويعني أيضاً البقاء أو الفناء، والحياة أو الموت.

يقول لبيد بن ربيعة(٢١٠):

أصاح ترى بريقاً هبَّ وَهْناً	كمصباح الشَّعيْلَة في الذُّبال
أرِقْتُ له وأنجد بعد هَدْءٍ	وأصحابي على شُعب الرِّحال
يُضيءُ رَبَابُهُ في المُزْن حُبْشاً	قياماً بالحِراب وبالإلال
كأنّ مُصَفَّحات في ذُراه	وأنواحاً عليهنَّ المآلي
فأفرَعَ في الرَّباب يقودُ بُلْقاً	مُجَوَّفةً تذُبُّ عن السِّخال
وأصبح راسياً برُضام دَهرٍ	وسال به الخمائل في الرِّمال
وحَطَّ وحوشَ صاحةَ من ذُراها	كأن وُعُولَها رُمْكُ الجمال
على الأعراض أيْمَنُ جانبيه	وأيسَرُهُ على كُوْرَي أَثال
وأرْدَفَ مُزْنُه المَلْحَيْنِ وَبْلاً	سريعاً صَوْبُهُ سَرِبُ العَزالي
فبات السَّيلُ يركبُ جانبيه	من البَقّار كالعَمِد الثِّفال
أقولُ، وصَوْبُهُ منِّي بعيدٌ	يحُطُّ الشَّثَّ من قُلَل الجبالِ
سَقى قومي بني مَجْدٍ وأسقى	نُمَيْراً والقبائلَ مِنْ هلالِ
رَعَوْهُ مَرْبعاً وتصَيَّفُوهُ	بلا وَبَإٍ، سُمَيَّ، ولا وَبالِ(٢١١)

(٢١٠) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص٨٨ ـ ٩٣.

(٢١١) هب: لمع. الشعيلة: النار. الذُّبالة: الفتيلة. أنجد: ارتفع في نجد. الرباب: السحاب المعلّق. الإلال: الحراب. المُصَفَّحات: الإبل التي صفحت عن أولادها، أي عزلت عنها. المآلي: الخرق. أفرع: هبط. الرباب: موضع. تذب: ترمح. الرضام: حجارة. صاحة: جبل. رمك: سود. الأعراض: القُرى. أثال: اسم جبل. وبلاً: مطراً. الغزالي: مصب المزادة. العمد: الذي يشتكي سنامه. الثفال: البطيء الذي لا ينبعث. البقار: واد. =

لا نستطيع أن نلغي من ذهننا ـ ونحن نقرأ هذه الأبيات ـ صورة النار السحريَّة التي كان يشعلها عرب الجاهلية لاستنزال المطر. لذلك كان الشاعر «يشعِل المصباح» ويأرق ويقلق وينتظر، والقوم يستطلعون على «شُعَب الرِّحال» متحفِّزين متعبين متوثِّبين، لكنَّ أملهم في سقوط المطر كان كبيراً.

وقد نرى النواح من أجل المطر في صورة تلك النساءِ النائحات المُلَثَّمات اللاتي قد بلَّ الدَّمعُ أو المطر أثوابهنّ الرَّثَّة، أو أولئك الحُبْشان السَّحرة الذين يريدون أن يستنزلوا المطر عُنْوة بقسيِّهم وحِرابهم.

ونرى البكاء من أجل المطر في صورة تلك النوق المجدبة التي عُزِلت عن أولادها كي لا تهزل وتضعف، فهي لذلك تضجّ وتَخور وتستغيث وتتوسَّل.

والمطر يغسل الأرض ويطهِّرها، ويغيِّر معالمها؛ فيحطّ الوحوش من الذُّرى، ويَسْحَقُ الشَّجر من قُلل الجبال، ويكوّن سيولاً عاتية، لا تُبْقي ولا تذر.

وتُطلُّ من بُعْد الجبال شامخةً صامدةً في وجه هذا الطُّوفان الكوني المدمِّر، الذي أروى ودَمَّر، وأسقى وهَتَك، وأنبت وأغرق، والذي يُكْسِبُ الإنسان صفاءً ونقاءً وطُهْراً، ويكسِبُ الموجودات رونقاً وحياة وشباباً.

= الشث: شجر من شجر السراة. مجد: أم كلاب وكعب وعامر بني ربيعة بن عامر بن صعصعة، سمي: أراد سماء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

الاستسقاء في الشعر الجاهلي

الاستسقاء بالنجوم ـ التحكم في المطر بوساطة السحر ـ حجر المطر

الفرس والمطر ـ الاستحمام والمطر ـ غسل الثياب والمطر

طقوس أخرى ـ بيوت الله والمطر ـ الاستسقاء بالأنبياء والأولياء

والقديسين ـ الاستسقاء بالموتى ـ صانع المطر ـ الشعراء والمطر

النار السحرية والمطر ـ ثور الوحش والمطر



(١) الاستسقاء بالنجوم

وقف الشاعر الجاهلي من المطر موقف التذلُّل والتضرُّع، وموقف العشق والوَجْد، والرَّغبة والرَّهبة، وأحسَّ القلق والأرق والهيبة والخوف، والتَّوتُّر والسُّهاد، وهو يترقب سقوط المطر في عتمة الليل، وأخذته الفرحة والنَّشوة وهو يستقبل المطر المنثور كالدر. وقد يأتي المطر رحيماً رفيقاً فيكون له نعمة ورحمة، وقد يأتي عنيفاً رهيباً فيكون له نقمة وعذاباً، ولعل جانب العُنْف والغضب كان أكثر شيوعاً من جانب الرِّفق والرحمة، إذ يتكرَّر في الشعر الجاهلي منظر المطر وهو يحيل الكَوْن طُوفاناً مدمراً، وسيولاً عارمة، وانقلاباً كونيًّا يَهدم ويقلع ويُغْرق ويُدمر من جهة، ويُحيي وينبت وينعش ويُفرح من جهة أُخرى[1].

---

(١) انظر شعرهم في ذلك: أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار فراج، القاهرة، ١٩٦٥م، ج١ ص١٢٨ وما بعدها.

وعبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق: د. حسن نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٧٢ ـ ٧٦، وص ٣٤.

وأوس بن حجر، الديوان، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص ١٣ ـ ١٧.

وامرؤ القيس، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص٢٤، وص١٤٤.

وديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: د. إحسان عباس، وزارة الإرشاد، الكويت، ١٩٦٢م، ص٢٩، وص٨٨، وص١١١.

وديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، =

غير أن وطأة القحط والمحل رهيبة مفزعة، إذ أنّ انحباس المطر يحيل الحياة في الصحراء العربية شقاء وعذاباً وشُحًّا وجوعاً وفقراً ورُعباً، وما إن يأْتي شَبَح القحط في الصحراء العقيم حتى يخيِّم في القلوب الذُّعر والخوف، والهلع والفزع، وتلمع العيون بالشَّرِّ والتهديد. . . الفقير يتحفَّزُ للغارة، والغنيُّ يستعدُّ للهجرة، وذئاب الصحراء تحيل الأمن حرباً لا تنتهي.

لذلك سعى الإنسان القديم إلى استرضاء القُوى الخفية التي تتحكم في سقوط المطر، وإلى التوسُّل والتَّضرُّع والتَّذلُّل، والبكاء والتعاويذ، والسحر، وتقديم القرابين، والصلوات.

وكان الاستسقاء بالنجوم من أهمِّ معتقدات الجاهليين، فقد جعلوا المطر فِعْلاً للكواكب وحادثاً عنها، ونسبوا الأمطار والرياح إلى السَّاقط والطَّالع من النجوم، وأَضافوا الغيث إلى الكواكب، فقالوا مطرنا بنوء كذا. . قال ابن سيده[٢]:

«وإنما جاء حمدهم بعض الأنواء وذمهم بعضاً من قِبَل مواقع الأمطار التي تكون في أَيامها، فأيّ كوكب جاء وقت نَوْئه، فصادف المطر الذي يكون فيه من الزمان ومن البلد موافقة ونجع، فتبين خيره ونفعه، حمدوا ذلك النوء، وأَضافوا حمده إلى الكواكب، ونوَّهوا به، وإلا يكنْ ذلكَ ذمّوه، وسمّوا نوءَه به، حتى كان الفعل في ذلك فعل الكواكب، ولمَّا جرّبوا هذه الأمور في القديم، وطال اختبارهم لها، فوجدوها ثابتة في مراتبها، أَلزموا الكواكب ذلك».

وهذا التعليل يتناسى التراث الدِّيني الجاهلي الذي كانت عبادة الكواكب فيه

= ١٩٦٨م، ص٣١، وص٤٦.

وسلامة بن جندل، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، طبعة حلب، ١٩٦٩م، ص١٣٦.

(٢) ابن سيده، كتاب الأنواء، ص٨٢، ضمن كتاب المخصص، طبع المكتب التجاري، بيروت، (دون تاريخ).

جزءاً أساسيًّا من ذلك المعتقد، ومن ثَمَّ كان إيمانهم بأَنَّ المطر من صنع الأنواء(٣)، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «ثلاث من أُمور الجاهلية: الطَّعن في الأنساب، والنِّياحة، والاستسقاء بالأنواء»(٤).

والنَّوء يرتبط في اعتقادهم بفعل الكواكب المُؤثِّرة، فهي التي تصنع السحاب وترسل الرياح وتأْتي بالمطر، كما قال بشر بن أَبي خازم الأسدي(٥):

جادت له الدَّلو والشِّعرى ونَوْؤهما بكلِّ أَسْحَمَ داني الودق مرتجف

وقد ربط «الأسود بن يعفر» بين همومه ومصائبه ومشكلاته وبين يوم مولده وما فيه من أَنواء، قال(٦):

ولدت بحادي النَّجْم يتلو قرينه وبالقلب قلب العقرب المتوقِّد

فنوء الدبران أَو المجدح مذموم، ويسمى أَيضاً «الحادي» و«الراعي»، وفي المثل: «إذا طلعت الدبران، يبست الغدران، وتوقَّدت الحزان، وكرهت النيران»، وإنما ذموا بعض الأنواء لعقمها وشدَّة بردها وقلَّة مطرها.. ومن شر الأنواء: البطين، والهقعة، والهنعة أَو (الجوزاء)، والدبران أَو (الحادي)، والزُّبانى، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة وهي في برج «العقرب»، ومن الأنواء المحمودة الخيِّرة: الشرطان، والثريا،

---

(٣) الأنواء المحمودة بالمطر، هي: الشرطان، والثريا، والشعريان، والمرزمان، والسماكان، ونوء الزباني، والإكليل، والقلب، والسعود الأربعة: الذابح وبلع والأخبية والسعود، ونوء الحوت، والجبهة. ابن قتيبة، الأنواء في مواسم العرب، طبع حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٩٥٦م، ص٣٢ وما بعدها، وابن الأجدابي، الأزمنة والأنواء، تحقيق: عزة حسن، دمشق، ١٩٦٤م، ج٢ ص٢٥٤ وما بعدها.

(٤) ابن الأجدابي، الأزمنة والأنواء: ج١ ص١٣٦، ومحمد السفاريني الحنبلي، ثلاثيات مسند الإمام أحمد، ج٢ ص٩٣٣، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨٠هـ.

(٥) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، تحقيق: د. عزة حسن، دمشق، ١٩٦٠م، ص٥٧.

(٦) الأسود بن يعفر النهشلي (. . ـ ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق: نوري القيسي، بغداد، ١٩٧٠م، ص٢٢.

والشعريان، والسماكان، والنعائم، والبلدة، والسُّعود الأربعة: الذابح وبلع والأخبية والسعود، وفرعا كوكبة الدلو الأعلى والأسفل، ونوء الحوت. . وإنَّما حمدوها لغزارة أَمطارها، وطيب هوائها، وكثرة خيراتها وثمارها.

وفي المعتقد الجاهلي كان للكواكب الدور الأول في تقرير مصير الناس والتحكُّم في حياتهم ورزقهم، وإرسال السحب والمطر، ولا ريب أَنَّ الصِّلة واضحة بين هذا المعتقد وبين الجبرية الفلكية البابلية(٧).

وتحول هذا الاعتقاد الغيبي إلى علم سماه «طاش كبري زاده» بـ «علم نزول الغيث»، قال(٨): «وهو علم يتعرَّف به كيفية الاستدلال على المطر بأَحوال البروق والسحب والرِّياح، وأَخصُّ الناس بهذا العلم العرب، لاشتداد حاجتهم إلى الغيوث التي بها حصول معائشهم من السقي والرَّعي، ودليله السّحب بحسب مواضعها أَو رِقَّتها وكثافتها، أَو أَلوانها، وكيفية أَحوال الرِّياح والبروق».

وكان يصاحب هذا العلم طقوس شعبية، وممارسات خاصة عند عامة الناس فيها شعوذة وسحر، وقد أَشار الزبيدي إلى دعاء الصبيان في البادية إذا استسقوا وهو «المُطَيْري»، قال ابن شميل: من دعاء صبيان الأعراب إذا رأَوا حالاً للمطر: «مُطيري»(٩).

---

(٧) د. نوري القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠م، ص٦٤-٦٦، ومصطفى الجوزو، من الأساطير العربية والخرافات، ص٢٨.

(٨) طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، ج١ ص٣٥٦.

(٩) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ، مادة (مطر).

(٢) التحكم في المطر بوساطة السحر

وقد وقف الإنسان منذ القدم أمام الظواهر الكونية متأمِّلاً متفكراً متوتِّراً، محاولاً جهده السيطرة عليها بتجاربه ومعارفه، وبسحره وابتهالاته وتوسلاته.

وفي المجتمعات القديمة يعدّ «صانع المطر» من أهم الشخصيات، وكثيراً ما توجد طبقة خاصة من السَّحَرة، يتولى أفرادها مهمَّة السيطرة على الرياح والتَّحكُّم في نزول الأمطار، مستخدمين أساليب تستند غالباً إلى مبدإ السحر التشاكلي «المحاكاة»(١٠)، فإذا أرادوا مثلاً أن يسقط المطر قاموا بمحاكاة سقوطه برش الماء، أو

(١٠) إذا حللنا مبادىء الفكر التي يقوم عليها السحر، فإنه يحتمل أن نجدها تنحصر في مبدأين اثنين:

الأول: أن الشبيه يُنتج الشبيه، أو أن المعلول يشبه علته.

والثاني: أن الأشياء التي كانت متصلة في وقت ما، تستمر في التأثير بعضها في بعض من بعيد بعد أن تنفصل فيزيقيًّا.

ويمكن أن نسمي المبدأ الأول: «قانون التشابه»، وأن نسمي المبدأ الثاني: «قانون الاتصال» أو «التلامس».

وعلى ذلك يمكن أن نسمي التعاويذ والطَّلاسم التي تقوم على قانون التشابه «السحر التشاكلي» أو «سحر المحاكاة» بينما نسمي تلك التي تستند إلى قانون الاتصال أو التلامس «السحر الاتصالي».

وإذا حللنا الحالات المختلفة للسحر التعاطفي سوف نجد أنها تطبيقات خاطئة لأحد القانونين الأساسيين للفكر الإنساني، وهما تداعي المعاني عن طريق التشابه، وتداعي المعاني عن طريق التجاوز والاتصال في المكان والزمان، فالتداعي الخاطىء للمعاني أو الأفكار المتصلة يؤدي إلى السحر الاتصالي.

انظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧١م، ج١ ص١٠٤

محاكاة تجمع الغيوم والسحب، أمَّا إذا أرادوا إيقافه، وإحداث الجَدْب، فإنهم يتفادون الاقتراب من الماء، ويعمدون إلى الدِّفء، وإلى النار[11]

وتعتقد أكثر الشعوب القديمة بوجود آلهة تتصرف في الظواهر الجوية، وتثير العاصفة، وتنزل الأمطار، ففي إفريقيا الاستوائية يعتقد السكان بـ «كانج تنج» الذي يسكن في السماء، وينزل الغيث، و «تورا» يرسل الصاعقة، و «أزونجو» يخاطب البشر بالرعد مبشراً بسقوط المطر[12].

وفي المعتقدات الفينيقية القديمة آمنوا بـ «بعل» المعتلي السحاب، إله البرق والرَّعد، الذي يمنح الأمطار الطيبة في موسمها، فتخضرّ الأرض، ويفرح الناس[13].

وفي سبإ القديمة كانوا يقدِّمون لكوكب الزهرة (عثتر) كثيراً من القرابين من أجل الاستسقاء[14].

وكان العُبَّاد يتوسَّلون إلى الآلهة القديمة من أجل المطر، لكن الإنسان القديم كان ينظر إلى المطر من حيث هو قوة كونية يمكن أن تُسْتَدعى دونها وساطة الآلهة، بالجهد الإنساني المحض، وبالتعاويذ والسحر والطِّلَّسْمات والتنبؤ، والساحر البدائي لا يعرف سوى الجانب العملي من السحر، وهو لا يحلل العمليات الذهنية التي تقوم عليها أفعاله وممارساته، كما أنه لا يُشْغل نفسه بالتأمُّل والتفكير في المبادىء المجرَّدة التي تنطوي عليها تصرفاته[15]، إنما كان يُعْنى بالنتيجة التي يؤمن إيماناً مطلقاً بحتمية حصولها.

---

(١١) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ج١ ص٢٥٠، وهذا الاعتقاد مخالف للاعتقاد العربي الذي يعتمد إشعال النار وسيلة للاستمطار.

(١٢) طه الهاشمي: تاريخ الأديان، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣م، ص١٦١.

(١٣) عبد الحميد زايد، من أساطير الشرق الأدنى القديم، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥، ص٢١٠.

(١٤) ديتلف نيلسن، التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص١٣٨.

(١٥) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ج١ ص١٠٦.

(أ) حجر المطر

وقد أورد القزويني في مؤلَّفه المشهور «آثار البلاد وأخبار العباد» بعض الأساليب السحرية التي تستخدمها شعوب الشرق للسيطرة على السحب والتَّحكُّم في نزول المطر، فقال:

الترك يجلبون المطر والثلج متى شاءوا بحجارة لديهم، فإذا أرادوا المطر حرّكوا منه شيئاً، فينشأ الغيم، ويوافي المطر، وإن أرادوا الثلج زادوا في تحريكها، فيوافيهم الثلج والبَرَد(١٦).

وفي بلاد الترك جبل إذا اجتاز عليه الغنم شُدَّت أرجُلها بالصوف لئلا تصطك حجارةٌ فيَعقُبها المطر(١٧).

والتُّرك يستمطرون المطر بالحجر الذي يرمونه في الماء(١٨). وهذه الممارسات لها علاقة بإشعال النار، لأن قَدْح الحجارة يؤدي إلى النار، والنار استخدمت في طقوس العبادة منذ القِدم(١٩).

وقال القزويني: ومن عجائب الدُّنيا أَرض بين كرمان وجاريج إذا احتك بعض أحجارها ببعض يأتي مطر عظيم، وهذا شيء مشهور عندهم، حتى إنَّ مَن اجتاز بها يَتَنَكَّب عنها كيلا تحتكَّ تلك الحجارة، فيأتي مطر يُهْلك الناس والدواب(٢٠).

---

(١٦) القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص٥١٥.

(١٧) المصدر السابق، ص٥١٦.

(١٨) المصدر السابق، ص٥٩٠.

(١٩) جيمس فريزر، أدونيس، ترجمة جبرا إبراهيم، دار الصراع الفكري، بيروت، ١٩٥٧م، ص٩٢ و١١٩.

والنويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، (دون تاريخ)، ج١ ص١٠٥.

(٢٠) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٤٧.

في «طليطلة» (حجر المطر) وهو ما أَخبَرَ به بعض المغاربة أَنَّ بقرب «طليطلة» حجر إذا أَراد القوم المطر أَقاموا يَحُكُّونه فلا يزال يأْتي بالمطر إلى أَن يلقوه، وكلما أَرادوا المطر فعلوا ذلك[21].

وأَخبر عن هذا الحجر طاش كبري زاده، فقال[22]:

إنَّ عند الأتراك في الجبال حجارةً جالبةً للمطر، وهم يعرفونها ويلقونها في الماء، ويعملون بعضاً من الأعمال شبيهةَ أَعمالِ السِّحر، ويتكلَّمون بكلماتٍ مُتضمِّنة للكفر.

هكذا سمعت مَنْ رأَى هذا العمل من الأتراك، قال: فينزل المطر في الحال، حتى إن رأْس الفرس تحت الثلج والمطر، ونصفه الآخر تحت الشمس.

وأَشار «شيخ الربوة» إلى (حجر الماء) نقلاً عن أَرسطو، قال: هو حجر أَبيض، إذا شددته على سرة المستسقى ليلاً وتُرِك إلى الصَّباح، ثمَّ جُعِل في الشمس قَطَرت منه قطرات من الماء[23].

وحكى صاحب «تحفة الغرائب» أَنَّ بأَرض أَرمينية بيت نار له سطح وميزاب من النحاس، وتحت الميزاب حوض كبير من الرُّخام، وفي البيت مجاورون، كلَّما قلَّ المطر بتلك الناحية أَوقدوا نارهم، وغسلوا سطح البيت بماء نجس، حتى ينصب من الميزاب إلى الحوض، ثم يرشون البيت بذلك الماء النجس، فعند ذلك تُسْتَرَ السماء بالغمام وتمطر حتى يُغْسَل السطح والميزاب والحوض، ويمتلىء من الماء الطاهر[24].

وهذه الأساليب السحرية تظهر غالباً في المجالات التي تظهر فيها عناصر الاحتمال

---

(21) القزويني، آثار البلاد، ص546.

(22) طاش كبري زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الهند (دون تاريخ)، ج1 ص356.

(23) شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع ليبزج، 1923م، ص75.

(24) القزويني، آثار البلاد، ص496.

والطـواريء، كما تبرز فيهـا العـلاقـة بين الأمل والخوف، والسحر يختفي حيث يكون الهدف مضموناً، وحيث تتم السيطرة على الأعمال، وتقوى ممارسة السحر عندما يبرز عنصـر الخطـر. والسحـر يسمـح للإنسان القديم الاحتفاظ بآتّزانه العاطفي والذهني والعصبي في ظروف صعبـة، ولـو خلت حيـاتـه من المـمارسات السحريَّة لتَعَرض إلى الانهيار النفسي والقلق والتّوتر، والشعور بالكراهية(٢٥).

وقـد شاعت هذه المـمارسـات السحـريَّـة في كلِّ أَنحـاء العـالم، ويبدو أَنَّ السحر التشاكلي أو التشبيهي كان من أكثر الممارسات السحرية استخداماً لجلب المطر، وهذه التعويذة تعتمد تقليد البرق والرعد وتمثيل السحب وسقوط المطر، وشاع استخدامها في روسيا واليابان وأسترالیا وأفريقيا(٢٦).

---

(٢٥) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل ١٩٨١، ص١١٢.

(٢٦) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧١م، ج١ ص٢٨٨.

(ب) الفرس والمطر

وتحدث القزويني عن طريقة أُخرى في الاستسقاء شاعت عند الصينيين، قال: في الصين قرية عندها غدير فيه ماء، في كل سنة يجتمع أَهل القرية ويلقون فرساً في ذلك الغدير، والناس يقفون على أَطرافه، كلما أَراد الفرس الخروج من الماء منعوه، وما دامت الفرس في الماء يأْتيهم المطر، فإذا مطروا قدر كفايتهم، وامتلأ الغدير أَخرجوا الفرس وذبحوه على قُلَّة الجبل، وتركوه حتى تأْكله الطير، فإن لم يفعلوا ذلك في شيء من السنين لم يُمْطروا(٢٧).

وهذه العلاقة السحرية بين الفرس وسقوط المطر كانت واضحة في عقل الشاعر العربي، لذلك اقترن وصفهم للخيل بالمطر، وكثيراً ما نرى في صورة الخيل المتوترة المتحفِّزة التي ترتبط بسرعة صورة الغيث المسترسل المنسكب الذي يَتَلَقَّاه الإنسان بخوفٍ وتَهَيُّب، كقولهم:

- فأَتْبع آثار الشِّياه وليدُنا   كشُؤْبوب غَيثٍ يَحْفِشُ الأُكْم وابلُه(٢٨)
- وأدركهنَّ ثانياً من عَنانه   كغَيْث العشيِّ الأَقْهب المتودِّق(٢٩)
- وولّى كشُؤْبوب العَشيِّ بوابلٍ   ويَخْرُجْن من جَعْدٍ ثَراه منصبّ(٣٠)

---

(٢٧) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٤.

(٢٨) زهير بن ابن سلمى، الديوان، دار الكتب المصرية ١٩٤٤م، ص١٣٥.

الشؤبوب: الدفعة من المطر. يحفش: يخرج ويسيل. الأكم: جمع الآكمة.

(٢٩) امرؤ القيس، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص١٧٤.

الأقهب: الذي لونه القهبة أي السواد، المتودّق: المحفل بالوَدْق وهو المطر.

(٣٠) المصدر السابق، ص٥٠، الجعد: الشديد النداوة، المنصب: المرتفع المنتصب، الشؤبوب: دفعة المطر.

- فأَتْبَعَ آثارَ الشِّياه بصادقٍ حثيث كغَيْث الرَّائح المُتَحَلِّب(٣١)

- وَهَصْنَ الحَصَا حتى كأنَّ رُضاضَهُ ذُرَى بَرَدٍ من وابلٍ مُتَحَلِّبِ(٣٢)

- طَوَتْه المنايا فوقَ جَرداءَ شَطْبَةٍ تَدِفُّ دَفيفَ الرَّائح المُتَمَطِّر(٣٣)

- وخيلٍ كأَسرابِ القَطا قد وَزَعْتُها لها سَبَلٌ فيه المَنيَّةُ تَلْمَعُ(٣٤)

- تظلُّ جيادُنا متمطِّرات تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُر النِّساءُ(٣٥)

فالشعراء كلهم يعتمدون في وصفهم للخيل على فكرة المطر، ويُكَوِّنون في أوصافهم عَالماً أَشْبَهُ ما يكون بعالم المطر. شُؤْبوب غَيْثٍ، شؤبوب العشيِّ، الغَيْث المتحلِّب، البَرَد، الوابل المتحلِّب، دفيف الرَّائح المتحلِّب، لها سَبَل (مطر)،

---

(٣١) علقمة الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب ١٩٦٩م، ص٩٤.

المتحلب: المطر المنصب. الرائح: الطائر يعود إلى موضعه.

(٣٢) الطفيل الغنوي، الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٨م، ص٢٦.

الوهصن: شدة الوطىء. رضاضة: ما ترضض منه وتكسر. ذرى برد: أعاليه.

(٣٣) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، تحقيق: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٢م، ص٤٩.

الشطبة: الطويلة. الدَّف: طيران قريب من الأرض. المتمطّر: أصابه مطر. الرائح: الطائر الذي يعود إلى موضعه.

(٣٤) مجمع بن هلال، الديوان الحماسة لأبي تمام، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة ١٩٥٥م، ج١ ص٢٩٧.

وزعتها: كففتها لتجتمع. السبل: المطر.

(٣٥) حسان بن ثابت الأنصاري، الديوان، تحقيق: سيد حنفي، الهيئة المصرية العامة، مصر ١٩٧٤م، ص٧٣.

متمطّرات: خارجات من جمهور الخيل في سرعتها، من تمطر الفرس أمام الخيل: إذا سبقها خارجاً منها.

مُتَمَطِّرات . . . وقد اعتمد امرؤ القيس في وصفه المشهور للفرس على فكرة السَّيْل، فشَبَّه الفرس بالصَّخرة التي سقط بها السَّيل من قِمة عالية، ويبدو السَّيل في هذه العبارة ـ إلى حد ما ـ أهم من الصخرة نفسها، ثم أثبت فكرة السيل مرة أُخرى في قوله:

كُمَيت يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ   كما زلَّت الصَّفْواء بالمُتَنَزِّل

وأَشد من ذلك غرابة أَنَّ امرأ القيس جعل كل ما يتعلق بفرسه جزءًا من هذا السيل . . فهو مُسِحّ وسابح ودرير . . وكلها تُؤَلف عالماً واحداً أَقرب ما يكون إلى عالم المطر[٣٦].

---

(٣٦) د. مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب (دون تاريخ) ص٧٨ وما بعدها.

(ج) الاستحمام والمطر

وأشار جيمس فريزر إلى طقوس عرب أفريقيا في الاستسقاء إذْ يلجأُ الناس إلى الاستحمام وسيلة سحرية لجلب المطر، وقد يلقون بأحد رجال الدين ـ سواء أرضي أم لم يرض ـ في أحد الينابيع للتغلُّب على الجَدْب(٣٧).

وقد أشار المؤرخ اليوناني «ديوكاسيوس» إلى طقوس صانع المطر عند الرومان، بأن يستحم في العراء. وهذا الطقس يمارس إلى اليوم(٣٨).

وهذه الرُّقى السحرية من قبيل السحر «التشاكلي» أو «التشبيهي»، ومن الثابت أن هناك عادة ما زالت مُتَّبعة في أوروبا في عصر جيمس فريزر (أواخر القرن التاسع عشر) لاستنزال المطر، وهي أَنْ يُكْسَى شخص بأوراق الشَّجَر ثم يصبُّ الماء عليه، وهذا الشخص بلا ريب يمثل الزرع، كما أَنَّ عادة صبّ الماء على آخر ما يُحْصَد من سنابل يراد منها استنزال المطر على الحقول في السَّنَة التالية(٣٩)

---

(٣٧) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ص٢٧٠.

(٣٨) جيمس ويللارد: الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٧م، ص٤٢.

(٣٩) جيمس فريزر، أدونيس، ص١٥٧، (سبق ذكره).

(د) غسل الثياب والمطر

وتحدث «الجاحظ» عن (غسل الثياب) وسيلة سحرية لنزول المطر في أبيات رواها عن «سعد المطر» قال فيها[40]:

دَع المــواعــيــد لا تَعْــرض لوُجْهَتهــا   إنَّ المــواعــيــدَ مقــرونٌ بها المَطَــرُ
إنَّ المــواعــيــدَ والأعــيــادَ قد مُنيــنــا   منــه بأنــكــر ما يُمْــنَــى به بَشَــرُ
أَمَّــا الـثيــاب فلا يغــرُرْك إنْ غُسلت   صَحْــوٌ قديــمٌ ولا شمسٌ ولا قَمَــرُ

وروى التيفاشي أبياتاً أُخرى تؤكِّد الاعتقاد بهذا الطقس السحري، قال شاعر[41]:

قد قلت إذْ خرجــوا لكــي يَسْتَمطــروا   لا تَقْــنطــوا وآستَـمْطــروا بِثِيــابــي
لو في حزيــران هَمَمْــتُ بغَــسْــلهــا   غَطَّــى ضيــاء الشمس جَوْنُ سَحَــاب

ونفهم من قول «إسماعيل بن حمدوية» أَنَّ غسل الثياب تعويذة سِحرية يُستدعى بها المَطر، قال[42]:

وفي ظَنِّهــم أنْ قدْ أُجيـبَ دُعــاؤُهــم   ومــا عَلِمــوا أنِّي غَسَــلْت ثِيــابــي

وفي بعض قرى أَلمانيا يُعْمل لآخر عنقود ذُرَة دُمْية في هيئة امرأة ثم تُغْمر بالماء كما لو كانت تُبَلَّل بالمطر، وهذا الرشّ بالماء هو نَوْعٌ من المطر السِّحري[43].

---

(٤٠) الجاحظ، البرصان والعرجان، تحقيق: محمد مرسى الخولى، الاعتصام، القاهرة ١٩٧٦م، ص٨٥، والثعالبي، ثمار القلوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٩٦٥، ص١٠٤.

(٤١) التيفاشي، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م، ص٢٨٤.

(٤٢) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣ و١٩٧٤م، ج١ ص١٧٣ ـ ١٧٧، وسرور النفس ص٢٨٣.

(٤٣) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، ٤٧، (سبق ذكره).

(هـ) طقوس أُخرى

وفي أمريكا الوسطى يقترن إله المطر أُسطوريا بالنمر الأمريكي الموجود في غاباتها، وهناك كثير من التماثيل الصغيرة التي تُمَثِّل هذا الاقتران[٤٤].

وعندما تُجْهض المرأة تتوقع «قبائل البانتو» أن تَهُب الريح العاصفة المُدَمِّرة، ذات الحرارة العالية، وتنقطع الأمطار عن السقوط، ويسود الجفاف[٤٥]، وربما كان هذا ما يشير إليه خفاف بن نُدبة السُّلَمي في شعره، قال[٤٦]:

إذا الحَسْناء لم تَرْحَض يَدَيها ولم يُقْصر لَها بَصَرٌ بِسِتْرِ
قَرَوا أَضْيافَهم رَبَحاً بِبُحٍّ تَجِيءُ بعَبْقَرِيٍّ الوَدْقِ سُمْرِ
همُ الأيْسارُ إن قَحَطَتْ جُمادى بكُلّ صبير سارية وقَطْر[٤٧]

فإجهاض الحسناء يعني الجفاف والجَدب وانقطاع المطر.

---

(٤٤) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، ص١١٧، (سبق ذكره).

(٤٥) المصدر السابق، ص٨٧.

(٤٦) شعر خفاف بن ندبة، تحقيق: د. نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص٥٢.

(٤٧) لم ترحض يديها: لم تغسلها؛ لأنها أجهضت أو للنّفاس. لم يقصر لها بصر بستر: لم تمنع من الخروج، ولم تحبس في البيت. البُحّ: قِدْح الميسر. الرَّبَح: الفصيل. الصبير: السحاب الأبيض.

(و) بيوت الله والمطر

وكان العرب يفزعون إلى بيت الله الحرام عند الأزمات، وتروى الأخبار أَنَّ المطر انحبس عن قوم «عاد» وابتلاهم الله بالقَحْط ثلاث سنين استجابةً لدعوة «هود» عليه السلام، فأَجمع القوم أَمرهم على المسير إلى بيت الله الحرام يستسقون الغيث.

وكان الناس في ذلك الزَّمان إذا نزلت بهم فادحةٌ، أَونابتهم نائبة، أَوجهدهم قحط أَوغيره، فَزعوا إلى الله فيأْتون إلى البلد الحرام يطلبون من الله حوائجهم.

فلما أَجمعوا على المسير إلى «مكة» ليستسقوا بها، جهزوا من عُظمائهم، وأَشرافهم، وذوي أَحسابهم سبعين رجلاً، ساروا حتى أَتوا «مكة» فنزلوا على (بكر بن معاوية) زعيم العماليق، يأْكلون الخبز واللحم، ويشربون الخمر، ونسوا أَمرهم، فذَكَّرهم (بكر بن معاوية) بقومهم، وما جاءوا من أَجله، فلاذوا بالكعبة يدعون ويتضرَّعون، يتقدمهم زعيمهم «قيل بن عنز» فقال: جئت أَطلب القطر، الذي يُنْبِتُ الشَّجَر، ويكثر الثمر، ويحيي البشر، ويصلح به قومي وبلادي.

ثم لاذ «لقمان بن عاد» بالكعبة ودعا وتَضَرَّع، فنُودي: قد أجبت دعوتك، وأُعطيت سُؤلك، ولا سبيل إلى الخلود، واختر إن شئت بقاء سبع بقرات عُفْر في جبل وَعْر، لا يمسُّهن ذعْر. وإنْ شئت بقاء سبع نوياتٍ من تَمْر مستودعات في صَخْر، لا يمسُّهن ندى ولا قَطْر. وإن شئت بقاء سبعة أَنسر، كلما هلك نسر عقب بعده نسر. قال: فكان أَن اختار سبعة أَنسر.

فأَرسل الله ـ تعالى ـ على قومه سحابة سوداء عُقِمت من الرَّحمة، ولقحت بالعَذاب بريح صرصر عاتية[٤٨].

---

(٤٨) وهب بن منبه، كتاب التيجان في ملوك حمير، طبع وزارة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٤٧هـ، ص٣٢٥. وفي هذا الخبر رواية أخرى ذكرها الطبري في تاريخ الرسل والملوك، =

قال تعالى[٤٩]:

﴿فلمّا رأوْهُ عارِضاً مستَقْبِل أودِيَتِهم قالوا هٰذا عارض مُمْطِرنا بل هو ما آستعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ تُدَمِّرُ كلَّ شيء بأمْر ربِّها . . ﴾ .

= دار المعارف، بمصر، ١٩٦٧م، ج١ ص٢١٩ وما بعدها.

(٤٩) الأحقاف: ٢٤ وما بعدها.

(س) الاستسقاء بالأنبياء والأولياء والقديسين

وعندما جاء الإسلام، واجه الرسول ﷺ مشكلة القحط والجفاف، وسُئل أكثر من مرّة أن يأتيهم بالغيث. ويروى أن قريشاً أصابتهم سنةٌ حتى فَحَصَت كل شيء، حتى أكلوا الجِيف والمَيْتة، حتى إنَّ أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدُّخان من الجوع.

فقيل للرسول يوم الجمعة: يا رسول الله، قحط المطر، وأجدبت الأرض، وهلك المال.

قال أنس: فرفع يديه حتى رأيت بياض ابطيه، فاستسقى، ولقد رفع يديه وما نرى في السَّماء سحابة فما قضينا الصلاة حتى إنَّ قريب الدَّار الشَّاب ليَهُمُّه الرجوع إلى أهله.

وكان الرسول ﷺ قد تَضَرَّع إلى الله وقال في الاستسقاء: «اللهمَّ اسقنا غيثاً، مُغيثاً، هنيئاً، مريئاً، غَدَقاً، مُجَلِّلاً، سحًّا، عامًّا، طبقاً، دائماً.

اللهمَّ اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين.

اللهمَّ إنَّ بالعباد والبلاد من اللأواء، والجَهْد، والضَّنْك ما لا نشكوه إلا إليك.

اللهمَّ أنبت لنا الزَّرْع، وأَدِرَّ لنا الضَّرع، واسقنا من بركات السماء، وأنزل علينا من بركاتك.

اللهمَّ ارفع عنا الجهد والجوع والعُري، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك[٥٠].

---

(٥٠) انظر أبو نعيم الأصفهاني، دلائل النبوة، طبع عالم الكتب، بيروت، (دون تاريخ)، ص١٦٠. والتيفاشي، سرور النفس بمدراك الحواس الخمس، ص٢٨٢، (سبق ذكره). ومحمد السفاريني الحنبلي، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، دمشق، =

وفي الرسول ﷺ قال أبو طالب بن عبد المطلب(٥١):

وأبيضَ يُسْتَسْقى الغَمامُ بوجهِهِ ربيعُ اليَتامى عِصمةٌ للأراملِ

وفي أخبار لبيد بن ربيعة العامري أنه وفد على الرسول، وقومه يعانون المجاعة، وطلب إليه أن يدعو لهم بالسُّقيا، وهذه المجاعة هي السبب في تفرُّق (بني عامر) وفي ذلك قال لبيد يخاطب الرسول(٥٢):

أَتَيْناكَ والعَذراءُ يَدْمى لَبانُها وقد ذَهِلَت أُمُّ الصَّبيِّ عنِ الطِّفلِ

فإن تَدْعُ بالسُّقْيا وبالعفوِ ترسلُ الـ سماءُ لنا، والأمرُ يبقى على الأصلِ

وقد أجمع جمهور الأئمة والفقهاء، على أنَّه يُستحبُّ الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى، وأهل بيت النبوة في الاستسقاء، ولما صعد (عمر بن الخطاب) قابضاً على يد (العباس) يوم الاستسقاء، ولم يزد على الدُّعاء والاستغفار، فقيل له: إنَّك لم تَسْتَسْق، وإنما كنت تستغفر.

قال: قد استسقيت بمجاديح السماء(٥٣) ذهب إلى قوله تعالى(٥٤): ﴿استغفِروا ربَّكُم إنَّه كان غفَّاراً يرسِلِ السماءَ عليكم مِدْرارا﴾.

ورُوي أن (العباس) قال يوم استسقى (عمر بن الخطاب) به:

اللهمَّ، إنه لم ينزل بلاء إلّا بذنب، ولا يُكْشَفُ إلّا بتوبة، وقد توجَّه القوم إليك

= ١٣٨٠هـ، ج١ ص٦٤٨ وص٦٦٢. والحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ج٣، ص١٠٧.

(٥١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، (دون تاريخ)، ص٢٠٤.

(٥٢) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص٢٧٧، (سبق ذكره).

(٥٣) المجدح: نجم من النجوم كانت العرب تزعم أنه يمطر، يجعلونه من الأنواء، يريد أن الاستغفار هو ما يستسقى به.

(٥٤) نوح: ١١.

بالذُّنوب، ونواصينا بالتوبة، فاسْقِنا الغَيْث[٥٥].

وفي حديث امرأة أبي الأسود الدُّؤلي لمعاوية بن أبي سفيان، قالت[٥٦]:

«إنَّ الله جعلك خليفة في البلاد، ورقيباً على العباد، يُسْتَسقى بك المطر، ويُسْتَنْبت بك الشَّجَر..».

وكان عرب البادية إذا جاءهم قحط يتوسَّلون إلى الله تعالى بـ «محمد بن المنكدر» فيُسْقَون الغيث[٥٧].

ويروى أنَّ «الوليد بن القعقاع» كان عاملاً على بعض الشام، وكان يَسْتَسْقي في كل خطبة.. فيمطرون، فقام إليه شيخ من أهل حمص، فقال: أصلح الله الأمير إذنْ تُفسد «القَطَانيّ» يعني: الحبوب[٥٨].

وقد استمرَّ الاعتقاد بقدرة الأولياء وأصحاب التُّقى والقِدِّيسين والمُتَصَوِّفين على إنزال المطر حتى عصور متأخرة، فمن الممارسات القديمة التي شاعت عند قبائل صحراء شمال أفريقية أنَّ الجفاف عندما يُهَدِّد حياتهم يُلْقون أحد الشيوخ الروحيين في بركة ماء اعتقاداً منهم أنَّ ذلك سيُؤدِّي إلى نزول المطر[٥٩].

ويُحَدِّثنا «جورج غير ستر» عن قصة فاتح مدينة «سيدارته» الذي استدعى خَزَنة الآبار، وأمرهم بتنظيف البئر الأصلية في «سيدارته» لكن ضغط الماء كان شديداً، فتوسَّلوا إلى أولياء الله السبعة المرابطين في المنطقة أن يستخدموا قُواه الغيبية في تخفيف قوة الماء، وقد تَمَكَّن الأولياء من ذلك، ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يعيدوا الماء إلى ما كان

---

(٥٥) الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر، ١٩٦٨، ج٣ ص٢٧٩. وابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣، ج٢ ص٢٧٩.

(٥٦) أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، النجف الأشرف، العراق، ١٣٦١هـ، ص٤٧.

(٥٧) المَقَّري، المختار من نوادر الأخبار، مخطوط دار الكتب المصرية، ورقة ١٦.

(٥٨) الجاحظ، البيان والتبين، ج٤ ص١٩، (سبق ذكره).

(٥٩) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل، ١٩٨١م، ص١٥١.

عليه، فغضب السلطان، وأمر بقطع رؤوسهم[٦٠].

ووصف فريزر مثل هذه الممارسات السحرية، ففي (بالبرمو) بصقلية ألقى الناس بالقديس يوسف في إحدى الحدائق، وأقسموا أن يتركوه في الشمس إلى أن يأتي إليهم بالمطر.

وفي (ليكاتا) لقي القديس أنجيلوز معاملة سيئة، فقد تركه الناس دون ملابس، وسبُّوه وقيدوه بالحديد، وهدَّدوه بالغرق أو الشنق إذا لم يأتهم بالمطر، وكانوا يصيحون وهم يلوِّحون بأيديهم: «المطر أو حبل المشنقة»[٦١].

ويروي عبد الرحمن عزام باشا قصة ذلك المعبود البشري الذي يُقَدِّسه الزنوج - في مطلع القرن العشرين - في جبل النوبة، ويقدِّمون له القرابين والهدايا كي يأتيهم بالمطر، فإن أبى تحقيق مطالبهم، بالغوا في دعائه واسترضائه، حتى إذا يئسوا منه سجنوه، وربما قتلوه[٦٢].

---

(٦٠) جورج غير ستر، الصحراء الكبرى، تعريب: خيري حماد، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٠، ص١٥٠.

(٦١) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ج١ ص٢٨١ - ٢٨٢.

(٦٢) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، ص٦ - ٧.

(ج) الاستسقاء بالموتى

وللمـوتى أهميـة كبـيرة في الاستسقاء، فقد آمنت أكثر الشعوب بوجود حياة ما في القبر، وأن روح الميت تعي وتفعل وتُفكِّر، وتؤثِّر في الآخرين وتتأثر بتصرُّفاتهم.

وقد اعتقد عرب الجاهلية بـ «الهامة» و«الصَّدى» وقالوا: هو طير يخرج من رأس القتيـل يصيـح ويـزق يطلب الثأر، فلا يهدأ ولا يسكن ولا تطمئن الرُّوح حتى تُسقَى من دم القاتل.

وسقوا القبور بدماء الخيل والنوق التي تُعْقَر على القبور ليركبها الميت يوم الحشر.

واستسقـوا بعظـام المـوتى، وهذه الشعيرة من المعتقدات الشائعة عند العبرانيين أيضـاً، فقـد آمنـوا بأَنَّ المطـر ينـزل بواسطة الطقوس السحرية التي تُجْرى على عظام الموتى، خاصة عظام الأمراء الذين كثيراً ما يُنْتَظر منهم أن يُنزلوا المطر وهم أحياء(٦٣).

وحين يشتدُّ الجَدْب عند قبائل (الديري) في أواسط أستراليا يتوسَّل الرِّجال إلى أرواح أسلافهم القدامى أن يهبوهم القدرة على إسقاط الأمطار الغزيرة لاعتقادهم أن السحب ما هي إلَّا أجسام تتولد فيها الأمطار بفضل الطقوس التي يمارسونها، وبفضل أرواح الأجداد(٦٤).

أمـا قبـائـل (خليج ديلاجا) فيغمرون بالماء قبور أسلافهم - خاصة - قبور التوائم وسيلة سحريّة لجلب المطر(٦٥).

ويعتقـد الصينيُّـون أنه إذا تُرِكت جثة شخص ميت دونما دفن، فإنَّ روحه تنزعج من المطر بالطريقة نفسها التي ينزعج بها الشخص الحيُّ حين تفاجئه الأمطار الغزيرة،

---

(٦٣) جيمس فريزر، أدونيس، دار الصراع الفكري، بيروت، ١٩٥٧م، ص٢٣.

(٦٤) جيمي فريزر، الغصن الذهبي، ص٢٥٥.

(٦٥) المصدر السابق، ص٢٧٣.

لذلك فإنَّ هذه الأرواح البائسة تعمل ما في وسعها لتمنع المطر من السقوط. ومن هنا كانت السلطات الصينية تهتم أشد الاهتمام في أوقات الجدب بدفن العظام الجافة للموتى الذين لم يُدْفَنوا من قبل لوضع حدٍّ للبلاء(٦٦).

وهذه الطقوس السحرية كانت تُمارس عند العرب منذ القدم. قال ابن قتيبة(٦٧): إنَّ عظام (سلمان بن ربيعة الباهلي) كانت عند أهل (بلنجر) في تابوت، إذا احتبس عليهم المطر، أخرجوها فاستسقوا بها فسُقوا.

قال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي في قبر (سلمان) وقبر (قتيبة بن مسلم الباهلي)(٦٨).

إن لنا قبرين: قبر بلنجر وقبراً بصين آستان يا لك من قبر
فأما الذي بالصِّين عمَّت فتوحه وسلمانُ يُستسقى بها سبل القطر

وقال ابن خلكان في ترجمته لأبي بكر بن فورك: المتكلم، الأصولي، الأديب، الواعظ، الأصبهاني(٦٩).

«دُفن بالحيرةِ، ومشهدُه بها ظاهرٌ، يُزار ويُسْتَسْقى به، وتُجاب الدعوة عنده».

ووصف القزويني قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ الموجود في القسطنطينية، قال(٧٠):

«تربته معظَّمة عند النصارى، يكشفون سُقُفها عند الاستسقاء إذا قحطوا

---

(٦٦) المصدر السابق، ص٢٧٥.

(٦٧) ابن قتيبة، كتاب المعازف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، ص٤٣٣. والجاحظ، البرصان والعرجان، ص٢٠٩.

(٦٨) الجاحظ، البرصان والعرجان، تحقيق: د. محمد مرسى الخولي، ص٢٠٩.

(٦٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان، طبع بيروت، ١٩٧٢م، ج٤ ص٢٧٢. وانظر الخبر أيضاً عند القزويني، آثار البلاد، ص٢٩٧.

(٧٠) القزويني، آثار البلاد، ص٦٠٦.

فيُغاثون».

ويتكـرّر في الشعـر الجـاهـلي الـدُّعاء بسُقيا القبور: إمَّا إرضاءً للهامة والصَّدى، لتهدأ الروح الحائرة وتستقر، وإمَّا لاعتقادهم بأن الموتى يمارسون حياة عادية في القبر، فيعطشون ويشربون.

قال أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة(٧١):

لازال مِسْـكٌ ورَيْحـانٌ لهُ أَرَجٌ   على صداك بصـافي الـلَّون سلسـال
يسـقي صداك ومُمْسـاه ومُصْبَحُـهُ   رِفْـهـاً ورَمْسُـكَ مَحْفـوفٌ بأَظْـلال

وقال أيضاً(٧٢):

لا زال ريحـانٌ وفَـغْـوٌ ناضـرٌ   يجري عليـك بمُـسْـبـلٍ هَطَّـالِ

وقال النابغة يرثي النعمان بن الحارث بن أَبي شمّر الغساني(٧٣):

سقى الغيث قبراً بين بُصـرى وجـاسم   بغـيـثٍ من الـوسـمـي قَطْـرٌ ووابـلُ
ولا زال ريحـانٌ ومِـسْـكٌ وعـنـبرٌ   على منـتـهـاه ديـمـةٌ ثمَّ هاطِـلُ

وقال حاتم الطائي(٧٤):

أمـاويَّ إنْ يُصـبـح صَداي بقَـفْـرة   من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خَمْرُ
ترى أنَّ ما أهـلكـتُ لم يكُ ضَرَّني   وأنَّ يَديَّ مما بَخِـلْتُ به صِفْـرُ

---

(٧١) أوس بن حجر، الديوان، تحقيق: د. محمد نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٠٥.

(٧٢) أوس بن حجر، الديوان، (دار صادر بيروت ١٩٦٧م)، ص١٠٨.

(٧٣) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص١٢١.

(٧٤) حاتم الطائي، الديوان، تحقيق: عادل سليمان جمال، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١١.

وقال حاتم يرثي ملحان بن سعد بن حشرج[٧٥].

فلا آنفكَّ رمْسٌ بين أَضرُعَ فاللِّوى　　يصبُّ عليه الله وَدْقاً مُجلِّلا

وقالت الخنساء ترثي صخراً:

- سقى الإلٰهُ ضريحاً جَنَّ أعظُمَهُ　　وروحَهُ بغزير المُزْن هَطَّال[٧٦]

- سقى جَدَثاً، أكناف غمرة دونَهُ　　من الغيث ديماتُ الربيع ووابله[٧٧]

- أسقى الإلٰه ضريحهُ　　من صَوْب دائمةِ الرَّهَائمْ[٧٨]

- سقى الله أرضاً أصبحت قد حوتهما　　من المُسْتَهلات السحابَ الغواديا[٧٩]

- سَقْياً لقبرك من قبر ولا برحت　　جودُ الرَّواعد تسقيه وتُحْتَلَبُ[٨٠]

- ربيع هُلاَّك ومأْوى ندىً　　حين يخاف الناس قَحْطَ القطارْ

أَسقى بلاداً ضُمِّنَتْ قبرَهُ　　صوبُ مرابيع الغيوث السَّوارْ

وما سؤالي ذاك إلا لكي　　يُسْقَاه هام بالرويِّ في القفارْ[٨١]

وقال قيس بن الخطيم يرثي ربيعة بن مكدم[٨٢]:

فسقى الغوادي رَمْسَك ابن مَكْدَمٍ　　من صَوْب كُلّ مُجَلْجِلٍ وَكَّافِ

---

(٧٥) المصدر السابق، ص٢٨٢.

(٧٦) شعرها، تحقيق: أكرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٦٣م، ص١٠٩.

(٧٧) المصدر السابق، ص١٢٦.

(٧٨) المصدر السابق، ص١٣٤.

(٧٩) المصدر السابق، ص١٤٤.

(٨٠) المصدر السابق، ص١٣.

(٨١) المصدر السابق، ص٦٨.

(٨٢) حسان بن ثابت، الديوان، ص٣٩٢، (سبق ذكره)، والبيت ينسب لقيس بن الخطيم، ولرجل من بني الحارث بن الخزرج من الأنصار.

وقـال قيس بن عاصم يلوم خالـد بن مالـك الـذي لم يأُخذ بثأر أخيه ربعيّ قتيل (يوم فلج) وهو يوم انتصرت فيه تميم على بكر بن وائل[٨٣].

فما بالُ أصـداءٍ بفَـلْجٍ غريـبـةٍ ... تُنـادي مع الأطـلال يا لابن حَنْظَـلِ
صوادي لا مولـى عزيـز يجيـبـهـا ... ولا أُسْـرَةٌ تَسْـقي صداهـا بمَـنْهَـلِ

وقال أحدهم يرثي امرأته[٨٤]:

سقــى جدثــاً تَضَــمَّــن أُمَّ عمــرو ... بنــخــلَةَ ما آسـتـهـلَّ من الـغـمام
ومـا للأرض أسـتـسـقــي ولـكـن ... لأصــداءٍ أقــمــن بها وهــام

وربـما كان الـدُّعـاء بسُقْيـا الـرُّوح المـاء عوضاً عن سقيا الدم الذي تطلبه الهامة وتصيح من أجله.

وقـد يعني سقيـا القـبر إعـادة الحيـاة فيـه، لأن الماء في الحس العربي يعني الحياة والـرحمـة والبعث والنقـاء والطُّهر والخلاص وطيب العيش. . وهم يريدون معاني الماء لسـاكني القبـور، ولعل الدعاء بسُقيا الرَّبْع والطَّلل الذي اندثر وانمحى لا يبعد كثيراً عن معنى الـدُّعـاء بسقيـا القبـور، لأن الطلل الذي انطمس واندثر ومات يريدون له رحمة وتطهيراً وحياة.

قال امرؤ القيس[٨٥]:

ـ سقى دار هنـد حيث شطَّتْ بها النَّوى ... أَحَـمُّ الـذُّرى داني الـرَّبـاب ثخـين
ـ فأسـقـي به أُخـتي ضعـيفــة إذْ نَأَتْ ... وإذْ بَعُـدَ المـزار غير الـقـريض

---

(٨٣) قيس بن عاصم، شعـر بني تميم في العصـر الجـاهـلي، جمع وتحقيق: د. عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م، ص١٨٤.
(٨٤) عبـد الكـريم النهشـلي القيرواني، الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق: د. منجي الكعبي، طبع الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس ١٩٧٨م، ص٢٦٤.
(٨٥) امرؤ القيس، الديوان، ص٢٨٢ و ص٧٣، سبق ذكره.

وقال عبيد بن الأبرص[86]:

سَقَى الرَّبَاب مُجَلْجِلُ الـ أَكْنَاف لَمَّاح بُرُوقَهْ

وقال أوس بن حجر[87]:

سقى ديار بني عوف وساكنَها ودارَ علقمة الخير بن صَبَّاح

وقال عمرو بن قميئة[88]:

فسقى منازلَها وحِلَّتها قَرِدُ الرَّبَاب لصوته زَجَلُ

وقال المثقب العبدي[89]:

سقى تلك من دار ومَنْ حَلَّ رَبْعَها ذِهابُ الغوادي: وَبْلُها ومُديمها

وقال النابغة[90]:

سقى دار سُعْدى حيث حلَّت بها النَّوى فأفعَمَ منها كل رَبْع وفَدْفَدِ

وقال عنترة بن شداد[91]:

- سقتك يا عَلَم السَّعْديّ غاديةٌ من السَّحاب وروَّى رَبْعك المَطَر

---

(٨٦) عبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٨٩.

(٨٧) أوس بن حجر، الديوان، ص١٨، سبق ذكره.

(٨٨) عمر بن قميئة، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٩٤.

(٨٩) المثقب العبدي، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٣٤.

(٩٠) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص٢١٢.

(٩١) عنترة بن شداد، الديوان، تحقيق: عبد المنعم شلبي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، =

ـ سقى الخيام التي نُصبن على شَرَبَّة الأنس وابل المَطر

ـ فسقتك يا أرض الشَّربَّة مُزْنَةٌ مُنهلَّةٌ يروى ثراك هُمُوعُها

وقال طرفة بن العبد[٩٢] :

فسقى بلادَك غير مفسدِها صوب الربيع وديمةٌ تَهْمَى

وقال علقمة الفحل[٩٣] :

فلا تعدلي بيني وبين مُغَمَّرٍ سقتك روايا المُزْن حين تصوبُ

سقاكِ يمانٍ ذو حبيٍ وعارضٌ تروحُ به جُنْحَ العشي جَنُوبُ

وقال عروة بن الورد[٩٤] :

سقى سلمى، وأين ديار سلمى إذا حلَّت مجاورة السرير

وقال سحيم عبد بني الحسحاس[٩٥] :

أغاضرَ حياك الإله وأُسقيت بلادُك صوب الرائح المتحيرٍ

وقد استمر الدعاء بسقيا ديار الحبيب في الشعر العربي حتى عصر المدن والقصور[٩٦] .

= دون تاريخ، ص٨٠ و ص٨٩ و ص١٠١ .

(٩٢) طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق: لطفي الصقَّال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥م، ص١٤٦ .

(٩٣) علقمة الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م، ص٣٤ .

(٩٤) عروة بن الورد، ديوانه، تحقيق: أكرم البستاني، وعيسى سابا، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص٣١ .

(٩٥) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص٥٢، سبق ذكره.

(٩٦) أنظر: ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، طبع دار المعارف بمصر، (دون تاريخ)، =

ولا نستبعد أن يكون الدعاء بسقيا الأطلال والقبور بقايا تراث ديني قديم كان أصلًا «طقساً سحريًّا» يمارس على عظام الموتى، التي استخدمها العرب في استدعاء المطر، ومن ثم ارتبط نزول المطر بالأرض الخراب، والقبور الموحشة.

= ص٢٦٨ و ص ٢٣٣ وص٣٧٩. والآمدي، الموازنة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣م. ج١، ص٤٦٣ و ٤٦٦ و٥٣٣.

(٣) صانع المطر

وفي الفكر الميثوبي (صانع الأساطير) يسود الاعتقاد بوجود قوى سحرية عند الأشخاص الروحيين يقدرون بها على آستدعاء المطر، كالأولياء والملوك والقديسين والشعراء.

ويعتبر (صانع المطر) زعيماً دينيًّا روحيًّا عند القبائل التي تعرف هذا النظام، وفي بعض الحالات تنحصر هذه الوظيفة الروحية في يد إحدى عشائر القبيلة.

وفي الحبشة توجد وظيفة (الألفاي) الذي يؤمن الناس بقدرته على صنع المطر، ويسترضونه بالفاكهة والملابس، وإذا خاب أمل الناس فيه، وتعرَّضَت البلاد لجفاف خطير، فإن (الألفاي) يرجم حتى الموت[٩٧].

وقرب مصب نهر الكونغو يسكن ملك المطر والعواصف الذي يتمتع بالقدرة على آستنزال المطر في الوقت المناسب، ويسترضيه الناس بالأبقار والذُّرة، عساه يجعل ماء السماء المبارك ينهمر على المراعي. فإذا لم يَسْقُط المطر من السماء تجمع الناس، وطلبوا من الملك أن يعطيهم المطر، فإذا استمرت السماء صافية بقروا بطنه التي يعتقدون أنه يحفظ فيها العواصف[٩٨].

وهذه المسألة شائعة في المجتمعات الرعوية والزراعية، حيث الامتزاج شديد بين الظن الغيبي، والمعرفة الزراعية.

---

(٩٧) فريزر، الغصن الذهبي، ج١، ص٣٧٧.

(٩٨) فريزر، الغصن الذهبي، ص٣٧٦.

وقد نظر ابن خلدون إلى حرفة الزراعة نظرة ممزوجة بالطقوس السحرية، قال[99]: هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوؤه بالسقي والعلاج، ومن حيث خواصه وروحانيته، ومشاكلة الروحانيات للكواكب والهياكل، والمستعمل ذلك كله في باب السحر.

وفي الشعر الجاهلي نلحظ الاعتقاد بالقوى الروحية، والقدرات السحرية على استنزال المطر عند بعض الأشخاص والملوك والكهان.

قال النابغة يمدح أحد ملوك آل جفنة [100]:

جربت أبيض يستسقى الغمام به   من آل جفنة في عزٍّ وفي كَرَم

وقال أيضاً يمدح النعمان بن الحارث الأصغر[101]:

ستة آبائهُمُ ما هُمُ   همْ خير من يَزْرَعُ صوبَ الغمام

وقال الأعشى في هوذة بن علي الحنفي[102]:

أغرَّ أبلج يُسْتَسْقَى الغمام به   لو صارع الناس عن أحلامهم صَرَعا

وقال علباء بن أرقم في النعمان بن المنذر[103]:

وإنَّ يد النعمان ليست بكَزَّة   ولكن سماءٌ تُمْطِر الوَبْل والدِّيَمْ

واستمر الاعتقاد في العصور الإسلامية بقدرة الخلفاء على التحكم في المطر، قال

---

(٩٩) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨)، المقدمة، مطبعة مصطفى محمد مصر، (دون تاريخ)، ص٥٤١.

(١٠٠) النابغة، الديوان، ص٢٠١، سبق ذكره.

(١٠١) المصدر السابق، ص١٦٦.

(١٠٢) الأعشى الكبير، الديوان ص١٤٣، سبق ذكره.

(١٠٣) الأصمعيات، تحقيق: عبد السلام هارون، وأحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م، ص١٥٩.

الفرزدق[١٠٤]:

أيعجبُ الناس أن أضحكتُ سيدهم خليفة الله يُسْتَسْقى به المَطَرُ

وفي الشعر الجاهلي يُقْرَن الممدوح دائماً بالمطر، وهناك إشارات كثيرة لواجبات الممدوحين في قومهم، وأهم واجباتهم: استدعاء المطر وإنزاله.

قال زهير بن أبي سلمى[١٠٥]:

فاستمطروا الخير من كَفَّيه إنَّهما بسيبه يَتَرَوَّى منهما البُعُدُ
مبارك البيت ميمونٌ نقيبته جَزْلُ المواهب مَنْ يُعْطي كَمَنْ يَعِدُ
فالناس فوجان في معروفه شَرَعٌ فمنهم صادرٌ أو قاربٌ يَرِدُ
ما زال في سيبه سَجْلٌ يعمُّهُمُ ما دام في الأرض من أوتادها وَتِدُ

وقال زهير أيضاً[١٠٦]:

- أغرَّ أبيض فيَّاضٌ يُفكِّكُ عن أيدي العُنَاة وعن أعناقها الرِّبَقا
- وأبيض فياضٍ يداه غمامةٌ على معتفيه ما تُغِبُّ نَوَافِلُهْ
- أليس بفياضٍ يداه غمامةٌ ثِمَالِ اليتامى في السنين مُحَمَّدِ

وقال بشر بن أبي خازم الأسدي[١٠٧]:

متحلِّب الكفَّين غير غُضُبَّةٍ جَزْلُ المواهب مُخْلِفٌ ما يُتْلِفُ

---

(١٠٤) الفرزدق، الديوان، تحقيق: إسماعيل الصاوي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، دون تاريخ، ص٣٦١.

(١٠٥) زهير بن أبي سلمى، الديوان، سبق ذكره، ص٢٨١.

(١٠٦) المصدر السابق، ص٥٢ وص١٣٩ وص٢٣٣.

(١٠٧) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، تحقيق: د. عزة حسن، طبع مديرية إحياء التراث القديم، دمشق ١٩٦٠م، ص١٥٥.

وقال الأعشى(١٠٨):

أنـا لدى ملكٍ بِشَـبْـ ـوَةَ ما تَغِـبُّ له الـنَّـوافِـلْ
مُتَـحَـلِّب الـكـفَّـيـنِ مثْـ ـل الـبَـدر قوَّال وفـاعِـلْ

وقال أيضاً يمدح الأسود بن المنذر اللخمي(١٠٩):

عنـده الحـزمُ والـتُّقى وأسـا الصَّـرْ ع وحَمْـلٌ لِمُضْـلع الأثـقـال
أرْيَحِـيٌّ صَلْتٌ يظـلُّ له الـقَـوْ مُ ركـوداً قيـامَـهُـمْ للهـلال
ربّ حيٍّ أسـقـاهُـمُ آخـر الـدهـ ـر وحـيٍّ سقـاهُـمُ بسـجـال

وليست التشبيهات المتكررة في الشعر الجاهلي بالمطر من قبيل المبالغة والمجاز وتحسين الصورة، إنما هي تعبير عن الرغبة في المطر، وتعبير عن التوتر والقلق الذي يعانيه الإنسان الجاهلي من انحباس المطر، وهذا التوتر ليس وليد الإرادة الواعية، إنما هو وليد الحَدْس الجماعي والشعور العام، والرغبة في ماء الحياة.

وربما كانت الأوصاف السابقة للمدوحين رواسب قديمة توحي بمهمة شيخ القبيلة: فهو قائد عسكري، وزعيم قبلي، ومصلح اجتماعي من جهة، وهو كاهن القبيلة ومتنبئها وزعيمها الروحي من جهة ثانية.. ومن مهمات الزعيم الروحي تلبية حاجة الأمة بالتعاويذ والسحر، وأهم حاجاتها: المطر.

---

(١٠٨) الأعشى الكبير، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، ١٩٥٠م، ص٣٨٣.

(١٠٩) المصدر السابق، ص٤٥.

(٤) الشعراء والمطر

و(للشعـراء) في المجتمـع الجاهلي أَهميَّة بالغة، فهم الزعماء الروحيون، لهم صلة بالإلهـام، وبعـالم الأرواح المُلْهمـة الـذي يذهب بهم في فنون الشعر كلَّ مذهب، وقد نسبوا أَنفسهم إِلى وادي الجن (عَبْقَر) وكان منهم متنبِّئون وعرافون وسحرة وكهان.

ومن يستعرض الشعر الجاهلي يجد الشعراء الجاهليين معنيِّين عناية مباشرة بسقوط المطـر، فالشعـراء كلهم يحسـون القلق والتـوتـر وهـم يترقبون المطر ويسهرون في عتمة الليـل ينتظـرون الـبرق والريح. والكلُّ يُعَذَّب من أَجل المطر، ويتحفَّز ويأْرق ويقلق ويسهد، وينتظر ويترصد، وتأْتي أَمثال هذه العبارات الدالة على القلق والتوتر بكثرة في الشعر الجاهلي:

(أَمـــنـــك برق أَبـيـــت الـــليـــل أَرقُـبُـــهُ)(١١٠)

(أَرِقْـــتُ له ذات الـــعـــشـــاء)(١١١)

(يـــا من لبرقٍ أَبـيـــتُ الـــليـــل أَرقـــبـــهُ)(١١٢)

(إِنِّي أَرقـــتُ ولم تأْرق معـــي صاح)(١١٣)

---

(١١٠) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج١ ص١٦٧، سبق ذكره.

(١١١) المصدر السابق، ج١، ص١٢٨.

(١١٢) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص٣٤، سبق ذكره.

(١١٣) المصدر السابق، ص٣٤.

(يـــا من لبرق أبـــيـــت الـــليـــل أرقُـــبُـــهُ)[114]

(صـــاح ترى برقـــاً بتُّ أرقـــبـــه)[115]

(هـــل تأرقـــان لبرق بتُّ أرقـــبـــه)[116]

(أرقـــتُ له ونـــام أبـــو شُرَيْـــح)[117]

(قَـــعَـــدْتُ له وصُـــحْـــبـــتي بين حامـــر)[118]

(أصـــاح ترى برقـــاً أُريْـــكَ ومـــيـــضُـــهُ)[119]

(أرقـــتُ وأصـــحـــابـــي قُعُـــودٌ برَبْـــوَةٍ)[120]

نحس ونحن نقـرأ الشعـر الجـاهـلي في المطـر تلك الحُمَيَّـا وذلـك الوجد الممزوج بالأرق، وتلك النشوة المتوترة التي تنتاب الشاعر وهو يرصد تَحَرُّك الحدث العظيم، وهو يتـابـع سقـوطـه في الظـلام الحـالك، وكأنما جاء نزول المطر عُنْوَةً بفعل ترقُّبه وصلواته وسهره، وتهجّده، وسحره ومتابعته وتأمله.

ويبدو أن الشاعر الجاهلي ـ دون شعراء الأمم ـ تُلْقَى على كاهله مسؤولية صنع المطر، لأن هذه المهمة هي مهمة الشاعر الساحر: صانع المطر[121].

---

(١١٤) المصدر السابق، ص١٢٨.

(١١٥) المصدر السابق، ص٦٣.

(١١٦) امرؤ القيس، الديوان، ص٢٨١، (سبق ذكره).

(١١٧) المصدر السابق، ص١٤٨.

(١١٨) امرؤ القيس، الديوان، ص٢٤، (سبق ذكره).

(١١٩) النابغة الذبياني، الديوان، ص٢٤٦، (سبق ذكره).

(١٢٠) المصدر السابق، ص١٨٧.

(١٢١) نصـرت عبـد الـرحمن، الصـورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٧٦م، ص٦٨ وما بعدها.

قال عنترة بن شداد[١٢٢] :

وإنْ كان لوني مُعْتِماً فخَصَائلي بياضٌ ومن كَفَّيَّ يُسْتَنْزَلُ القَطْرُ

أعتقد أن قول عنترة ليس من قبيل المجاز، لأنه يعبرّ عن حقيقة مُجَسَّدة محسوسة، آمن بها الإنسان القديم وصدَّقَها سواء أقبلناها أم لم نقبلها، لأن المطر ـ في العُرْف الجاهلي ـ نتيجة للفعل الإنساني المحض يأتي عنوة بفعل السحر والصلاة والقوة.

وقال امرؤ القيس بعد أن وصف المطر الذي تابعه وراقبه[١٢٣] :

سقيتُ به جَبَلَيْ طيىء وحَيًّا بنخلةَ منَّاحَرِيدا

فالفعل (سقيت) لا يحتمل المجاز، لأنه يعبر عن حقيقة آمن بها، وعن رؤية مباشرة في تصور نزول المطر عند الجاهليين.

---

(١٢٢) عنترة بن شداد، الديوان، ص٨٩، (سبق ذكره).

(١٢٣) امرؤ القيس، الديوان، ص٢٥٣، (سبق ذكره).

(٥) طقوس العرب في الاستسقاء

(أ) النار السحرية والمطر

وقد استخدم العرب ـ دون غيرهم من الأمم ـ النار طقساً سحريًّا للاستسقاء، فكـانـوا إذا تتـابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطـار، اجتمعـوا وجمعـوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أَذنابها وبين عراقيبهـا السَّلَع والعُشَـر[١٢٤] ثم صَعَّـدوا بها في جبـل وعـر، وأَشعلوا فيهـا النـيران، وضَجُّوا بالدُّعاء والتَّضرع، فكانوا يرون أن ذلك من أَسباب السقيا[١٢٥].

---

(١٢٤) السَّلَع: نبات، وقيل: شجر مرّ، وقيل: إنه سمّ، له ورقة صغيرة شاكَّة كأَنها الزغب، وهو بقلة تنفرش كأنها راحة الكلب.

والعُشَـر: من كبـار شجـر العضـاه، وهـو ذو صمغ حلو وحراق مثل القطن، يقتدح به، وهو عريض الـورق يخرج من شعبـه، ومـواضـع زهـره سكر فيه شيء من المرارة، يقال له: سكر العشر، وله نَوْر كالدُّفْلى مشرق حسن المنظر.

انظر: اللسان، مادة (سلع) و(عشر)، وحاشية كتاب النبات والشجر، للاصمعي، تحقيق أوغست هافنر، طبع بيروت، ١٩٠٨.

(١٢٥) الجـاحـظ، الحيـوان، تحقيق عبـد السـلام هارون، مطبعـة البـابي الحلبي، مصـر، (دون تاريـخ)، ج١ ص٣٦٦. والنـويـري، نهايـة الأرب، ج١ ص١٠٩. والقلقشـنـدي، صبح الأعشى، ج١ ص٤٠٩.

لذلك قال أمية بن أبي الصلت يصف هذه الطقوس[126]:

سَنَةٌ أزمةٌ تُخَيِّلُ بالنّا — س ترى للعِضاه فيها صريرا
إذْ يسفُّون بالدقيق وكانوا — قَبْلُ لا يأكلون شيئاً فطيراً
ويسوقون باقراً يطرد السهـ — لَ مهازيل خشيةً أن تبورا
عاقدين النِّيران في شُكُر الأذْ — ناب عمداً كيما تهيج البُحُورا
فاشتوت كلّها فهاج عليهم — ثم هاجت إلى صبيرٍ صبيرا
فرآها الإله ترشُمُ بالقطـ — ر وأمسى جنابُهم ممطورا
فسقاها نَشَاصُهُ واكف الغَيْـ — ث منه إذْ راوعوه الكبيرا

وأنشد القَحْذَمي للوَرَل الطائي يُسَفِّه مَنْ يعتمدون هذه التعاويذ السحرية لجلب المطر[127]:

لا دَرَّ دَرُّ رجالٍ خاب سعيُهُمُ — يستمطرون لدى الأزْمات بالعُشَر
أجاعلٌ أنت بيقوا مُسَلَّعَةً — ذريعةً لك بين الله والمطر

وتشير بعض المصادر إلى أنهم يُصعِّدون البقر في الجبل الوعر إلى جهة الغرب دون الجهات الأخرى[128].

وعلل جواد علي إضرام النيران في أذناب البقر بأن ذلك إنَّما فعلوه على سبيل التفاؤل، فالنار إشارة إلى البرق، والبرق مجلبة للمطر[129].

واستنتج بناء على ذلك أحد الدارسين أن هذا الطقس تمثيل لهذه الظاهرة

---

(١٢٦) المصادر السابقة، وأمية بن أبي الصلت، حياته وشعره، بهجة الحديثي، وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٥م، ص٢١٣.

(١٢٧) الجاحظ، الحيوان، ج٤ ص٤٦٧، وصبح الأعشى، ص٤٠٩.

(١٢٨) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢م، ج١ ص١٠٩.

(١٢٩) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، طبع بغداد، ١٩٧٨م، ج٥ ص٣٤١.

الطبيعية بكل أحداثها، حيث يُمَثِّل الدُّخان تراكم السحب، وألْسنة النار تمثل البرق، وهبوط الأبقار يشير إلى التفاؤل بنتيجة هذا الطقس، واستجابة للصلاة، والواسطة الإلٰهية هي النيران والأبقار الوحشية(١٣٠).

يذكر المؤرخ العربي (المقريزي) طقساً سحريًّا لمنع سقوط المطر كان شائعاً في بعض قبائل البدو في (حضرموت) وهي قبيلة (القمر)، فقد كان الناس هناك يقطعون غصن شجرة (معينة) في الصحراء، ويشعلون فيه النار، ثم يرشون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل، فيقل هبوط المطر حتى يتوقف تماماً مثلما تختفي المياه التي ترش على الخشب المتوهج.

وفي بعض القبائل في (ماينبور) يمارسون طقوساً مماثلة، ولكن لتحقيق هدف مناقض تماماً: أي إسقاط المطر.

فقد كانوا يحرقون الخشب على قبر رجل مات محروقاً، ثم يطفئون تلك النار بالماء، وينتظرون سقوط المطر الذي يُبَلِّلُ الجسم المحروق.

وفيما عدا العرب فإنَّ كثيراً من الشعوب الأخرى كانت تستخدم النار وسيلة لمنع سقوط المطر(١٣١).

وروى القزويني عن مسعر بن مهلهل، قال(١٣٢):

أهل الريّ إذا دامت عليهم الأمطار وتأذَّوا منها صَبُّوا لبن الماعز على النار، فانقطعت. قال: جَرَّبْتُ هذا مراراً فوجدته صحيحاً.

النار لها مكانة مرموقة في المعتقدات الجاهلية، فقد اعتقدوا فيها قوة سحرية

---

(١٣٠) د. علي البطل، الصورة الفنية في الشعر العربي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٣١.

(١٣١) فريزر، الغصن الذهبي، ج١ ص٢٥٤، (سبق ذكره).

(١٣٢) القزويني، آثار البلاد، ص٣٤٥، (سبق ذكره).

وأوقدوها في الحلف المقدس، وأشهروا بها الغادرين، وربما جاءت عبادتهم للأصنام الحجرية لأن النار لا تقدر على إحراقها وإفنائها.

وقد عبد بعض العرب (تميم وغيرها) النار بطقوس خاصة، فهم يحفرون أُخدوداً مربعاً في الأرض، ويضرمون فيه النار، ثم يطرحون فيها الطعام والشراب واللباس والجواهر تقرباً إليها وحرَّموا إلقاء النفوس فيها(١٣٣).

أمَّا الساميون القدماء فكانوا يضحون بأنفسهم وأولادهم حرقاً في النار المقدسة، فقد ضَحَّى (ميشا) ملك مؤاب بابنه البكر في لهب النار.

وانتحر الملك الأشوري (سردنابالس) الذي أسس طرسوس في محرقة هائلة.

والنار في اعتقاد الفرس المُبَجِّلين لها هي الشكل الدنيوي للنور الإلهي الأزلي الخالد، الذي لا يحده زمان ولا مكان.

وكان الأقدمون يعدُّون النار مُطَهِّراً قويًّا، لأنها تلتهم الجسد الفاني ولا يبقى من الإنسان إلّا الروح الإلهية الخالدة(١٣٤).

وكانت الوثنية الفينيقية تُقَدِّم الضحايا البشرية للنار، وقد يقدمون أعز أبنائهم قرابين تلتهمهم نار الآلهة(١٣٥).

وقد استسقى الفرس بالنار، قال البيروني في تفسير (عيد أفريجكان) أي (عيد صبّ الماء) عند الفرس(١٣٦):

السبب فيه أن القطر احتبس في زمن «فيروزجد أنوشروان»، وأجدب الناس، ففتح الشاه خزائنه للناس حتى نفدت، واستدان من أموال بيوت النيران، ثم سار

---

(١٣٣) النويري، نهاية الأرب، ج١ ص١٠٥، (سبق ذكره).

(١٣٤) جيمس فريزر، أودنيس، ص٩٢ وص١١٩ وص١٢٢ وص١٢٥، (سبق ذكره).

(١٣٥) أمين مدني، التاريخ العربي وبدايته، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص٣٥٨.

(١٣٦) البيروني، الآثار الباقية من القرون الخالية، طبع ليبزج، ١٩٢٣م، ص٢٢٨.

إلى بيت النار بفارس، فصلَّى وسجد واستسقى.

ووجد السَّدَنة والهرابذة لم يُسَلِّموا عليه تسليم الملوك، فإقبل على النار، وضم اللهيب إلى صدره ثلاث مرَّات ضمَّ الصديق صديقه عند المُسَاءَلَة، وبلغ اللهيب لحيته ولم تحترق، ثم دعا واستسقى، وتوجه نحو مدينة (دارا)، فأقبلت سحابة لم يعهد قبلها غزارةً حتى جرت المياه في السرادق والخيام. . وكان كل إنسان من السرور الذي لحقه من ذلك أن صبَّ على صاحبه الماء، وصار هذه اليوم عيداً في إيران كلها.

فالنار التي تمنح المطر، ولعل العرب قد ضحوا بالبقر فداءً لأنفسهم وأولادهم تقرباً من الآلهة، لذلك كانوا يصعدون على رؤوس الجبال لتكون الآلهة قريبة منهم تسمع شكواهم وترى توسلاتهم.

وكان أَوْلَى الناس بفداء نفسه الزعيم الروحي، أو الملك. . ولعله هو الذي يضحي بأبقاره لإرضاء الآلهة. أما الفقراء وعامة الشعب فهم ينتظرون من الزعيم أن يأتي بالمطر، فإن لم يستطع ذلك، فلا زعامة له عليهم.

وقد ارتبط المطر في الحس اللغوي العربي بالنار ارتباطاً دقيقاً، وهذا الارتباط له دلالة رمزية على المعنى الروحي للنار، فسموا المطر وَدْقاً والنار وديقة(١٣٧).

---

(١٣٧) انظر: اللسان، مادة (ودق).

(ب) ثور الوحش والمطر

ويرتبط بالنار الأبقار والثيران التي يُصَعَّد بها في الجبال ـ سواء أكانت أهلية أم وحشيَّةـ.

أما علاقة البقر بالمطر من حيث هي رمز يدل عليه، ومن حيث هي تعويذة سحرية يُسْتَدعى بها المطر، فهي علاقة قديمة، إذْ تُمَثِّل البقرة قوَّة تتحكم في السحب وتنزل المطر، وتخيل الفراعنة السماء بقرة والمطر يدر من ثدييها العظيمتين. وما عادة استسقاء العرب بالبقر إلا مخلفات عبادة الثور وما يرمز إليه من الخصب والإرواء.

ويبدو أن النار المُضَرَّمة في حطب السَّلَع والعُشَر ما هي إلا تطوُّر لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله (الثور)(١٣٨).

وتأتي صورة الثور في الشعر الجاهلي(١٣٩) مقرونة بالنار دائماً، فهو شهاب ثاقب متوقِّد، وهو جذوة نار مستعرة، أو لهب منير مُتَضَرِّم، أو حريق مشتعل متأجّج.

قال امرؤ القيس(١٤٠):

فأدبَرَ يكْسوها الرُّغام كأنَّه على الصَّمْد والآكام جذوة مُقْبِس
فأدْرَكْنَه يأْخُذْنَ بِالسَّاق والنَّسا كما شَبْرَق الوِلْدان ثوب المُقَدِّس

وقال أبو ذؤيب الهذلي(١٤١):

من وحش حَوْضي يُرَاعي الوَحْش مبتقلاً كأنَّه كَوْكَبٌ في الجوِّ مُنْحَرِدِ

---

(١٣٨) عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص١٠٧.

(١٣٩) سأفرد للثور بحثاً خاصًا لأهميته في المعتقد الجاهلي، خاصة مسألة الاستمطار.

(١٤٠) امرؤ القيس، الديوان ص١٠٢ ـ ١٠٣، (سبق ذكره).

(١٤١) شرح أشعار الهذليين، ج١ ص٦٠، (سبق ذكره).

وقال النابغة[١٤٢]:

مُوَلِّي الـريـح رَوْقَيـه وجَبْـهتـهُ ... كالهَـبْرَقـيّ تَنَحّى ينفُـخُ الفَحْـما

وقال ضابىء بن الحارث البرجمي[١٤٣]:

شديـد سواد الحـاجـبـين كأنّـما ... أُسِـفَّ صَلَى نارٍ فأَصْـبَـحَ أَكْـحـلا

وقال أوس بن حجر[١٤٤]:

وانـقَضَّ كالـدُّرِّيِّ يتـبـعُـهُ ... نقـع يثـور تخالُـهُ طُنُـبـا

يَخْفَـى وأحـيـانـاً يلوحُ كَمَا ... رفـع المُـنِـير بكَـفِّـه لَهَبـا

وتـأْتي صورة الثَّـور في الشعر الجاهلي مُتَّصلة بالمطر والريح والعاصفة التي تحصبه بالبرد والمطر، فيبيت ليله مؤرَّقاً ـ كالشاعر الجاهلي تماماً ـ يقاسي الظلمة والريح والماء الـدافق، لكنـه يلوذ بالأرطـاة كراهب منعـزل متعبـد يتأَمل المطر ويفكر بالنور وينتظر الأمل ويقاسي الهموم، ويدفع الهواجس.

وفي كل القصـائـد التي تصف الثـور الـوحشي تصف معه المطر[١٤٥] الذي ينثال على متنـه كالـدُّرّ بينـما هو في سُمُـوٍّ وتعالٍ وطُهْر، يبدو عليه التوتُّر والقَلَق، لكنَّه يبذل الجهـد، ويتـابـع المطـر، ويتأَمَّل منفرداً، يتهجَّد في عتمة الظلام، ويبتهل، ويتوسَّل ويكاد يصلي في محرابه أَو كناسه، كراهب متبتِّل انطوى على نفسه يتأَملها.

---

(١٤٢) النابغة، الديوان، ص٦٥، (سبق ذكره).

(١٤٣) الأصمعيات، ص١٨٣، (سبق ذكره).

(١٤٤) أوس بن حجر، الديوان، ص٣ ـ ٤، (سبق ذكره).

(١٤٥) امرؤ القيس، الديوان ص١٠٢. النابغة، الديوان، ص١٨ وص٦٥ وص٢١٥. المثقب العبـدي، الـديـوان، ص٣٥ و٤٩. وعبيـد بن الأبـرص، الـديوان ص٤٤ و١٧ و١١١. زهـير، الـديـوان ٤٢ و٥٧ و٢٧٥. طرفـة، الـديـوان ص١٨٥. أوس بن حجـر، الديوان ص٢. بشر بن أبي خازم، الديوان ص٥١ وص٨٢ وص٥٥. الأعشى، الديوان ص٢٤٩ و٣١٥ و٣٣١ و٣٦١.

ومـا إن تنكشف الظلمـة ويـأتي النـور وتتم ولادة المطـر، تظهـر علامـات البِشْر والرِّضَى والانتصار والزَّهْو على مُحَيَّا الثور، فينطلق محبوراً جذلاً كالشهاب الثاقب، أو كجذوة مُقْبِس، أو كالسيف الصقيل.

هذا الارتبـاط القـديم بين الثـور والمطر يتَّضح تماماً في الشعر الجاهلي عندما تُسْرَد قصـة الثـور الـوحشي، لأن الثـور رمـز مشهـور من رموز المطر، ولعل تسميتنا للنبات والـزرع الـذي يسقى بماء السـماء (بَعْلاً) من الاعتقادات القديمة التي تتصل بقدسية الثور وما يرمز إليه من الخصب والمطر لأنَّ من أَسماء الثور (بعلاً)[١٤٦]، والبَعْلُ: الربُّ والمالك والسيِّد وصانع المطر.

(١٤٦) اللسان، مادة (بعل).

خلاصة الفصل الثاني ونتائجه

تناولت في هذا البحث موضوع الاستسقاء في الشعر الجاهلي في ضوء الدراسات الميثولوجية الحديثة، وعرضت لوسائل الإنسان القديم للتحكم في المطر بواسطة السحر، فتحدثت عن حجر المطر، ودور الفرس في الاستسقاء، وعن طقوس الاستحمام وغسل الثياب في جلب المطر، ثم التضرع للأماكن المقدسة والأولياء والقديسين، والاستسقاء بعظام الموتى ودور الشعراء في الاستسقاء.

ورأيت أن الدعاء بسقيا الأطلال والقبور ما هو إلَّا بقايا تراث ديني قديم كان أصلاً طقساً سحريًّا يُمارس على عظام الموتى، ووجدت أن الشاعر القديم كان يؤمن بقدرته على صنع المطر واستنزاله بفعل شعره وصلاته وابتهالاته.. وأنه كان يرى في ممدوحيه القدرة على استدعاء المطر واستنزال الخير.

وعرضت لتصور الجاهليين للنار والثور، ورأيت أن الشعر الجاهلي قد مَثَّل إيمان الجاهليين في قدرة هذين الطِّلَّسْمَيْنْ على استنزال المطر، ودللت على ذلك بتحليل نماذج شعرية في صفة الثور الوحشي.



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

صورة المطر في الوقفة الطلليّة الجاهليّة

التفسير الواقعي ـ التفسير النفسي ـ التفسير الفلسفي

التفسير الرمزي ـ التفسير البنيوي ـ فكرة المطر في الوقفة الطللية



صورة المطر في الوقفة الطللية الجاهلية

شغلت الوقفة الطللية في الشعر الجاهلي الباحثين والنقاد المعاصرين، فوقفوا أمام هذه الظاهرة الفنية مشدودين مفتونين تارة، ومتأملين تارة أخرى.. فالطَّلل كان من بواعث قلق الشاعر الجاهلي وتوتُّره وأرقه، وكان من بواعث أرق الباحثين وحيرتهم، لأنَّ وصف الأطلال لم يكن واحداً؛ ففيه الحبُّ والشَّجَن، والألم والحَسْرة، والاستقرار والرحيل، والتذكُّر والذِّكرى، والماضي والحاضر، واللَّذة واللَّوعة.. ومشاعر الإنسان، وهموم الجماعة، وفيه الرغبة والرهبة، والتجربة الفردية وتراث القبيلة، ومعاني الحياة والبقاء، والزَّوال والفَنَاء، وفيه كثيرٌ من الرموز التي تُغْري دارسي الشعر الجاهلي على الكشف عنها، وتتَّسع الوقفة الطَّللية لكثير من التفسيرات والتأويلات التي تتفق ومذاهب النقاد المُحْدَثين الفكرية والنقدية، والتي تُمَكِّنهم من أنْ يسقطوا على الشاعر الجاهلي همومهم وهموم عصرهم، وما يعتقدون، ومن هنا اختلفت آراؤهم في تفسيرها، وتباينت أفكارهم في تعليلها. ويمكن أن نلحظ خمسة اتجاهات كبرى في تفسير الوقفة الطللية، هي:

١ ـ التفسير الواقعي.

٢ ـ التفسير النفسي.

٣ ـ التفسير الفلسفي.

٤ ـ التفسير الرمزي.

٥ ـ التفسير البنيوي.

والوقفة الطللية خصبة رَحْبة، تَتَّسع لكُلِّ المناهج السابقة في التفسير والتحليل، وتستوعب كثيراً من الاتجاهات الفكرية، لأنها أخصب تجارِب الإنسان العربي الجاهلي وأقربها إلى نفسه وقلبه وعقله وأدناها من حياته وثقافته وتراثه.

ومن هنا كانت صعوبة هذا البحث؛ لأنَّ منهجاً واحداً من المناهج السابقة سيبقى قاصراً عن النفاذ إلى إسرار الطلل، فالتفسير الواقعي قاصر؛ لأن واقع الشعر مُتَمَيِّز عن واقع الحياة، وهو من جانب آخر يُعَبِّر عن الواقع.. أو هو رؤ ية له، يعبر عن قضايا الواقع تعبيراً رمزيًّا فيه كشف نفسي، واستبطان فلسفي لأفكار الشاعر وطموحاته وهمومه.. ومن ثمَّ كان التفسير الرمزي، منفصلاً عن واقع الحياة، ليس إلَّا ضرباً من الوَهْم والتَّخمين، وكذلك الأمر بالنسبة للمنهج النفسي والفلسفي.. فالشاعر يصنع صوره ومشاهد من واقع الحياة لكنه يُعَدِّل في هذه الصُّور والمشاهد، ويُحَوِّرها ويُغَيِّرها لتكونَ قادرةً على حَمْل أفكاره والتعبير عن آرائه وتجاربه وخبرته ومشاعره.

وعلى الرغم من بروز «فكرة المطر» في الوقفة الطللية من حيث هي واقع أهم الشاعر الجاهلي وأحزنه وأقلقه، ومن حيث هي رمز شعري ساق من أجلها مشاهد واسعة ولوحات كثيرة حَمَّلها همومه، وطموحه، ومشاكله، وأشجانه، وفلسفته، وآراءه، فقد أهملها أكثر الدارسين، ولم يعنوا بالكشف عن دورها في توجيه الوقفة الطللية وتفسيرها، لذلك كان اختياري لهذا البحث على كثرة ما كُتب عنه، وعلى تعدُّد مناهج الدارسين السابقين فيه.

وقد رأى كثير من الباحثين في الوقفة الطللية نزعة فردية، ومشكلة خاصة، ورؤ ية ذاتية.. على الرغم من وضوح وحدة التصوُّر في الوقفة الطَّللية، ووحدة التفكير الجَمْعي..

ثم إنِّي نظرت إلى القصيدة الجاهلية من حيث هي بناء فني متكامل، ومن حيث هي وحدة عضويَّة مُتَّصلة الأجزاء، فـ «التفكير في المطر» في الوقفة الطللية يستمر في

وصف المرأة عندما يُعَبِّرون عن شوقهم إلى المطر ببناء صورة متَّحدة بين الثَّغر العَذْب والمطر الطَّيِّب، أوعندما يبكون الظَّعن الراحلة، ويختارون لدموعهم شبهاً بماء الناقة السَّانية التي تستخرج الماء من البئر العميقة وتُحَوِّل الصحراء إلى جداول رقراقة.

ويبقى «التفكير في المطر» عندما يصفون رحلة الشاعر الجاهلي في الصحراء الظَّمْأى.. فالإبل تَشِمُّ الماء وتتوقَّع المطر، وتستقر بجانب مورد الماء الذي رحلوا من أجله، ومن أجله رحلت المرأة، وأقفرت الديار، وتحولت أطلالاً يباباً.

ولا يني الشعراء الجاهليون يكررون وقوفهم على الأطلال، يبكونها أَحَرَّ بكاء، ويصفون أحجارها الصُّمَّ التي أوحشت من ساكنيها، وأثافيَّها السُّفْع المحترقة التي عدا حدثان الزمان عليها عَدْو الذئاب، ودِمَنها المتبقية المتناثرة، ونُؤْيها المُتَهدِّم الدَّارس، وحيواناتها التي تجوس قيعانها وترودها آمنة مطمئنة، وتَعاورَ الأمطار العاصفة عليها، والرياح المتذائبة لها، وما تحمله من سَفْي وتراب وحَصْباء فتزيدها طموساً واندثاراً.

وصوروا خرس هذه الديار، وصممها، وطموسها، وانمحاءها، وخرابها، ووحشتها، وتَأَبُّدَها، وتعطيلها من ساكنيها، وشكوا من الزمان وغدره وعُرامه وشراسته، وأحسوا الغربةَ والضياع، وتحسَّروا على الوطن الأم وعصر الصِّبا والفتوة والشَّباب وما فيه من ذكريات جميلة، ومُتع لذيذة، وبَثُّوا أحزانهم وأشواقهم وآلامَهم وتخيلاتهم عن الحياة الدَّارسة، وسر الموت.

وتكاد المقدمة الطللية تكون من لوازم القصيدة الطويلة في الشعر الجاهلي، إذ تأتي الوقفة الطللية حاضرةً في أغلب قصائد الشعر الجاهلي (الأنموذج) ما عدا قصائد الرثاء والحماسة والهجاء وشعر الصعاليك وشعر المرأة(١).

---

(١) عرف شعراء الجاهلية مقدمات أخرى منها: وصف الطيف وخيال المحبوبة، وذكر الشراب والغلمان والتوجع من الشيب وانقضاء الشباب، والتغزل بالمحبوبة ووصفها. انظر تفصيل ذلك =

ويلتزم الشعراء في الوقفة الطللية ـ في ظاهر الأمر ـ حدوداً ضيقة شديدة الضيق، ورسوماً واضحة شديدة الوضوح، وأساليب متقاربة شديدة التقارب.

وتكاد، مواقفهم وأحداثهم ومشاهدهم وصورهم ومعانيهم وتعابيرهم وتجاربهم وتقاليدهم تتشابه تشابهاً يوحي بصدور هذا الأدب عن عقل متّحد، وفكر جماعي منتظم، فالمعاني والصور والتعابير والتراكيب تبدو أناشيد جماعية أبدعها عقل الأمة، ونظمها ضميرها.

قال امرؤ القيس(٢):

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومَنْزِل ... بسقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ
فتوضِحَ فالمِقراة لم يَعْفُ رسمُها ... لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمْألِ
ترى بَعَر الآرام في عَرَصَاتها ... وقيعانها، كأنَّه حبُّ فُلْفُلِ
وقفتُ بها حتى إذا ما تردَّدت ... عمايَةُ محزونٍ بشوقٍ مُوكَّلِ
ففاضت دموعُ العَين مني صَبابة ... على النَّحر حتى بَلَّ دمعي مِحْمَلي
وقوفاً بها صَحْبي عَلَيَّ مطيُّهُم ... يقولون: لا تَهْلِك أسىً، وتَجَمَّلِ
وإنَّ شفائي عَبْرةٌ مُهْراقةٌ ... وهل عند رسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ
كأنِّي غداةَ البَيْنِ، يوم تحمَّلوا ... لدى سَمُرات الحيِّ ناقفُ حَنْظَلِ

= عند، د. حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية (دار المعارف بمصر ١٩٧٠).

(٢) امرؤ القيس بن حجر الكندي (. . . ـ ٥٤٠)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص٨ ـ ٩.

السقط: منقطع الرمل. اللّوى: حيث يلتوي ويرق. الدخول وحومل: بلدان وكذلك توضح والمقراة. يعف: يدرس. الآرام: الظباء البيض. المطي: الابل، السَّمُر: شجر أم غيلان. الناقف: المستخرج حب الحنظل. المعول: العويل والبكاء. الصبابة: رقة الشوق. والمحمل: سير يحمل به السيف.

وقال زهير بن أبي سلمى[3]:

أَمِــن أُمِّ أَوْفى دمــنــةٌ لم تكــلَّمِ ... بحَــوْمــانــة الــدرَّاج فالمُــتَـثَـلَّم
ديــارٌ لها بالــرَّقْــمَــتَــين، كأنَّهــا ... مراجــعُ وَشْــم في نواشِــر مِعْــصَــم
بها الــعِــينُ والآرامُ يمــشــينَ خلْفَــةً ... وأطــلاؤهــا يَنْهــضْــنَ من كل مَجْثَم
وقفتُ بها، من بَعْــد عشــرين حِجَّــة ... فَلأيــاً عرفــتُ الــدارَ بعــد توهُّمي
أثــافيَّ سُفْــعــاً في معــرَّس مِرْجَــل ... ونُــؤ يــاً كحَــوْض الجُــدِّ لم يَتَــثَــلَّم
فلمّا عرفــتُ الــدَّار قلتُ لرَبْــعِــهــا ... ألا انعِمْ صبــاحــاً أيُّهــا الــرَّبْــعُ واسْلَم
تبصَّــر خليــلي، هل ترى من ظعــائن ... تَحَمَّــلْنَ بالــعــلْيــاء من فوق جُرْثُــم
عَلَوْنَ بأنْــمــاطٍ عِتَــاقٍ وكِــلَّةٍ ... ورَادٍ حواشيهــا، مُشَــاكِهَــةِ الــدَّم
وفــيــهــنَّ ملهــىً للَّطــيــف ومَنْظَــرٌ ... أنــيــقٌ لعــين الــنَّــاظــر المُتَــوسِّــم
بَكَــرْنَ بُكــوراً، واستَحَــرْنَ بسُحْــرةٍ ... فهُنَّ، ووادي الــرَّسِّ، كاليَــدِ في الفَم
جعــلن الــقنــانَ عن يمــين وحَــزْنَــهُ ... وكَــمْ بالــقَــنــان من مُحِلٍّ ومُحْــرِم
ظَهَــرْنَ من الــسُّــوبــانِ يعلون مَتْنَــه ... عليــهِــنَّ دَلَّ الــنَّــاعــم المُــتَــنَعِّــم
كأنَّ فُتَــاتَ الــعِــهْــنِ في كلِّ منــزلٍ ... نَزَلْــنَ به حبُّ الــفَــنَــا لم يُحَطَّــم
فلمَّا وَرَدْنَ المــاءَ زُرْقــاً جِمَامُــه ... وَضَــعْــنَ عصــيَّ الحــاضــر المتخَــيِّم

---

(٣) زهير بن أبي سلمى (. . . - ٦٠٩)، الديوان بشرح ثعلب، مصورة عن دار الكتب المصرية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٦ وما بعدها.
حومانة: موضع بالعالية. لم تكلم: لم تبين. الدمنة: آثار الديار وما سودوا. النواشر: عصب الذراع. العين: البقر الوحش. الآرام: الظباء. خلفة: إذا مضى فوج جاء فوج آخر. أطلاؤها: الطلا: ولد البقرة والظبية. لأياً: بعد جهد وبطء. السفعةُ: سواد تخالطه حمرة. جذم الحوض: حَرْفَةُ وأصله. الجُدّ: البئر. المعرّس: موضوع هجوع القوم ليلاً. وراد: لون الورد. الكِلة: الستر. حواشيها: نواحيها. مشاكهة: مشابهة. المتوسم: الناظر الذي يتفرس في نظره. القنان: جبل لبني أسد. السوبان: واد. ظهرن منه: خرجن منه. قشيب: جديد. مفأم: قد وسع وزيد فيه ليتسع. القنا: شجر. العهن: الصوف. الجمام: ما اجتمع من الماء. =

وقال لبيد بن ربيعة(٤):

أَلَمْ تُلْمِمْ على الدِّمن الخوالي — لِسَلْمى بالمذانب فالقُفال

فجَنْبَي صَوارٍ فَنِعافِ قُوٍّ — خوالدَ ما تَحَدَّثُ بالزَّوال

تحمَّل أهلُها إلَّا عِراراً — وعَزْفاً بعد أَحْيَاءٍ حِلال

وخَيْطاً من خواضبَ مُؤْلفاتٍ — كأَنَّ رِئالَها أُرْقُ الإفال

تحمَّل أَهْلُها وأَجَدَّ فيها — نِعاجُ الصَّيْف أخبيةَ الظِّلال

وقفتُ بهنَّ، حتى قال صحبي: — جزعتَ، وليس ذلك بالنَّوال

المعاني والتَّراكيب والصُّور في الوقفات الطللية السابقة تتردد عند الشعراء الآخرين(٥) تردداً يدل على وحدة التصوُّر في الفكر الجاهلي، فالوقوف بالطَّلل «بعد عشرين حجة»، و«معرفته بعد التوهُّم»، و«تشبيه النؤى بالحوض»، و«ثبات الطَّلل بالوشم المُنَمْنَم في المِعْصَم»، و«الدُّعاء للربع بالسلامة»، وغير ذلك من التعابير المكرَّرة لا يمكن أن تصدر إلَّا عن «لا وعي» جمعي، وروح متحدة، فقول زهير: «أَمن أُم أَوفى» أنشودة جماعية يُرَتِّلُها الشعراء ويكررونها في قصائدهم:

قال المرقَّش الأصغر(٦):

= المتخيم، المقيم. الحاضر: الذين حضروا الماء.

(٤) لبيد بن ربيعة العامري (٥٤٠م ـ ١٦٦٥ أو ٦٦٩م)، الديوان، تحقيق: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢م، ص٧٣.

الخوالي: التي مضى عليها الأمد. المذانب والقفال وصوار ونعاف: أمكنة. العزف: أصوات الجن وهزيجهم. الخيط: القطيع. الخواضب: النعام المخضبة أرجله وقت التزاوج أو من أكل الربيع. الرئال: أولاد النعام. أرق الأفال: حيران الإبل السود.

(٥) انظر: عبد المنعم الزبيدي، مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، (دون تاريخ)، ص٢٣٨.

(٦) التبريزي، يحيى بن علي (٤٢١هـ ـ ٥٠٢هـ)، شرح المفضليات. تحقيق: علي البجاوي، دار =

«أَمِـــن رَسْـــمِ دارٍ ماءُ عيــنــيــكَ يَسْــفَـحُ»

وقال عوف بن عطية(٧):

«أمــن آل ميٍّ عرفــتَ الــدِّيــارا»

وقال ربيعة بن مقروم الضبِّي(٨):

«أمــن آل هنــد عرفــت الــرُّســومــا»

وقال زهير بن أبي سلمى(٩):

«أمــن آل ليــلى عرفــت الطُّــلولا»

وقال خداش بن زهير(١٠):

«أمــن رســم أطــلال بتــوضــحَ كالــسَّطْــرِ»

وقال المرقش الأكبر(١١):

«أمــن آل أســماء الطُّــلول الــدَّوارس»

وقال امرؤ القيس(١٢):

«أمــن ذكــر نبــهــانــيَّــةٍ حَلَّ أهــلُهــا»

= نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٤١ وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: التبريزي، المفضليات.

(٧) التبريزي، المفضليات، ص٤١٢.

(٨) التبريزي، المفضليات، ص١٨١.

(٩) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص١٩٣.

(١٠) أبوزيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ٢مج، تحقيق البجاوي، مطبعة لجنة البيان، مصر، (دون تاريخ)، ج٢ ص٥١٥.

(١١) التبريزي، المفضليات، ص٢٢٤.

(١٢) امرؤ القيس، الديوان، ص٨٨.

وقال النابغة الذبياني[13]:

«أمـن آل ميّـة رائـحٌ أو مُغْـتَـدي»

ويأْتي تشبيه الطَّلل بالوشم المُرَجَّع في مِعْصَم عذراء تعويذةً سحريةً تحمي الطَّلل من الزَّوال والاندثار:

قال طرفة[14]:

لخولَـة أَطـلالٌ ببرقـة ثَهْـمَـد   تلوحُ كبـاقي الـوشم في ظاهـر اليدِ

وقال عبد الله بن سلمة[15]:

أَمـست بمسـتنٍّ الـريـاح مغيـلةً   كالـوشـم رُجِّـع في الـيـد المنكـوس

وقال عنترة بن شداد[16]:

أَلا يا دار عبـلة بالطَّـويِّ   كرَجْـع الـوَشْـم في رُسْـغ الهـديِّ

وقال لبيد بن ربيعة[17]:

وجـلا الـسيـولُ عن الطُّلول كأَنَّهـا   زُبُـرٌ تُجِدُّ متـونهـا أَقْـلامُـهـا
أَو رَجْـع واشـمـةٍ أُسِـفَّ نُؤ ورهـا   كِفَـفـاً تعـرَّض فوقـهـنَّ وشـامُـهـا

---

(١٣) وليم الورد، العقد الثمين من دواوين الشعراء الجاهليين، تحقيق: وليم الورد البروسي، طبع ألمانيا الغربية، ١٨٦٩م، ص٩، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: وليم الورد، العقد الثمين.

(١٤) طرفة بن العبد البكري، الديوان، تحقيق: علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٥.

(١٥) التبريزي، المفضليات، ص١٠٥.

(١٦) وليم الورد، العقد الثمين، ص٥٢.

(١٧) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص٢٩٩.

وقال المتنخل الهذلي[18]:

كوشم المِعْصَم المُغْتَال غَلَّتْ رواهِشُهُ بوَشْم مُسْتَشَاطِ

وقال بشر بن أَبي خازم[19]:

رماد بين أَظآر ثلاثٍ كما وُشِمَ الرَّواهشُ بالنؤور

وقال الطفيل الغنوي[20]:

لمَنْ طَلَلٌ بذي خَيْم قديم يلوحُ كأَنَّ باقيه وُشُوم

وقال زهير بن أَبي سلمى[21]:

لمن طَلَلٌ برامةَ لا يريمُ عفا وخلا له حُقُبٌ قديم
يلوح كأَنَّه كفَّا فَتَاةٍ تُرَجِّعُ في معاصمها الوُشوم

وقال أَيضاً[22]:

هاج الفؤاد معارفُ الرَّسْمِ قَفْرٌ بذي الهضاب كالوَشْم

وهكذا تأْخذ التعابير المكَرَّرة، والتشبيهات المتماثلة في داخل نظام القصيدة الفكري دلالةً عميقة أَبْعد من الدّلالة الحسِّية القريبة، ومن الدلالة الفردية الخاصة؛ لأنها بمثابة الطُّقوس أَو الشَّعائر التي تصدر عن المجتمع بروح متحدة جماعية، والتكرار

(١٨) الهذليون، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار فراج، دار العروبة، مصر ١٩٦٥م، ٣مج، ج٣ ص١٢٦٦، وسيشار إليه لاحقاً بـ «شرح أشعار الهذليين».

(١٩) بشر بن أبي خازم الأسدي، (... ٣٢ق.هـ/ ٥٩٠م)، الديوان، تحقيق: عزة حسن، طبع دمشق، ١٩٦٠م، ص٦٥.

(٢٠) الطفيل الغنوي: الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨، ص٩٥.

(٢١) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص٢٠٦.

(٢٢) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص٣٨٢.

للموضوع الواحد مع الاختلاف الذي لا ينتهي في التفصيلات يذكِّرنا بموضوع «مريم البتول وطفلها» الذي تناوله عشرات الرسامين الأوربيين، وكلٌّ منهم يأتي بجديد غني التنوُّع[٢٣].

هناك - إذنْ - ملامح مشتركة كثيرة في وصف الطلل، ووحدة غريبة تصدر - أصلاً - عن وحدة التفكير، ووحدة الحسّ، وعن روح المجتمع وقِيَمه الفنيَّة. ومن هنا كانت الوقفة الطَّللية في القصيدة الجاهلية، ذات خطر كبير لأنَّا نجد فيها ما لا نجده في أغراض الشعر الأخرى: من تمثيل دقيق لحقيقة الفكر الجاهلي، ومن تعبير أصيل عن نبع المعاناة والمكابدة في الحس الجاهلي.

وقد لاحظ النقاد أهمية الوقفة الطَّللية في الشعر القديم، وحاولوا تفسيرها:

---

(٢٣) محمد النويهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، جزءان، الدار القومية بمصر، دون تاريخ، ص١٥٦ وما بعدها.

(١) التفسير الواقعي

(أ) رأى «ابن قتيبة» في وصف الطلل تعبيراً عن الأسى الذاتي عند آثار حبيبة حقيقية راحلة[٢٤].

(ب) وعَلَّل «شوقي ضيف» بكاء الديار القديمة بأنه بكاء يفيض بالحنين الرائع إلى ذكريات شبابهم الأولى[٢٥].

(جـ) ولاحظ «شكري فيصل» أن الشعراء في وصف الأطلال يُعْنَون بتصوير حياتهم العاطفية، وكل شاعر يُلَوِّن الطَّلل بحالته النفسية وأفكاره الخاصة، فهناك مناجاة، ودموع، وموسيقى، وألم دفين، ويأس، وأحاسيس عارمة فَيَّاضة؛ مما يدل على أن وصف الأطلال لم يكن غرضاً تقليديًّا في حياة هؤلاء الشعراء تُمليه طبيعة القصيدة، وتدعو إليه عادات الشعر، وإنما كانت تمليه الحياة الداخلية التي يحياها هؤلاء الشعراء[٢٦].

(د) ويرى «مصطفى عبد الواحد» أنَّ البكاء على الأطلال أو الوقوف بها مجرد ثورة عاطفية يتذكَّر فيها الشاعر أياماً انقضت أو يسترجع ساعات من طيب العيش ولذَّته.

---

(٢٤) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م، ص٧٥.

(٢٥) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م، ص٢١٢.

(٢٦) شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥ (دون تاريخ)، ص٣٨ ـ ٨٣.

وكـان يدفـع العـربيّ إلى ذلك الشعور بالشَّجَن والحزن لأن حياته ليس لها طابع الاستقـرار، فالـدِّيـار تَعْمُـر ثم تُقْفِـر، والأحبـاب يظعنـون ويخلِّفـون له اللَّوعـة والحَسْـرة، فكـان بكـاؤه في الحب بكـاء على نفســه، وأسى على ذهاب أُنْسه، وفَقْد مُتَعه.

لا غَرْو أَنْ كان الجـاهـلي يبكي على فَقْـد المرأة في أسىً، لكنه لا يستطيع تصوير العـلاقـة بينـه وبينهـا في صورة مثـالية ترتفع عن الحس وتتصل بالعاطفة في ثباتها ووفـائهـا، إذْ لم يكن لديـه من المشـاعـر والمُثُـل النفسيـة ما يسموبه عن الحس، ويلهمه الصُّور، ويمدُّه بالتجارب[٢٧].

(هـ) وقــال «نــوري القيسي»: إن وصف الطلل انبثق عن الحـرمـان الجـماعي من الاستقرار في الأرض والاطمئنان إلى الوطن[٢٨].

(و) ويرى «حسين عطوان» أَن المقدمات جميعاً لا تعدو أَنْ تكون ذكريات وضرباً من الحنين إلى الماضي والنزوع إليه، لأنَّ الشعراء دائماً يرتَدُّون بأبصارهم وأنظارهم إلى الـــوراء، إلى أغلى جزءٍ مَضَى وانقضى من حيــاتهم.. ذكـريـات اللَّهـو والمتعة، والحُب والشباب، والفُتُوَّة والفروسية[٢٩].

(ز) وأكَّد «محمد التوتنجي» أَن السبب لظهور شعر الأطلال عند العرب ذلك الحنين الــذي يشعـر به الإنسـان وهـو يلقي نظـرة على دار الحبيب، فلا يجد إلا بقـايـا بالإضـافـة إلى ما هو أهم أيضـاً.. فلولم يكن العـربي بدويًّـا متنقِّلاً لما حصلت النَّجْعَة والخليط ولا شعر الأطلال[٣٠].

---

(٢٧) مصطفى عبـد الـواحـد، دراسـة الحب في الأدب العـربي، دار المعـارف بمصـر، ١٩٨٢م، ص١٣ ـ ١٢.

(٢٨) نوري القيسي، وحـدة المـوضـوع في القصيدة الجاهلية، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٧٤م، ص٩. الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠ ص٢٥٠.

(٢٩) حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م، ص٢٢٧.

(٣٠) محمد التونجي، دراسات في الأدب الجاهلي، مطبعة الشرق، حلب ١٩٨٠م، ص٨٧.

(٢) التفسير النفسي

(أ) يرى «أحمد الحوفي» أن الحبيبة هي المثير الطبيعي لعاطفة الحبّ، والأطلال المثير المقارن أو الصناعي، وتفسير ذلك ـ كما يُقَرِّر علم النفس ـ أن الحبيبة بعيدة عن الشاعر، فديارها حَلَّت مَحَلَّها في إثارة عاطفة حبها[٣١].

(ب) وقال «محمد النويهي»: إن البكاء على الأطلال ليس عاطفة خاصة، ولا تجربة ذاتية، بل لحظة حزن أملاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن المكاني، والحنين المتجدد إلى الاستقرار والمكان الذي يستطيع فيه أن يقيم بيتاً يُخَلِّدُ فيه ذكرياته، ويسترجع صباه[٣٢].

(جـ) ورأى «محمد حسن عبد الله» أن المُقَدِّمة في مطلع القصيدة أشبه ما تكون بالمقدمة الموسيقية تُعْزَف بين يديّ المُطْرِب قبل البدء في الغناء، وغايتها إثارة إحساسه ليتوافق صوتُهُ مع اتجاه اللَّحن والكلمات وتهيئة أُذنه للإيقاع[٣٣].

(د) ويعتقد «محمود الجادر» أنَّ المقدمة الطللية تقدِّم مُؤشِّراً واضحاً إلى عمق ارتباط الشاعر بالبيئة التي ظلَّت تواجه حياته بتحدّي الرحيل الأبدي، وترفد «صيغته الطللية» بتفاصيل المعاناة. أمَّا ارتباط المرأة بالصيغة الطللية فإنه يبدو منبثقاً عن

---

(٣١) أحمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص٢٧١.

(٣٢) محمد النويهي، الشعر الجاهلي، الدار القومية بمصر، (دون تاريخ)، ٢مج، ص١٥٦ وما بعدها.

(٣٣) محمد حسن عبد الله، مقدمة في النقد الأدبي، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥م، ص٥٥٤.

ارتبـاط منـابع الحنين إلى الاستقرار ووحدتها النفسية، رغم تشعبها الموضوعي، فالمرأة كالأرض في قدرتها على استقطاب لهفة القلق المتحفز في نفس الشاعر عند أعتاب نَصّه الإبداعي[٣٤].

(هـ) ورأى «إيليا حاوي» و«مطاع صفدي» أنَّ الوقوف على الأطلال مدخلٌ شعوري كيـاني للقصيـدة الجـاهلية، وإن كان موضوعاً غريباً على ذوقنا وتجربتنا الحديثة، وهو يُلَخِّص في حقيقته أفجع ما في الغُرْبة الدائمة للعربيّ في المكان اللامتناهي. وصـور المقـدمـة تخرج من التجسيـد الشخصي لتصبح موئلاً للحنين إلى الاتحاد بدل الانفصال، إلى الربع والخصب، إلى الصورة المعاكسة دائماً لواقع الشَّظَف والجَـدْب والحـرمان؛ فالزمان والمكان انفصال وبؤرة المعاناة هو الإنسان المنقضي المرتحل دائماً[٣٥].

(و) وقـال «عبـد الرزاق الخشروم»: إنَّ الوقوف على الأطلال جاء نتيجة الإحساس بالغُرْبة، وهي الانفصال عن الواقع الحاضر، والاتحاد بالماضي البعيد[٣٦].

(ز) ويـرى «عنـاد غزوان إسـماعيـل» أنَّ عدم الاستقـرار، والقلق، والفراق، وخيبة الأمـل، والإحسـاس بالشكـوى، والاعتـزاز بالـذِّكـرى، والسَّأم، كلُّها مظاهر اجتماعية ونفسية مستمدة من بيئة الشاعر جعلت من الألم خصوصية فنية تمتاز بها تلك المطـالـع والمقـدمـات الغـزليـة. . فالوقوف على الأطلال والبكاء عليها رمز لتجربة الألم التي يجد فيها الشاعر راحة ولذة نفسيتين يطمئن إليهما في التعبير عن

---

(٣٤) محمـود الجـادر، قراءة معـاصـرة في مقدمة القصيدة الجاهلية، مقالة في مجلة الثقافة السورية، عدد آذار، دمشق ١٩٨٠م، ص٧.

(٣٥) إيليـا حاوي ومطـاع صفـدي، موسـوعـة الشعر العربي، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٧٤م، ٤مج، جـ١ ص٢١ ـ ٤٢.

(٣٦) عبد الرزاق الخشروم، الغربة في الشعر العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٢م، ص٢٤٤.

بعض مشاعره الحبيسة بما يشبه «رثاء النفس» ومن ثَمَّ كان الغزل والرثاء في الشعر العربي القديم غرضاً واحداً[٣٧].

(ح) وجعل «يوسف خليف» فكرة الفراغ في المجتمع الجاهلي الرعوي محور مقدمة الأطلال في القصيدة الجاهلية، الذي كان يطول في بعض الأحيان، وخاصة في أيَّام الربيع عندما تَتَحَوَّل البادية إلى جنَّة خضراء، ينطلق البدو فوقها يسيمون إبلهم وأنعامهم وشاءهم.

وحتى لا تستحيل الحياة معها فراغاً بارداً لا إحساس بالوجود فيه، وشعوراً بالضياع في هذه الصحراء المترامية الأطراف التي يخيل للإنسان فيها أنَّه يعيش في عالم لا يعرف الحدود ولا يُدْرك معنى النهاية.

وحدَّدت ظروف البيئة والحضارة في المجتمع الجاهلي وسائل حَلِّ هذه المشكلة - مشكلة الفراغ - في ثلاثة اتجاهات أساسية: الخروج إلى الصحراء للرحلة أو الصيد، والالتقاء بالرِّفاق لشرب الخمر ولعب الميسر، والسَّعْي خلف المرأة طلباً للحبّ والغَزَل.

ومن هنا ارتبطت هذه المقدمة بهذه الدوافع التي حاولوا عن طريقها حلّ مشكلة الفراغ في حياتهم، وتحقيق وجودهم أمامها، وهي مشكلة وجد العربيّ حلَّها في هذه المُتَع التي لم يجد مكاناً للتعبير عنها في زحمة الالتزامات القبلية إلَّا في مقدمات قصائده[٣٨].

---

(٣٧) عناد غزوان، المرثاة الغزلية في الشعر العربي، مطبعة الزهراء، بغداد ١٩٧٤م، ص٥ وما بعدها.

(٣٨) يوسف خليف، مجلة «المجلة»، مصر ١٩٦٥م، العدد ٩٨، ص١٦، والعدد ١٠٠، ص٣٥، والعدد ١٠٤، ص٤.

(٣) التفسير الفلسفي

(أ) ويرى المستشرق الألماني «فالتربراونه» أن المُقَدِّمة الطَّللية سيقت في مطالع القصائد لغرض واحد هو اختبار القضاء والفناء والتناهي ؛ لأنَّ الإنسان في كل زمان ومكان يسأل عن وجوده ومصيره ونهايته ، وبصفة خاصة كان هذا السؤال يؤلم الشاعر الجاهلي ويضايقه ، فطالما ردَّد : «عَفَت الديار» ، و «دَرَسَت الدِّمَن» ، فهل ستكون حياته مثل الدِّيار تضج بالحركة والحياة يوم أن يكون أهلها في ربوعها ، ثم تتحول إلى قفار موحشة يخيم عليها السُّكون والموت وتتبدل من أهلها وحوشاً؟

لقد ملأ التفكير في الوجود والمصير على الشاعر الجاهلي حياته ، غير أنه لم يكن تعبيراً صادراً عن تشاؤم ، وإنَّما كان حافزاً يحفزه على الإقبال على الحياة ، واستئناف الرحلة بروح وثَّابة ، فبعد الأطلال يأتي الغزل ؛ فالمرأة رمز الخصوبة والتجدُّد ، ومن ثَمَّ يمكن اعتبار هذه المقدمة الطللية تعبيراً عن أزمة الإيمان باستمرار الحياة قبل أن يحدد الإسلام إيمان العرب بخلق حوافز جديدة للحياة ، فالشاعر الجاهلي جمع بين شعورين في إطار واحد ، وهو مايسمى بالنسيب ، أيْ الحبّ المهدَّد دائماً برحيل المحبوبة ، كذلك الحياة المهدَّدة بالخَراب متمثلة في الوقوف على الأطلال المقفرة ، فالمقدمة تعبير عن الصراع بين : حب الحياة ، وغريزة الموت[٣٩] .

---

(٣٩) انظر : مجلة المعرفة ، حزيران ١٩٦٣ ، ص١٥٦ . ومقالة مشابهة أيضاً لعز الدين إسماعيل ، =

(ب) ورأى الدكتور مصطفى ناصف أن الوقوف بالصاحب أو الصاحبين على الطلل من أهم ما شغل الشعر العربي على اختلاف منازله وعصوره؛ لأن الخراب والدَّمار حقيقة مرهفة للشاعر القديم.

وفي المقدمة الطللية يعبر الشاعر الجاهلي عن قداسة الديار من خلال الرموز التالية:

أ ـ الوشم المُجَدَّد.
ب ـ الكتابة الباقية على الحجر.
ج ـ الظباء والأطلاء التي انتشرت في الطلل.
د ـ السيول والريح.

تلك القُوى غير الإنسانية التي تتعاون جميعاً من أجل الكشف عن الطَّلل.. وكُلُّها تتعاون على أن تبعث الدِّيار، وعلى أن تصبح حَيَّةً لا تموت.

هذه الفكرة اليسيرة شديدة الأهمية، لأنها تَعْدِل مفهوم البُكاء الذي نتذكره حينما نقول مع آمرىء القيس:

قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ   بسِقْط اللِّوى بين الدَّخول فحَوْمَلِ

هذه الصور أصبح الماضي في ظِلِّها حاضراً لا ينقطع، ولا شيء يَفْنَى تماماً، وهذه الفكرة تُغَيِّر مفهوم البكاء؛ فالبكاء هنا ليس حزناً سلبيًّا عاجزاً، وليس هزيمة أمام الموت، فالحياة يمكن أنْ تظلَّ منتصرة. فهي دعوة غامضة إلى تغيير النظر إلى الماضي، أو دعوة إلى مبدإ استمرار الحياة من حيث هي نشاط وفاعلية[٤٠].

= مجلة شعر، شباط ١٩٦٤. وعرض عطوان للمقالتين في: مقدمة القصيدة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م، ص٢١٦ ـ ٢٢٠.

(٤٠) مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت ١٩٨١م، ص٣٧، وص٥٩.

(جـ) وقـد أولى الأستـاذ «يوسف اليوسف» فكرة الطَّلل أهمية بالغة، ووضع يده على بعض أسـرارهـا، فقـال: العنصـر الطللي هو توليف انـدماجي للحظات ثلاث هي: التهدُّم الحضاري، والقَمْع الجنسي، وقَحْل الطبيعة.

إنَّ المـوقف الطللي هو ترجمـة لا شعـوريـة للرغبة في الخلاص من ظرف حضاري مُتَهَدِّم، والتحوُّل إلى مرحلة حضارية أرقى.

وبـوسعنـا أن نرى العنصـر الرِّثائي في هذه اللحظة: «قفا نبك»، وإنْ كان يخفي الـدافـع الجنسي تحت حجبـه، إنَّـه بالـدرجـة الأولى نواحٌ من أجـل الجِنْس المحظور، من أجل المرأة المحجوبة.

إنَّ ظاهـرة النـواح سمـة جليـة للنفس العربية والسامية منذ فجر التاريخ، فطالما عانـوا من الأسى النـاجم عن الإحسـاس بالقَسْر والقَهْر والقَمْع وعُقْم الطبيعة. والشـاعـر يوَحِّـد بين القَمْـع الذي تتعرض له الطبيعة وتقوم به في الوقت نفسه، بفعل القَحْل وانحباس المطر، وهو ما ينعكس بدوره على الفَرْد والجماعة، وبين الهَـدْم الـذي يصيب الحضـارة من جَرَّاء ذلـك القحل، والقهر الذي يتعرض له الفرد بفعل الرقابة الاجتماعية، وبفعل ما تُمارسه التَّقاليد من حظر جنسي.

وهناك تشابه بين الطَّللية والتَّموزية، هذا التشابه يتجلى في أن كُلًّا منهما تنطوي على عنصـر النـواح احتجـاجـاً على الجَـدْب والقَحْل، كما تحتوي على العنصر الجنسي مندمجاً اندماجاً عضويًّا مع العنصر السابق.

الطلليـة شكـل بدائي صحـراوي، أو نمـط عربي خاص من أنـماط طقـوس الخصب، والانفعـال أمـام الشُّـح الـذي تمارسه الطبيعة على الإنسان، ممزوجاً بعنصـر الانهدام الحضاري، ممثلاً في المنزل الخَرِب، والاستلاب الجنسي، مُمَثَلاً

بالحرمان من المحبوبة الراحلة.

وربما كانت الطللية بمجملها لا تحمل إلا غاية واحدة هي التعبير عن اغتراب الإنسان في مملكة الطبيعة العاتية التي تعجز أدوات البدائيين عن تدجينها[41].

(٤١) يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٥م، ص١٩ و١٣٨ و١٤٠ و١٨٧.

(٤) التفسير الرمزي

(أ) يرى «سعد شلبي» أَنَّ الوقوف على الأطلال رمزٌ لحبّ الوطن عند الإنسان العربي[٤٢].

(ب) ورأى «محمـد غنيمي هلال» أَنَّ الـوقـوف على الأطلال له صبغةٌ عاطفية ذاتية، يُعَبِّرُ فيه الشاعر عن عاطفته النبيلة في وفائه لحُبِّه وعن ماضيه الماثل في آثار الحبيب النازح.. وفي الوقوف على الآثار تصويرٌ لمشاعرَ أَكثر صلة بالجماعة منها بالفرد؛ لأن موضوعها التَّغَنِّي بماضٍ وطني أَو قومي[٤٣].

(جـ) ويعتقـد «محمـود الجـادر» أَن صيـغ الافتتـاح في الشعر العربي باعثها الأول ديار حبيبة راحلة، أَو وطن مكانيٌّ مفْقود، أَو حجارة مُقَدَّسة وبقايا هيكل ديني[٤٤].

(د) ويرى «إيليا حاوي» أَنَّ حديث الشاعر الجاهلي عن الطلل ينطوي على بعدين جوهـريـين؛ البعد الأول: رغبته بالحياة وحبه لمُتَعها وجمالها، ورغبته في الاستقرار بين أَحْضَـانهـا، ينهـل الحُبَّ والـوَجْـد والشهوة، والبُعْد الثاني: يتولد من شعوره بهروب الأشيـاء وإدبـارهـا السـريـع أَمـامـه وحـركـة التغـير في الأشخـاص

---

(٤٢) سعد شلبي، الأُصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٤١.

(٤٣) محمد غنيمي هلال، في النقد التطبيقي والمقارن، دار نهضة مصر، (دون تاريخ)، ص٣٣ - ٣٨.

(٤٤) محمود الجادر، شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين، دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٩م، ص٢٥٦.

والأحداث. . إنَّ تجربة الشاعر مع الطلل تنطوي على نزاع بين الفَرَح والطَّرَح، بين الاستقرار والرحيل، بين الألفة والوحشة، بين الصُّحْبة والغُرْبة، بين الحُبِّ والجَفَاء، بين القُرْب والبُعْد، ومن ثَمَّة بين الحياة والزوال(٤٥).

(هـ) ويرى «عادل البياتي» أن الطلل له ارتباط بمُقَدَّسات الشاعر، وبامتداده في ماضيه الذي تَتَقَمَّصُهُ أرواح الأسلاف، ومن غير هذا التعليل ليس من السُّهولة تفسير هذه الرَّهْبة، وهذا الشعور بالجلالة والتقديس لأحجار تافهة القيمة في عُرْفِنا. . فالجانب الديني المُرْتَبط بعاطفته هو الذي حفزه على تعظيم هذه الأطلال كل هذا التعظيم.

وعلَّل المقدمة الطللية في موضع آخر، فقال: إنَّها جاءت موروثاً من مرحلة اقتران الشعر بالتراتيل الدينية التي كانت وسيلتها التعلق بالحجارة المقدسة، وبقايا الهيكل الديني(٤٦).

(و) ورأى «داود سلوم» رأياً مشابهاً فقال: إنَّ الشعر العربي الذي يأتي في أول القصائد ما هو إلَّا بقايا تراث ملحمي من ملاحم ما قبل التاريخ عند الساميين، حيث كان الشاعر يُقَدّم صلاته للآلهة قبل الشروع في القصيدة، ثم كان أن تحولت البداية ـ عن طريق التدهور ـ إلى الغزل في المرأة، ذلك لأن الشعر قبل أن يصبح فنًّا واقعاً كان أدعيةً وصلوات، وقد استقرت هذه البدايات في قرار عميق من الشاعر، ويُعَدُّ هذا من الأمور الطبيعية بالنسبة للإنسان القديم الذي كان يخطِّط لَمعْبده، ثم إنَّ الشاعر القديم كان مُلْحقاً بخدمة الآلهة في الهياكل، وقد كانت الهياكل صخوراً وأحجاراً وخياماً، فإذا رحلت القبيلة تركت كل هذا، وإذا مرَّ أحدهم بها وقف واستعبر، ومن ثَمَّ نشأ الارتباط الممتزج بالجلالة

---

(٤٥) إيليا حاوي، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م، ص٧٣.

(٤٦) عادل البياتي، مقدمة القصيدة الجاهلية، مقالة في مجلة آفاق عربية، آب، ١٩٧٧م. ومقالة بعنوان: رمز المرأة في أدب أيام العرب، مجلة آفاق عربية، العدد ١٢، آب، بغداد، ١٩٧٧م.

والقداسة[٤٧].

(ز) وتنبَّه إلى الجانب الرمزي في الطلل الدكتور «أحمد كمال زكي» فقال: إن الطلل يرمز إلى ما تُخلفه رحلة الشمس على الإنسان، والشمس تمنح الخصب والنَّماء بحضورها، فلا بدَّ ألا ييأس أحدٌ من عودتها بعد نزوحها.

والظَّعن الملوَّن البهيج هو الشمس نفسها عند طلوعها في الصباح، وفي المساء تغيب في مثل هذا المهرجان الجميل، لأنَّ غيابها يعني أنَّها ستعود، ومن ثمَّ لا أسى ولا فجيعة، ومن ثمَّ أيضاً تبدو المرأة - التي تشبه الشمس - فاتنةً ضاحكة؛ لأن رحلتها رحلة أمل، وليست رحلة يأس[٤٨].

(ح) وأشار إلى هذا التفسير نفسه الدكتور «إبراهيم عبد الرحمن»، فقال: إنَّ الشعراء يربطون بين مقام المحبوبة وخصب الديار، وبين رحيلها وما أصاب الديار من المحل والجفاف.. وهذا النوع من الربط بين رحيل المرأة المحبوبة وبين خراب الديار وأصحابها، وبين مقامها وخصب الديار كثير الورود في شعر الوقوف على الأطلال، ويكاد يكون المعنى الوحيد الذي يدور حوله الشعراء حين يقفون على الأطلال؛ لأن المرأة المعبودة لها هذه القوة الأسطورية: قوة إخصاب الأرض وإمحالها[٤٩].

(ط) ولعل أول من عرض الرأي السابق وتَبَنَّاه «نصرت عبد الرحمن» في رسالته للدكتوراه: «الصورة الفنية في الشعر الجاهلي» قال: إنَّ الشعراء يبكون على الطلل ويتذللون أو يبكون على الشمس التي رحلت فأدى رحيلها إلى خراب

---

(٤٧) داود سلوم، النقد المنهجي بين الاستقرار والتأليف، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢م، ص١٥.

(٤٨) أحمد كمال زكي، الأساطير؛ دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٨٤.

(٤٩) إبراهيم عبد الرحمن، الشعر الجاهلي: قضاياه الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٥٨.

الديار وإقفارها، فما من آمرأة حقيقية تُقْفر ديار قومها إذا رحلت، ولكنَّها الشمس التي كان يعبـدهـا الجـاهليـون هي التي يُؤَدِّي رحيلهـا إلى إقفـار الـديـار؛ لأنَّ الشمس رمز الخصب عند الإنسان(٥٠).

(ي) وقـدَّم الـدكتـور «عبـده بدوي» وجهـة نظر في قضيتي الطَّلل والنسيب في مقدمة القصيـدة، فقـال: المقـدمـة هي الجانب الذاتي في القصيدة، فمن خلالها كان يستشفي الشاعر ويعترف ويَشِي بأفكاره، ويجعل له قناعاً، أو يخلق رموزاً، وهو من خلال هذا كُلّه قد تجيء له لحظـات سريـاليـة حين تتـداخـل عناصر المقدمة وتتنـاقض، والمقـدمـة تموج بعنـاصر الكَرْب والعَذاب والخَوْف والسِّحر والموت، وعناصر اللذَّة والنَّشوة والزَّهو.

وتبـدو قضيـة الطَّلل والمـوت هي قضيـة العَـدَم والوجود. لقد كان الشعراء في غربتهم واغترابهم يلتفتون إلى شيء أثير عندهم يمكن أن يكون رمزاً للضَّياع، ولقد كان هذا الشيء هو الطلل، لقد كان الطلل في أول الأمر حقيقة ثم أصبح بعد ذلك رمزاً للعالم المفقود، ثم أَصبح بعد فترة تقليداً فنيًّا من تقاليد الشعر(٥١).

(ك) ورأى «مصطفى ناصف» أن الليـل والهجـير والظـلَّ عنـاصـرُ باقية أو رموزٌ جدية قديمة تعبرِّ عن رغبة الإنسان في الحياة الفطرية، وإعادة الاتصال بالأم المفقودة، فموقف الإنسان هو موقف الطَّريد الذي لا أُمَّ له.

الخمر والوقوف على الأطلال هما تعبير معقد عن هذه الفكرة؛ لأن الشاعر القديم في خطاب الطلل كان يُمَثِّل موقف الباحث عن الأم(٥٢).

---

(٥٠) نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى ١٩٧٧م، ص١٣١.

(٥١) عبده بدوي، في قضايا الأدب واللغة، الكويت، ١٩٨١م، ص٥٠٥ ـ ٥١١.

(٥٢) مصطفى ناصف، دراسـة الأدب العـربي، الـدار القـوميـة للطباعة والنشر، القاهرة، (دون تاريخ)، ص١٥٧ ـ ١٥٨.

(٥) التفسير البنيوي

(أ) يرى الأستاذ «كمال أبوديب» أن مقطع «ابن قتيبة» المشهور الذي يحاول فيه أن يصف العملية التي طوّر بها الشاعر الجاهلي قصيدته أحد أعمق المقاطع النقدية المتعلقة بالشعر الجاهلي حساسية وتبصراً، لأنَّه فَسَّر الخصائص البنيوية للقصيدة على أُسس نفسية، ولم يَرَ فيها وجوداً تقليداً فرضه التراث الشعري. وأكَّد «ابن قتيبة» أنَّ عملية نموّ القصيدة ليست اعتباطية أوخاليةً من منطق داخلي، بل عملية هادفة واعية، ترتبط بالبنية الكليَّة للقصيدة، وبهذا المَعْنى فإن ملاحظة ابن قتيبة «بنيوية» لأنَّها تعاين بنية القصيدة المفردة، لا في عزلة عَنْ، بل في إطار مِنْ، علاقتها ببنى قصائد أُخرى من التراث[٥٣].

(ب) وقد اقترح «كمال أبوديب» في دراسته منهجاً نقديًّا بنيويًّا في دراسة الشعر الجاهلي من النظريات النقدية الحديثة ومن البنيوية، وبشكل خاص من منهج التحليل البنيوي للأسطورة، وعالج «وصف الأطلال» في ضوء هذا المنهج وقدَّم تحليلاً تطبيقيًّا لمعلقة «لبيد بن ربيعة العامري»؛ لأن رؤياها الأساسية تحتلُّ مكاناً مركزيًّا في الشعر الجاهلي كله، وهي من أكثر قصائد التراث تشابكاً وتعقيداً وغنىً.

---

(٥٣) كمال أبوديب، نحومنهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، مجلة المعرفة السورية، ع١٩٥، آذار، مارس، آيار، مايو، ١٩٧٨م، ص٢٨ ـ ٢٩. وابن قتيبة، الشعروالشعراء، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص٧٥.

ورأى أن وصف الأطـلال يشكِّـلُ وحـدة مكونة في البنية متعدِّدة الشرائح، قادرة على نقـل الـرُّؤ يـة الشعـرية وإيصالها بصورة أكثر حدةً وتجلياً وكمالاً من أيِّ بُنْية أخـرى، وتُقَـدِّم صورةُ الأطـلال مفارقة جذرية وجوهرية، إذْ تضاء عملية سلبية عبر عمليـة إيجـابيـة؛ وكـلا العمليتـين تنبـع من حركة الزمن ومروره، الزمن في مروره يُجَرِّد الأشيـاء ويُعَـرِّيهـا لكنَّـه في الـوقت نفسـه يُخَلِّد الأشيـاء ويمنحهـا الـديمـومـة. . ومن هنـا يتكـون تصـوُّر الشـاعر للزمن في إطار لغة الحياة والموت والحلال والحرام.

ثم حلَّل الطبيعـة التضـادِّية لموجودات الطَّلل، ورأى أنَّ الصُّور تُقَدَّم في إطار من الثُّنـائيَّـة الـواضحة: القرار / الرحيل، الإخصاب / العقم، النؤي (من خلق الإنسـان) / الثـمام (من خلق الطبيعة)، وإنَّ أهمَّ ملمح في القصيدة هو السياق الـزمني لحركـة الأطلال. وناقش العلاقات بين هذه الأزمنة ودلالاتها وما فيها من انكسارات ونقلات وثنائيات وأبعاد، ورأى أن تجربة الأطلال لم تكن تجربة واقعية فعليـة؛ بل تجربـة تخيلية (خيـاليـة) إبداعية، قد تكون إعادة خلق واستحضاراً لتجـربـة ماضية شخصية، لكنَّها قد تكون أيضاً فعل خلق تخيلاً صرفاً، ومن ثم فإن وحـدة الأطـلال تمتلك قيمـةً رمـزيةً لا تقل أهمية في دورها الأساسي بالنسبة للتجربة، أو المعنى أو المحتوى الكائن في القصيدة، عن أَهميَّة أي وحدة أُخرى.

واللحظة الزمنية على صعيد بنيوي تعكس دافعاً تكوينيًّا قد يكون لا واعياً لدى الشـاعـر لإضفـاء الحياة والحيوية على مشهد الخراب واليَبَاب، فالشاعر لا يُقَدّم صورة لفظيـة لمشهـد قائم في الـواقع الخارجي، ولا «يحاكي» الواقع محاكاة دقيقة صادقـة؛ بل إنَّـه ليخلق واقعـاً طريًّـا كلَّ الطراوة، ومجرداً تجريداً مطلقاً، ولذلك فإنَّ ما يخلقـه لا يمكن أن يكـون اعتباطيًّا خالياً من الدّلالة الإشارية، وفي الحق إن هذا الخلق كشفٌ لرؤ يا أكثر عمقاً وغوراً، وأكثر جوهرية وأساسية من الرؤ يا التي يوحي بها المستوى السطحي لوحدة الأطلال كما تفسرها الدراسات التقليدية.

وعـرض «أبـو ديب» مخططـاً لمضمـون وحدة الأطلال في القصيدة كشف فيه عن تصـور الشـاعـر الأسـاسي للزمن، وهـو في الجـوهر والنهاية تصور للحياة والموت اللذين يمثل وجودهما المتزامن الرؤيا الأساسية لوحدة الأطلال. . وهذه الرؤى للزمن والـواقـع وللمـوت والحيـاة رؤى القصيـدة الجـوهـرية من حيث هي كل متكامل وبنية كليَّة.

وعـالـج البنيـة اللغـوية للطَّلل، ولاحظ وفرة المزدوجات والثنائيات الضديَّة التي تُسْهم في نمـوّ القصيـدة وخلق نسيـج لغـوي يتشكل في سياق الرؤيا للواقع. . وهذه الخصيصة يتميز بها الشعر الشفهي في تراث أُمم أُخرى أيضاً[٥٤].

(٥٤) كمال أبـو ديب، نحـو منهـج بنيـوي في دراسـة الشعـر الجـاهلي، مجلة المعرفة السورية، العدد ١٩٥، آذار مارس، أيار مايو، ١٩٧٨م، ص٢٨ ـ ٥١.

فكرة المطر في الوقفة الطللية

كثيرون يظنُّون أَنَّ الفن في صميمه لغة العاطفة، والحالات الوجدانية، والمزاج الشخصي، والمواقف الانفعاليَّة. وليس كذلك دائماً؛ لأنه أُسلوب خاص في نقل تجربتنا الفردية والاجتماعية إلى الآخرين بها في ذلك إدراكنا وميولنا وعاداتنا ومفاهيمنا وإرادتنا ومعتقداتنا وطموحنا ومشكلاتنا، وكلّ ما يندرج تحت مفهوم «التراث الحضاري» بصفة عامة(٥٥).

والوقفة الطللية من هذا التراث الحضاري العظيم للمجتمع العربي في العصر الجاهلي، وهي فن خاص بهم وحدهم، لم يشركهم فيها شعب من شعوب الأرض، وهي سر كبير من أَسرار الشعر الجاهلي، فيها إرادة الأمة وطموحها ومشكلاتها و«تراثها الحضاري»، ولا يتبدى نشاط العقل في العصر الجاهلي في فنون الشعر الأخرى كما يَتَبَدَّى في الوقفة الطللية؛ لأنها مظهر خَلاَّق وقدرة إبداعية لنشاط الفكر الذي يحاول أَن يتفهَّم العالم ويُعَبِّر عنه تعبيراً فنيًّا راقياً.

في الوقفة الطللية موضوع حسي: أُوتادٌ، ونُؤي، وأَثافٍ، وحجارة، ورمال، ورياح، وأَمطار، وحيوانات، وبكاء، ودموع، وحبيبة رَحَلَتْ، وعشب بَزَغ. لكنَّ هذه المواد الحسية لها مدلول باطني أُعمق من الحس، يشير إلى موضوع خاص، ويعبر عن حقيقة روحية ثرية عميقة، غزيرة المعنى والمدلول، ويدل على كيفية باطنية في صميم العمل الفني.

---

(٥٥) فؤاد زكريا، مشكلة الفن، مكتبة مصر بالفجالة، (دون تاريخ)، ص١٩ وما بعدها.

وقد نستدل من الوقفة الطللية على حبيبة حقيقية راحلة، وقد نستنتج رغبة الجاهلي في الاتحاد بالماضي، أو إحساسه المرهف بالحرمان من الوطن والاستقرار في المكان، وقد نرى في الوقفة الطللية تغنيًا بأمجادٍ وطنية وقومية، أو رثاءً لأبطال سقطوا دفاعاً عن القبيلة، أو تمجيداً لمعشوقين دافعوا عن الوطن.

وقد نرى في الوقفة الطللية كَرْباً وعذاباً، وإحساساً بالدَّمار، ورغبةً في الحُزْن والبكاء، وتشاؤماً من الموت، وتفكيراً في المصير، وأزمةً في الإيمان، وقلقاً روحيًّا، ورثاء للعلاقات الإنسانية القتيلة.

وقد تكون أناشيد الأطلال بقايا تراث مَلْحمي ديني، تعبر عن التعلق بالحجارة المقدسة، أو الإلهة «الشمس» التي رحلت وتركت الديار بلاقع.

وقد تمثل الوقفة الطللية رموزاً مختلفة، فنرى فيها أملاً في حياة جديدة، وبعثاً من العَدَم، أو يأساً يتبعُه أَمَل، أو تهَدُّماً حضاريًّا يتبعه انتصار قومي، أو بحثاً عن الأم المفقودة في أحضان صحراء عارية.

لكن الأعمال الفنية العظيمة أشبه ما تكون بالذُّرى العالية التي يعز بلوغها، ونحن لا نَتَّجِه إليها مباشرة، بل نُحَلِّق حولها وندور، وكل جيل من الأجيال يراها من زاوية مغايرة وبنظرة جديدة، والمعنى الذي يحمله الأثر الفني لجيل متأخر ليس إلَّا ثمرة ذلك التراث الضخم من التفسيرات المتقدمة(٥٦).

وفي منطق النقد تصلح الظاهرة الفنية الواحدة أن تُتَّخذ مُنْطلقاً لضروب متباينة من التوجه في التحليل والتنظير والتفسير؛ ذلك أن طبيعة النَّشاط النقدي نفسه يبقى مشدوداً إلى الحكم التأثري مهما بدا مطاوعاً لمنطق المنهج العلمي(٥٧).

---

(٥٦) أرنولد هاوزر، فلسفة تاريخ الفن، ترجمة رمزي جرجس، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٨م، ص٧.

(٥٧) محمود الجادر، قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة الثقافة، آذار، دمشق، ١٩٨٠م، ص٧.

والـوقفـة الطلليـة من الظـواهـر المعقَّـدة في الشعـر الجـاهلي، وقد حَلَّق كثير ون وداروا، ثم سقطـوا على السَّفْـح، وبقيت الـذروة عزيـزة المنـال، صعبـة المُـرْتَقى، وسأحاول الكشف عن أستارها المظلمة، وأُجرِّب فَضَّ أختامها ومعرفة أسرارها.

في الـوقفـة الطلليـة ـ كما رأينـا ـ ضروب من التكـرار والتَّرْداد والتَّناظر والتَّماثُل في المعـاني والـتراكيب والصـور وأسلوب الأداء، بما يوحي بـ «موروث ثقافي» لهذا الفن، تتضـح من خلالـه ثقـافـة الأمة وتقاليدها الفنية، وتجربتها، وأساطيرها، وطقوسها، ومعتقـداتهـا، وأمثـالها، وحكاياتها، وهمومها، وتَطَلُّعاتها، أكثر مما تتَّضح ثَقَافة الفرد، وتجربته، وذوقه، ومعتقده، وأفكاره، ومشاعره.

والشعـراء يركِّبـون مواد شعـرهم من «الموروث الثقافي والحضاري» ومما استقر في وجـدانهم من الصُّـور، والـتراكيب، والمعـاني، والتعابير، والأحداث، والمواقف التي استقوها من روح الأمة، وتاريخها، وحضارتها، وثقافتها.

والـوقفـة الطلليـة أنمـوذج فني جماعي، يبرز فيهـا الـتراث والتقاليد والأساليب المتـوارثـة، وتعـبِّر عن طقـوس وشعـائر تصدر عن عقل الأمة وضميرها، لا عن حالة فردية خاصة، وتجربة ذاتية متفردة.

وأعتقـد أن «فكـرة المطـر» هي المحـور الأسـاسي الذي تدور حوله مجمل الأفكار والقضايا والتطلعات في الوقفة الطللية.

وأول ما يبكي الشاعر الجاهلي في الوقفة الطللية عُقْم الطبيعة، وانحباس المطر، ورحيـل المـرأة عن الطلل معـادل فني لرحيل الخصب والنماء والتكاثر والتناسل، أو هو «رحيـل المطـر» الـذي يخلق القحْـل والمحْـل، والجوب والجدْب، والتدمير والخراب؛ لذلك كانت «فكرة المطر» في الوقفة الطللية هي ما يشغل عقل الشاعر الجاهلي.

تَحَدَّث الشعراء الجاهليون عن المطر في صورتين متناقضتين:

(أ) صورة الـدَّمـار والهـلاك والخراب والانتقام، فالمطر ينسكب كأفواه القِرَب فيكوِّن سيـولاً عارمـة، تجرف الطلل وتغـرق ساكنيـه، وتمحـو الـديار وتخربها، وتزرع في

الأرض أشباح الموت.

(ب) وصورة الغوث والرحمة والحياة؛ فالأمطار الرقيقة تُنْبِت في الرمال الظَّمأى الكلأ والأزهار وتحوِّل وجه الأرض العابس الكئيب إلى وجه مشرق باسم، فإذا قطعان الوحش ترود الطَّلل آمنة مطمئنة، وإذا أطلاؤها تنهض من كل مَجْثَم وقد غمرها انتصار وفرح.

وقد وقف الشاعر الجاهلي على «سر المطر» وأدرك فاعليته في بناء الحياة ودمارها، وأظهر تناقض عنصر الماء في وقفته الطللية بوضوح لا لبس فيه، لذلك أرى أن «فكرة المطر» هي التي أهمَّت الشاعر الجاهلي في مطلع قصائده وأقلقته، وجعلته يقف أمام الطلل خاشعاً قلقاً مفكراً بقوى الطبيعة - خاصة المطر - التي لم يستطع تَذْليلها، والسيطرة عليها، فعانى لذلك، وبَكى، وتألَّم، وتحسّر، وتعذَّب، وندب أشواقه، ونعى حبَّه الضائع ووطنه المُدَمَّر.

وكثيراً ما نحس هواجس الجاهلي ورهبته من المطر العذاب في الوقفة الطللية:

يقول سحيم عبد بني الحسحاس(٥٨):

عفت من سُلَيمى ذات فِرْقٍ فأَوْدُها	وأَقفرَ منها بعد سلمى جديدُها
أَرَبَّت عليه كلُّ هوجاء معصفٍ	وأَسحَمَ دانٍ مُزْنُهُ يستعيدها
بني أَسدٍ سيروا جميعاً فقاتلوا	مَعَدًّا إذا اربَدَّتْ بِشَرٍّ جلودُها

تختلط صورة المطر الأسود بصورة الموت الذي ينتظر الأعداء، فكلاهما دمار أَربَّ بالمكان وسحق ما أمامه ومحقه.

ويقول حسان(٥٩):

---

(٥٨) سحيم عبد بني الحسحاس، (ت في خلافة عثمان)، الديوان، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، ١٩٦٨م، ص٤٩.

(٥٩) حسان بن ثابت، (... - ٥٤هـ)، الديوان، تحقيق: سيد حنفي، الهيئة المصرية العامة، =

أهــاجــكَ بالـبـيــداء رسـم المنــازل نَعَـمْ قد عفــاهــا كُلُّ أسـحم هاطــل
وجَــرَّت عليهــا الــرامســات ذيـولها فلم يَبْـقَ منهــا غيرُ أشـعــثَ ماثــل
ديــار الــتي راق الــفــؤاد دلالهــا وعَــزَّ علينــا أَنْ تجود بنــائــل

السحاب الأسود يُعَذِّب الديار ويقذفها بحمم المَوْت، ويكاد يَدُكُّها دكًا، ويُحَوِّلها قاعـاً صفصفـاً، وكـأنَّـما رحيـل المـرأة عن الديار قد تَسَبَّب بهذا الدَّمار أو رحيل «مطر الرحمة» هو سبب هذا العذاب.

إنَّ صورة المطر العـذاب من الصـور المُكَـرَّرة في الـوقفـات الطللية، وهو دائماً: أسحم، شديـد السـواد، وكَّـاف، هطـول، مُلِثّ، ذو أهـاضيب، راعـد، مكفهرّ، ثَجَّاج، زاخر، سكوب، هزيم، مُدْجن، مُنْهمر، قال امرؤ القيس(٦٠):

ديــارٌ لســلمــى عَافيــاتٌ بذي خَال أَلَـحَّ عليــهــا كلُّ أسـحَـمَ هطَّــالِ

وقال طرفة بن العبد(٦١):

وبــالـسَّفْـحِ آيــاتٌ كأنَّ رُسُـومَهَــا يمانٍ وَشَـتْـهُ رَيْـدَةٌ وسَـحُـولُ
أَرَبَّـتْ بها نأْجَـةٌ تزدهــي الحـصــا وأســحَـمُ وكَّــافُ العَـشـيِّ هَطُــولُ

وقال النابغة الذبياني(٦٢):

أهـاجَـكَ من سُعْـدَاك مَغْنى المَعَـاهـد بروضــة نُعْـمِـيٍّ فذات الأسَــاود
تَعــاورهــا الأرواحُ ينــسـفْـنَ تُرْبَهــا وكــلُّ مُلِثٍّ ذي أهــاضـيــب راعــد

وقال أيضاً(٦٣):

= ١٩٧٤م، ص١٦٥.
(٦٠) امرؤ القيس، الديوان، ص٢٧.
(٦١) طرفة بن العبد، الديوان، ص١١٧.
(٦٢) النابغة الذبياني، الديوان، ص١٣٧.
(٦٣) النابغة الذبياني، الديوان، ص١٤١.

أهاجَكَ من أَسماء رسمُ المَنازلِ بروضَةِ نُعْمِيٍّ فذات الأَجَاولِ
أَرَبَّتْ بها الأرواحُ حتى كأنَّما تَهادَيْنَ أَعلى تُرْبَها بالمناخِل
وكُلُّ مُلِثٌّ مُكْفَهِرٌّ سحابُهُ كميش التَّوالي مُرْثَعِنّ الأسَافِلِ
إذا رجفت فيه رَحاً مُرْجَحِنَّةٌ تَبَعَّق ثجَّاجٌ غزيرُ الحَوَافِلِ

وقال سحيم(٦٤):

عَفَتْ من سُلَيمى ذات فِرْقٍ فأُودُها وأَقْفَرَ منها بعد سلمى جديدُها
أَرَبَّتْ عليه كُلُّ هوجاءَ مُعْصِفٍ وأسحم دانٍ مُزْنُه يستعيدُها

وقال الأعشى(٦٥):

دارٌ لَها غَيَّرَ آياتها كُلُّ مُلِثٌّ صوبُهُ زَاخِرُ

وقال بشر بن أبي خازم الأسدي:

ـ تغيَّرت المنازلُ بالكثيب وعَفَّى آيها نَسْجُ الجَنُوب
منازلُ من سليمى مقفراتٌ عفاها كلُّ هَطَّالٍ سكوبُ(٦٦)
ـ عفاها كل هَطَّال هزيمٍ يشبِّهُ صوته صوتَ اليرَاع(٦٧)
ـ أَرَبَّ عى مغانيها مُلِثٌّ هزيمُ وَدْقُهُ حتى عَفاها(٦٨)

.. إلى غير ذلك من الصفات التي تفيد قدرته على الشمول والتَّمكُّن والسَّطْوة؛ لذلك رأى زهير بن أبي سلمى أَن «عنصر المطر» أقوى من «عنصر الزمن»،

---

(٦٤) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص٤٩.
(٦٥) الأعشى، الديوان، ص١٧٥.
(٦٦) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص٢٠.
(٦٧) المصدر نفسه، ص١٠٩.
(٦٨) المصدر نفسه، ص٢٢٠.

فالمطر يعفو الطلل عندما عجز الدهر عن ذلك، قال[69]:

قف بالدِّيار التي لم يَعْفُها القِدَمُ   بَلَى وغيَّرها الأرواح والدِّيَم

ويتحوَّل الطَّلل مسرحاً للحُزْن بطله الدهر، ومسرحاً للحياة بطله المطر، فالصحراء التي تكاد تموت عطشاً بفعل الدهر الكنود يدركُها الغَيْثُ ويُنْجِدها ويسقيها من الماء العذب، ويَعُود الطَّلل مرتعاً للحياة، وملهىً للناظرين.

قال عنترة[70]:

نسجتْ يدُ الأيَّام من أكْفَانها   حُللاً وألْقَت بينهنَّ عُقُودها

وكسا الربيع رُبُوعها أنْوَاره   لمَّا سَقَتْها الغاديات عُهُودها

وسرى بها نَشْرُ النسيم فعطَّرت   نفحاتُ أَرواح الشَّمال صَعيدُها

وعندما تقفر الديار يبقى «النُّؤْي» مَعْلَماً بارزاً يشير إلى القوة المؤثِّرة في دمار الطَّلل، أو يشير إلى الجُهْد الإنساني العاجز عن وَقْف تدمير الطبيعة العاتية، فلا النُّؤْي المحفور حول الخيمة منع السيل، ولا احتراز الجاهلي وتدبيره أوقف الموت المُدَمِّر.

قال عبيد بن الأبرص[71]:

أمن رسومٍ نُؤْيُها ناحلُ   ومن ديارٍ دَمْعُك الهاملُ

قد جَرَّت الريحُ به ذيلها   عاماً، وجَوْنٌ مُسْبِل هاطلُ

حتى عفاها صيِّتٌ رعدُهُ   داني النواحي مُسْبل وابلُ

---

(٦٩) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص١٤٥.

(٧٠) عنترة بن شداد العبسي، (... ، ٦١٤م)، الديوان، تحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٧٠م، ص٦١.

(٧١) عبيد بن الأبرص، (... ـ ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق، حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٩٧ ـ ٩٨.

ظَلْتُ بها كأنَّني شاربُ صَهْبَاء مما عتَّقَت بابلُ

وقال أيضاً[٧٢]:

لمن الدِّيارُ أَقْفرتْ بالجَنَاب غير نُؤْي ودمنةٍ كالكتاب

غيرَّتْها الصَّبا ونَفْحُ جنوبٍ وشمالٍ تذرو دِقاق التُّراب

فتراوَحْنَها وكُلُّ مُلِثٍّ دائم الرَّعْدَ مُرْجَحِنّ السَّحاب

ويأْتي بعد الدمار والموت الحياة والبعث، فتتفتح الحياة بالعشب والنَّوْر والزَّهر إِثْر القوم المهاجرين، ويتحوّل مسرح الأطلال إلى مرتع ترِوده الوحوش وتتجول في قيعانه قطعان الظِّباء، والآرام وجماعات النَّعام، وأَسراب الثيران الوحشية والبقر الوحشي، وتعود الحياة إلى صَخَبها وضجيجها وحَيَويَّتها، وتتناسل الحيوانات وتعيش حياةً أُسرية هادئة آمنة، أَشبه ما تكون بحياة البشر، وتعود أَخطار الطبيعة تواجه الساكنين الجدد؛ فالوحوش الضارية تتربَّص وتُحَوِّل الأمن إلى ساحات قتال ودماء، والطبيعة تقذف بريحها الصَّرْصَر، ومطرها الهطَّال فتضيق الوحوش وتقلق، ثم تنطلق تبحث عن الأمن والهدور والسَّلام.

وتلحُّ فكرة المطر على ذهن الشاعر الجاهلي، من حيث هو هزَّة كونيَّة كبرى، وقوة فاعلة قادرة على الخلق، وقادرة على التغيير، ومن حيث قهره لسطوة القدر وعُرَام الزَّمان، ومن حيث قدرته على بعث الحياة في الجماد، وإنعاشه للإنسان والطير والحيوان، وقد ضرب «القرآن الكريم» مثلاً للحياة الفانية ومتعها الزائفة بالماء أَو المطر الذي يُنْبِتُ نباتاً طيباً، سرعان ما يتحول إلى هشيم تذروه الرياح، وإلى موت وحطام[٧٣].

ومن هنا كان المطر في الحسِّ اللُّغوي العربي يعني: الغيث والحَيَا والرحمة، ويعني

---

(٧٢) المصدر نفسه، ص٢١.

(٧٣) سورة الكهف: ١٤٥.

أيضـاً: حوض منـايـا، وكـؤوس موت، وسحائب عذاب، وشريعة فناء[74]، لذلك جاءت فكـرة المطـر في الـوقفة الطللية تعبيراً رمزيًّا عن إرادة «السَّلام»، من أجل المطر سهر الإنسان القديم مُؤَرَّقاً يراقب النجوم والأنواء، وبسبب الماء عرفوا نظام «الحِمَى» وعرفوا «النَّجْعَة» وعاشوا حروباً طاحنة ورحيلاً أبديًّا وحرماناً دائماً. وبسبب المطر بكوا وتَذَلَّلوا، وأحسُّوا الغُربة، وفكروا في الوجود والمصير، والحياة المُهَدَّدة بالجدب والمَحْل.

والإرادة «غـير الـواعيـة» جعلتهم يبكون الأطلال والظعن الراحلة بدموع غزيرة شبهوها بماء «السَّانية» التي تمطو الرِّشَاء وتجري ذاهبةً آيبةً تَنْضَحُ الماء في دلاء ضخمة، وتحيله إلى جدول متدفِّق لا ينقطع ماؤه. قال زهير بن أبي سلمى[75]:

كأَنَّ عَيْـنَيَّ في غَرْبـي مقـتَّـلَةٍ	من النَّـواضـح، تسقي جَنَّـةً، سُحُقـا
تمطـو الـرِّشـاءَ، وتجري في ثِنـايَتِهـا	من المـحـالـة ثَقْبـاً رائـداً قَلِقـا
لها أَداةٌ وأَعـوانٌ، غدونَ لها	قِتْبٌ وغَـرْبٌ إذا ما أُفـرِغ انـسَحَقـا
وخَـلْفَـهـا سائـقٌ، يحدو، إذا خَشِيَتْ	منـه الـعـذابَ تمدُّ الـصُّلْبَ والعُنُقـا
وقـابِـلٌ يتـغـنَّـى كلَّما قَدَرَتْ	على الـعـراقـي يداه قائـماً دفـقـا

---

(٧٤) انظر قول عمرو بن معد يكري، (. . . ـ ٢١هـ/ ٦٤٣م): (وطاب الموت من شرع وورد)، حماسة البحتري، ص٤٧. وقول الخنساء بنت الشريد، (. . . ـ ٢٤هـ): (وحوض الموت مورود)، أنيس الجلساء، ص٢١. وقول عنترة بن شداد، (. . . ـ ٦١٤م): «إن المنية منهل»، مصطفى السقا، مختار الشعر الجاهلي، جزءان، القاهرة، ١٩٤٨م، ص١٦١. وقول النابغة: (فهم يتساقون المنية)، المصدر السابق، ص١٦١.

(٧٥) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص٤١ ـ ٤٤.
الغربان: الدلوان الضخمان. المُقَتَّلة: المُذَلَّلة. الجنة: بستان النخل. تمطو: تمدّ. الرشاء: حبل من أدم. في ثنايتها: مع عطفها. انسحق: انصب. القابل: الذي يقبل الدلو. العراقي: الخشبتان كالصليب على الدلو. النُطُق: الطرائق. الشربات: حياض تحفر في أصول النخل. طحل: مخضّر كدر.

يُحيــلُ في جدولٍ تحبــو ضفــادعُــهُ حَبْــوَ الجــواري ترى في مائــه نُطُـقــا
يَخْرُجْـنَ من شَرَبــاتٍ ماؤُهــا طَحِــلٌ على الجُــذُوع يَخَفْـنَ الـغَمَّ والغَــرَقــا

ويتكرر هذا المنظر عند امرىء القيس[٧٦]، وعلقمة بن عبدة[٧٧]، وبشر بن أبي خازم[٧٨]، ولبيد بن ربيعة[٧٩].

فالشعـراء يبكـون المطر أو الماء ويشير ون إلى المجاعة التي حلَّت بالقوم الراحلين وتركت ديارهم أطلالاً مهدَّمةً، ويحسون أنَّ مشكلة الجَدْب والمَحْل لا يحلُّها دمعٌ يجري على المَحْمَـل، وإنَّما يحلُّها الجُهْد الإنساني والعمل الدؤ وب في البحث عن الماء، وفي استنباطه من بطن الأرض، حيث الزراعة المنظمة، وحياة الاستقرار والأمن، والحب والسلام.

وتلحُّ «فكـرة الطلل» أيضـاً في ذهن الشعـراء الجـاهليين عندما يَتَذَكَّرون صاحبة الطلل، فيبنـون علاقـةً ما بين الثَّغْـر اللذيذ، والمطر العَذْب، ويعبرٍّ ون عن حاجتهم إلى المطـر وشـوقهم إلى استقبـالـه، ويكادون ينسَون صاحبة الطَّلل، وهـم يستقبلون المطـر في خيـالهم وقـد غمرتهم الفرحة والرضا والسعادة، فتتحول الصحراء الجرداء في قلوبهم جنـاتٍ مخضبـة، وغـدرانـاً رائعـة فَيَنْعَم سكـان البادية برحمة السماء، وتتوقف الرحلات الأبدية وهجرات المجاعة:

قال عنترة بن شداد[٨٠]:

---

(٧٦) امرؤ القيس بن حجر، الديوان، ص٣٤٥.

(٧٧) علقمة الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م، ص٥٣ ـ ٥٦.

(٧٨) بشر بن أبي خازم، الديوان، ص١٣، ص٤٩.

(٧٩) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص٧٤ و ١٢١.

(٨٠) عنترة بن شداد العبسي، الديوان، ص١٤٥.

الفأرة: وعـاء المسـك. التـاجـر: العطـار. القسيمـة: الجـونـة أو العـير التي تحمـل المسك.

وكــأنَّ فأْرةَ تاجــرٍ بقــســيــمــةٍ سبقــت عوراضُــهــا إليــك من الفَمِ
أو روضــةً أُنــفــاً تضــمَّــنَ نبتَــهــا غَيْــثٌ قليــل الــدِّمْــن ليس بمَــعْــلَمِ
جادت عليــهــا كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فتَرَكْــنَ كلَّ قرارةٍ كالــدِّرْهَــم
سَحًّــا وتــســكــابــاً فكــلُّ عشيَّــةٍ يجري عليــهــا المــاءُ لم يتــصــرَّمِ
وخــلا الــذبــاب بها فليس ببــارحٍ غَرِداً كفــعــل الــشَّــارب المــترنِّــمِ
هَزِجــاً يحكُّ ذراعــه بذراعــه قَدْحَ المُكِبِّ على الــزِّنــاد الأجْــذَمِ

وقال الحادرة، قطبة بن محصن[٨١]:

بَكَــرَتْ سُمــيَّــةُ بُكْــرَةً فتــمــتَّــعِ وغَــدَتْ غُدُوَّ مُفــارِقٍ لم يربــعِ
وتــزوَّدت عَيْــني غداةَ لَقِــيــتُــهــا بلوى الــبُــنَــيْــنَــةِ نظــرةً لم تُقْــلِعِ
وتــصــدَّفَتْ حتى اسْتَبَتْــكَ بواضــحٍ صَلْتٍ كمُــنْــتَــصِــب الــغَــزَال الأتْــلَعِ
وبــمُــقْــلَتي حوراءَ تَحْسِبُ طَرْفَــهــا وَسْــنــانَ، حُرَّةِ مُسْتَهــلٍّ الأدْمُــعِ
وإذا تُنــازِعُــكَ الحــديــثَ رأيْــتَــهــا حَسَنــاً تبسُّــمُــهــا لذيــذَ المَكْــرَعِ
بغــريضِ ساريــةٍ أدرَّتْــهُ الــصَّــبَــا من ماءِ أَسْجَــرَ طيِّب المُسْتَنْــقَــعِ
ظَلَمَ الــبطــاحَ له انْهــلالُ حَريــصــةٍ فَصَــفــا الــنِّطــاف له بُعَيْــدَ المــقلع
لعِــبَ الــسُّــيــول به فأصبــحَ ماؤُه غَلَلاً تَقَطَّــعَ في أُصُــول الخِــرْوَعِ

العــوارض: منابت الأسنــان. الأنف: أول كل شيء. الثرَّة: الكثيرة. الحرة: البيضاء الخالصة. لم يصرَّم: لم ينقطع ولم ينفذ. الأجذم: المقطوع اليدين.

(٨١) الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن الغطفاني، الديوان، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ص٤٣ - ٥٠.

تصدَّفت: أعرضت وانحرفت. استبتك: جعلتك سبياً لها. الواضح: عنقها الناصع. الصَّلْت: المشرق الجميل. الأتلع: الطويل العنق. وسنان: به سِنَةٌ وهي النُعاس. المستهل: مجرى الدمع. الغريض: الطري. السارية: السحابة التي تسري بالليل. أَدَرَّتْهُ: استخرجته كما يستخرج الحالب اللَّبن. الأسجر: الذي لم يَصْفُ. الحريصة: التي تقشر وجه الأرض. النِّطاف: المياه. الغلل: الماء يجري في أصول شجر.

وعندما يتتبع الشعراء رحلة الظعائن التي ولدت من الطلل يهيء لها الشعراء مستقرًّا أميناً، ومكاناً عزيزاً لدى الجاهليين، أو مقدساً عند كثير منهم: منابع الماء.

قال زهير[٨٢]:

ثم استمرُّوا وقالوا: إنَّ مَوْعدكُم ماء بشَرْقِيِّ سَلْمَى فَيْد أوركَكُ

وقال أيضاً[٨٣]:

فلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقاً جمامه وضَعْنَ عصيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وعند الماء يبنون خيامهم يحتمون بها من الهجير اللاَّفح والسموم العقيمة، فيتحوَّل بؤسهم نعيماً، وعطشهم ريًّا، ومجاعتهم خصباً، ويتردد في الشعر الجاهلي الحديث عن موارد الماء التي انتهت إليها الرحلة، وكأنَّها الحقيقة المنشودة بعد التِّيه والضَّلال.

قال الطفيل الغنوي[٨٤]:

فباكَرْنَ جُوناً للعلاجيم فَوْقَه مَجَالسُ غَرْقَى لا يُحَلأُ ناهِلُه

إذا ما أَتَتْهُ الريحُ من شَطْرِ جانِبٍ إلى جانب حاز التُّرابَ مَجَاوِلُه

وقد نرى الإبل تبحث عن الماء في رحلة الشَّقاء؛ فهي لذلك تَشِمُّ البَرْقَ لتتعرَّف على مسقط الغيث. قال خفاف بن ندبة[٨٥]:

فيَمَّمْنَ اليَمامة مُعْرِقَاتٍ وشِمْنَ بروضِ عَالجةَ الغَماما

والكل يشارك في استقبال المطر، وتلقي رحمة السماء، لذلك يشم البرق

---

(٨٢) زهير بن أبي سلمة، الديوان ص١٦٤.

(٨٣) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص٩.

(٨٤) الطفيل الغنوي، الديوان، ص٨٢.

(٨٥) خفاف بن ندبة السلمي، شعره، تحقيق وجمع: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص٩٥.

السُّكارى الثَّملون، والمحبُّون المتيَّمون.

قال امرؤ القيس[86]:

نَشِيمُ بروقَ المُزْن أين مُصابُهُ ولا شيء يَشْفي منك يا ابْنَةَ عَفْزَرا

وقال الأعشى[87]:

فقلتُ للشَّرْبِ في «دَرْنَى» وقد ثملوا شِيْمُوا، وكيف يشيمُ الشاربُ الثَّمِلُ

وقال الطفيل الغنوي[88]:

فقلتُ لحَرَّاضٍ وقد كدتُ أُزْدَهي من الشَّوق في إِثْرِ الخليط المُتَمِّمِ
ألم تَرَ ما أبصرتُ أم كنتَ ساهياً فَتَشْجى بشَجْو المستهام المتيَّمِ
فقال: ألا لا لَمْ تَرَ اليوم شَبْحَةً وما شِمْتَ إلاّ لَمْحَ برقٍ مُغَيِّمِ

فالمطر هو المشكلة في الوقفة الطللية، هو الذي أُنطق الجاهليين بأعذب الشعر؛ من أجله بكوا وتعذَّبوا وقلقوا، وبسببه مات الطَّلل وغرقت الديار وعَفَتْ، وبفاعليَّته انبثقت الصحراء بخيرها، وتضوَّعت الأزهار والمراعي بعِطْرِها، وتزاحمت الحيوانات فَرِحَة جَذِلَةً آمنةً، وبحثاً عن الماء والمرعى هاجرت القبائل، وتقطعت الصِّلات، وتمزَّق الحب، وقُتِلت العواطف، وازداد الإحساس بالحرمان والغربة.

الماء هو الحياة، وعند الماء دارت رحى حرب ضروس، فترك الضعيف وطنه نَهْباً للغالب، وانطلق في حضن الصحراء العاري يبحث عن مَشْرَع آخر للحياة، وعن وطن يعمُّه السَّلام.

---

(86) امرؤ القيس، الديوان، ص68.

(87) الأعشى الكبير، (. . . ـ 624م)، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، 1950م، ص93.

(88) الطفيل الغنوي، الديوان، ص73.



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

قصة ثور الوحش ودلالاتها الرمزية في الشعر الجاهلي



هنـاك ظاهـرة عامـة تشيـع في الشعر الجاهلي وتسمه بميسم خاص متميز، وهي ظاهـرة التشبيـه المستطـرد، المسـرف في الاستطـراد، وهـذه الظـاهرة جديرة بالتفكير والتحليل، وتوشك أن تكون أكثر هذه الاستطرادات في موضوع واحد، وهو الحديث عن مشاهد الصيد، ووصف حيوانات الصحراء الوحشية.

وينفـرد الثـور الـوحشي باهتـمام خاص، ويقصـون حكـايتـه، فيصفون وحدته وانفـراده عن قطيـع الـوحش في رملة نديـة أو في روضـة معشبة أو في بُرْقة جرداء مختالاً بقوته، معتزًّا بعنفوانه، هانئاً بوحدته. ثم يصفون لونه وقوائمه وأعضاءه وقرنيه وعينيه وجلده وأنفه، وغالباً ما يكون أبيض اللون كالثوب اليماني أو كالكوكب الدُّرِّي، كأنَّما كُسي خرزاً قشيبـاً مجلوًّا؛ لكن طيب العيش لا يدوم، فأغبـاش الـدجى تتكـاثف، وأمواج الليل البهيم تكاد تذهب بناظريه، والرعد المزمجر يكاد يصمه ويحرقه، وقطرات الندى والمطر تبدأ بالانثيال على متنه كالدر المنثور.

وتتحـول الطبيعـة إلى العنف، فيـزداد هبـوب الريح الباردة، والبرد الحاصب، والمطـر المنصب، وينـدفـع الثـور إلى الاحتماء بأكناف شجرة وحيدة، وغالباً ما تكون شجـرة الأرطي المـلاذ الـوحيـد له، يحتفـر تحتها كناساً بأظلافه الصلبة، ويبقى ساكناً صامتاً خاشعاً، يراقب البرق والرعد، ينتظر الشمس كراهب مُتَهَجِّدٍ في صومعته، أو كحَبْرٍ متعبِّـد في كنيسـة، لكن العاصفة تهيل ما بناه من التراب، وتكاد الأرض تميد من أسفـل منـه، ويكـاد السيـل يغـرقه، وتزداد برودة الليل ووحشته، وتأخذ قطرات النـدى المتجمـد تتسـاقـط على ظهـره كحبات اللؤلؤ، فيقضي ليله مؤرَّقاً مسهَّداً، وتـزداد حالـه سوءاً، وتبدأ الهموم تداهمه، والهواجس تخيفه، لا يغمض له جفن، ولا تسكن له جارحة.

ويأخذ الثور بالابتهال والتوسل، فينقطع السيل، وتنكشف الظلمة، ويأتي الفرج. وما إنْ يصدع الدُّجى شفق الفجر الأحمر، ويعكس على ظهره لوناً أشقرَ كأنَّه قنديل مسجور، وتتبدد أستار الظلمة حتى يظهر الصياد العبوس الأغبر يشلي كلابه الضامرة المدرَّبة، فينفتل الثور هرباً ضنًّا بحياته، وما إنْ يشعر الثور باقتراب الخطر من كراعيه حتى ينعطف على الكلاب طعناً ومشقاً في نحورها وجواشنها، فتتساقط صرعى، ويخرج الثور من المعركة ظافراً يهتزُّ مرحاً ونشاطاً، مغتبطاً بسلامته وانتصاره.

ويلتفت الشعراء إلى أحوال الثور النفسية، فيصفون تردده، وخوفه وهلعه، وجرأته، وتوتره، وغضبه، وضيقه، وصبره، وجزعه، وقلقه، وسهاده، ثم إقدامه، وإرادته، وعزمه، وسروره، وإشراق وجهه، وفوزه، وحبوره.

هذه هي الخطوط العريضة في قصة ثور الوحش الذي يشبه به الشعراء نوقهم، اختصرها بعضهم، وفصل فيها الكثير منهم، لكن خطوط القصة الكبرى تبقى ثابتة على الرغم من الاختلاف في الجزئيات والتفصيلات. ويمكن أن نمثل هذه القصة بقصيدتين مختارتين: الأولى لزهير بن أبي سلمى، يقول فيها(١):

كأنَّ كُوري وأنْسَاعي وميثرتي ... كسوتهنَّ مُشِبًّا ناشطاً لَهِقا

رعى بغيثٍ لأوراكٍ فناصفةٍ ... من الشتاء فلمَّا شَأْوه نَفِقا

وقد يكون بها حيناً تَعَزُّبُهُ ... وقد تَطَرَّفَ من حافاتها أُنِقا

عِشْراً وخِمْساً فقد طابت مراتعُهُ ... من الربيع ولم يَبْدُنْ وقد زَهَقا

فسار منها على شَيْمٍ يؤمُّ بها ... جنبَيْ عَمايةَ فالرَّكاء فالعُمَقا

فأدركته سماءٌ بينها خَلَلٌ ... تُرْوي الثرى وتُسيلُ الصَّفْصَفَ القَرِقا

فبات معتصماً من قرِّها لَثِقاً ... رشَّ السحابُ عليه الماء فاطَّرَقا

---

(١) زهير بن أبي سلمى، الديوان، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٤م، ص٤٢ وما بعدها.

يُمْـري بأظـلافـه حتـى إذا بلغـت يُبْسَ الكثيب تداعى الـتُّرْبُ فانخَرَقـا
مُوَلِّي الـريـح روقيـه وجـبـهـتـه حتـى دنـا مِرزَمُ الجَـوْزاء أو خَفَـقـا
ليـلتـه كلهـا حتـى إذا حَسَـرَتْ عنـه النجـومُ أضـاء الصبحُ فانطلقـا
فصـبَّـحَـتْـهُ كلابٌ شدُّهـا خَطِـفٌ وقـانصٌ لا ترى في فِعْـلِه خُرُقـا
زُرْقُ الـعيـون طواهـا حسنُ صنعتـه مجوَّعـات كما تطـوى بها الخِـرَقا
حتـى إذا ظنَّ قرنَ الـشـمس غالـبـةً وخـاف من جانبيـه النَّهْـزَ والـرَّهَقـا
كَرَّ فَفَـرَّجَ أُولاهـا بنـافـذةٍ نجـلاء تُتْبِـعُ رَوْقَيـه دمـاً دفقـا[٢]

والثانية للبيد بن ربيعة العامري، يقول فيها[٣]:

كأَخـنسَ ناشـطٍ جادت عليـه ببرقـة واحـفٍ إحـدى الـليـالي
أَضَـلَّ صُوَارهُ وتَـضَـيَّـفَـتْـهُ نَطُـوفٌ أمـرُهـا بيـد الـشَّـمال
فبـات كأنَّـه قاضـي نُذُورٍ يلوذُ بغَـرْقَـدٍ خَضِـلٍ وضَـالِ
إذا وَكَـفَ الـغـصـونُ على قراه أَدار الـروق حالاً بَعْـدَ حال
جنـوحَ الهـالـكـيّ على يديـه مُكِـبًّـا يجتـلي نُقَـبَ الـنِّـصـال
فبـاكـره مع الإشـراق غُضْـفٌ ضواريهـا تخب مع الـرِّجـال
فجـال، ولم يجُلْ جبـنـاً، ولـكـن تَعَـرُّضَ ذي الحـفـيظـة للقـتـال

---

(٢) الكور: الرحل. الأنساع: ما يشد به الرحل. الميثرة: ما يلين به الرحل. المشب: الثور الشاب أو المسن. اللهق: الأبيض. أوراك ونـاصفـة: من بلاد بني تميم. نفق: نفـد. شأوه: تطلبه ومـداه. تعـزبه: تباعده. تطرف: أكل من أطراف النبت. أنقاً: معجباً. العشر والخمس: من الأظماء. يبـدن: يضخم. زهق: سمن. على شيم: منظـر قد شامـه وقصده. عماية والركاء والعمق: أسماء مواضع. الصفصف: المستوى من الأرض. القرق: الأملس. القر: البرد. أطـرق: ركب بعض شعـره بعضـاً. خطف: سريـع. الخرق: العجلة والعجرفـة. شدهـا: عدوها. يمري: يستخرج كما يستدر الحالب لبن الناقة. تداعى: تساقط بعضه في إثر بعض.

(٣) لبيـد بن ربيعـة، الـديـوان، تحقيق: د. إحسـان عبـاس، وزارة الإرشـاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢م، ص٧٦ وما بعدها.

فغـادر ملحـماً وعَـدَلْـنَ عنـه   وقـد خضـب الفـرائص من طحـال
يشُـكُّ صفـاحـهـا بالـرَّوْق شَزْراً   كما خرج الـسِّـراد من الـنّـقـال
ووَلَّـى تَحْسِـرُ الـغـمـراتُ عنـه   كما مرَّ المُـرَاهـن ذو الحـلال
وولّـى عامـداً لطـيَّـات فلج   يُراوحُ بين صَوْنٍ وآبـتـذال
تشـقُّ خمائـل الـدهـنـا يداه   كما لعـب المُـقَـامـر بالـفِـيَـالِ
وأَصْـبَـحَ يَقْـتَـري الحَـوْمـان فَرْداً   كَنَـصْـلِ السَّيْف حُودث بالصِّقـال(٤)

فاللَّهق في «قصيـدة زهـير» هو الأبيض في موضـع الكَـرَم لنقـاء عِرْضه ممَّا يُدَنِّسه (اللسـان: مادة لهق)، وهي صفـة معنـويَّـة أكثر منها صفة حسيَّة، يَشِمُ الثور الطَّاهر البرق بعد تَعَزُّب طويل في روضة نديَّة، يبحث عن المطر ويَطْلبه، ويصدق حَدْسه، فالمطـر ينصبُّ على متنـه، وهـو يستقبـل المطـر راضيـاً بقرونه وجبهته، يتأذَّى منه وهو راغب فيـه، ينتظـر الشمس بفـارغ الصَّـبر، فيضيء الصبـح ويـدخل فيه محبوراً. . فتنطلق خلفـه كلاب الصـائد المجوَّعة، وقبل أن تأفل الشمس يكرُّ عليها طعناً ومَشْقاً في صدورها وجَوَاشنها، ويتركها صرعى.

أمـا «لبيـد» فيجعل ثوره يستقبل المطر دون مقدِّمات، فيسكن تحت شجرة يتبتَّل منفرداً يطلب الشَّمْس، والبرق يلمع على ظهره ومن أسفل منه شرراً، وكأنَّه صيقلٌ يجتـلي سيفـاً، وتعـود الكـلاب مرةً أخرى في قصة الثور تدفعـه من الظلمة إلى النور،

---

(٤) الأخنس: الثور القصير أرنبة الأنف. واحف: مكان. تضيفته: نزلت به سحابة تنطف بالماء. الغـرقـد: شجـر. الضال: سدر البر. وكف: قطر. القرا: الظهر. الروق: القرن. الهالكي: الصيقل. النقب: الصدأ واللون. الغضف: الكلاب المسترخية الآذان. ضواريها: صوائدها. جال: فر. الحفيظـة: الغضب. ملحم: كلب يطعم اللحم. الفـريصـة: بضعـة في مرجـع الكتف. طحـال: اسم كلب. يشـك: يطعن. صفـاحهـا: جنوبهـا. السِّـراد: السير الذي يخصف به. والمسـرد: المثقب أو المخـرز. النقال: الرقاع. الغمرات: كربات القتال. المراهن: الفـرس الـذي عليـه الـرهـان. الفيـال: لعبـة معـروفة يخبأ فيها شيء بالتراب ليعرف مكانه. يقتري: يتتبع. الحومان: الأماكن الغلاظ. حودث: جلي مرة تلو أخرى.

وتلجئه إلى سفك الدم، فينتصر في المعركة ويخرج إلى الآكام يلمع على قِنانها كما يلمع السيف الصقيل.

فالثور في كلا القصيدتين لا نراه في قطيع الوحش وإنّما هو متوحِّد منفرد، فيه صفة البياض والنقاء، يلازمه المطر: يغسله، ويطهِّره، وتلازمه الشجرة التي يلوذ في كنفها صامتاً هادئاً متبتِّلاً، والكلاب هي التي تطلبه ـ عِلْماً بأن العرب صادوا الثيران بالفهود المدرَّبة، وبالقِسِي، وبالمُخاتلة، وغيرها من أدوات الصَّيْد ـ والثور في كلا القصيدتين يطلب الشمس وينتظرها بشوق ولهفة.. ويمكن بوضوح أَنْ نلحظ النار التي يشعلها «لبيد» على مَتْن الثور أو بين قوائمه، والتي أرادها صفة له وهو ينطلق جذلاً بانتصاره.

وهناك قصائد كثيرة تُعْنى بوصف ثور الوحش، فَصَّل فيها بعضهم وأطال، واجتزأها بعضهم واختصر، لكنهم جميعاً مَعْنِيُّون بقصة ثور الوحش، وهي ليست قصة ساذجة بلهاء لا مغزى لها، إنما تحمل ثقلاً وجدانيًّا وعاطفيًّا ودينيًّا عظيماً، فيها شوق وعذاب، ورغبة ورهبة منذ أن كان الإنسان القديم يُبَجِّل الثور ويقدِّسه، وقد بقيت أصداء من مشاعر التقدير والتعظيم في الشعر الجاهلي، ولا شك أن الشعر الجاهلي قد ضاع منه التراث الديني الجاهلي كله تقريباً لتقادم عهده وبعد أمده، ولأن الرواة ضربوا عنه صَفْحاً وأهملوه، ولم يبق منه إلا إشارات ضئيلة تومىء إلى الديانات القديمة إيماء، وترمز إليها رمزاً، لم يستطع تفسيرها علماء البلاغة في العهود الإسلامية اللاحقة، وظنوها أساليب فنية، فقالوا بـ «التخلص» و «الاستطراد» فالشاعر الجاهلي في ظنهم ينتقل من موضوع وفاه حقه إلى موضوع آخر بأداة تخلص، ثم يستطرد إلى وصف مظاهر الصحراء المختلفة التي شغف بها وسجلها تسجيلاً دقيقاً في شعره.

وقد تحولت قصة ثور الوحش إلى تقليد فني بعد أن كانت ذات مغزى ديني، انقرضت طقوسها وشعائرها، ولم يبق منه سوى أشكال فنية محددة تنافس في إبرازها شعراء الجاهلية.

وهذا الشكل الفني في الشعر الجاهلي لم يكن نابعاً من الوعي الفردي لشاعر

جاهلي واحد أو أكثر، وإنما هو تعبير عن إحساس جَمْعي عام، وإيمان عقائدي متّحد في ضمير الأمة.

وليس وصف الثور هامشيًّا أو عارضاً في الشعر الجاهلي فنقول إنَّ الشعراء يشبهون نوقهم به لصلابته وقوته، وإنما جاء وصف الثور أساسيًّا في كثير من قصائد الشعر الجاهلي ونحس أن بعض الشعراء لا يريد من قصيدته غير وصف الثور دون سائر أغراض القصيدة. ويحوي وصف ثور الوحش كثيراً من الرموز والإيحاءات والإشارات التي تحتاج إلى التأمل وإعادة التفكير في هذه القصة ـ التي تبدو ساذجة بسيطة ـ قصة ثور الوحش في الشعر الجاهلي.

ويمكن أن نلحظ في وصف ثور الوحش ملامح أساسية، هي:

(أ) التَّفرُّد المطلق، والتوحُّد، والعُزْلة، فالثور دائماً منفرد كراهب منقطع للعبادة في صومعته، يقضي ليله متأملاً متفكراً خاشعاً، في سُمُوٍّ وطُهر وترفُّع، وأحياناً نلحظ توتُّره وأرقه وتحفُّزه وتوجُّسه، والثور لا يمكن أن يعيش إلا في قطيع من البقر، لكن الشعراء جميعاً أرادوا له التوحد والتفرد.

(ب) يحفر الثور دائماً كناساً متواضعاً هو بمثابة الصومعة، ينزوي فيه الثور متبتلاً مصلياً متأملاً مترقباً، ويختار الشعراء له صفة القديس المتهجِّد أو الحَبْر المتعبِّد.

(جـ) نزول المطر يبدو أحياناً نتيجة لتوسلات الثور وتضرُّعه وترقُّبه وصلواته، وعلى الرغم من احتماء الثور بالأرطى، فإن المطر يغمره غمراً ويغسله غسلاً وكأنما يريد له الطُّهر والنقاء والصفاء.

(د) الثور دائماً يُفَضِّل الأمْن والسلم، ولا يطلب العنف والقتال، ولا يؤذي الكلاب إلا دفاعاً عن النفس.

(هـ) غالباً ما يأتي وصف الثور بعد الحديث عن هجرة القبائل التي تعرضت للمجاعة والجفاف والقحط؛ لأن الحديث عن الأطلال الدارسة والظعائن المرتحلة إعادة

لذكريات المجاعة والجفاف التي ألجأت قبيلة المحبوبة إلى هجر الوطن بحثاً عن الماء والمرعى، والشعراء يرحلون بحثاً عن المرأة أو الحب الضائع، وبحثاً عن الاستقرار أو بحثاً عن الماء المفقود، ويجسدون رغبتهم في الماء والمطر بقصة ثور الوحش.

(و) في الليلة الليلاء المطيرة يلوذ الثور بشجرة الأرطاة يطلب عندها الوقاية والحماية وكأنها يلفتنا ألى نتاج ذلك المطر المنصب.

(ز) يبرز الثور - بعد وصف الناقة - بصورة القوَّة المكتملة، والعظمة القاهرة، والإرادة الخالقة، والجبروت المتحكِّم، أمَّا في المراثي فيبطش الموت بالثور؛ لأن مجتمع الآلهة في المعتقد القديم فيه بعض صفات مجتمع البشرية: التعب والألم والضعف، ويخضع لسَطوة الدَّهر وبطش الموت.

(ح) يقرن الشعراء صورة الثور بصورة النجم الثاقب والشهاب المنقضّ، والشِّعْرى الواضحة، والبرق الخاطف، والسيف الصقيل، وعندما يلمع البرق في أنحائه، يبدو الثور كأنه مصطلٍ ناراً فيظهر شخصه مُصْفَرًّا من أشعتها. . وهذه الصور جميعاً لها علاقة ما بإشعال النار.

(ط) يقابل الشعراء في وصف الثور بين صورتين متناقضتين: إرادة الحياة، وإرادة الموت؛ فالثور يريد الحياة، والكلاب تريد له الموت.

وصورة الظلمة والنور، فالثور يريد النور وينفي العتمة؛ لأن الظلمة تثير الفزع والهلع والتترُّ والأرق، أما النور فيكشف عن الأمور ويوضِّحُها، لكن النور يستثير الفزع المستتر في أعماق الظلمة. ويصحب الظلمة شدة ومعاناة، بينما تأتي الشمس بالأمل ودفء الحياة، والفرج المنتظر.

وصور ثور الوحش هذه يمكن أن ترتد إلى ذلك التراث الديني الجاهلي الذي انطمست معالمه، وانمحت آثاره، وكأنها الأطلال الدارسة التي أغرموا بوصفها.

ويمكن أن نطالع صورة ثور الوحش في المعتقدات القديمة في إطار من القدسية

والتبجيل:

فهو «إلـه» يرمز إلى القوة والخصب، وهو إله العواصف، عبده «السومريون»، وسموه «انليل»، وعبدوا البقرة إلهة معه[٥].

وكان الثور عند «الحثيين» - في آسيا الصغرى - إله المطر والبرق والعواصف الرعدية، وهو إله عنيف، صعب المراس، يهيج دونما إنذار، وهو قوي ومخصب وعنيف، يرمز للقوة التناسلية[٦].

وكان «الآشوريون» يضعون الثيران المُجَنَّحة على أبواب قصورهم حارسة راعية؛ لأنهم كانوا يعبدون الإله «الثور» ويلتمسون عنده الحماية والرعاية[٧].

أمَّا عند العرب القدماء، فنجد الثور إلهاً يسمى بعلاً، ورمزوا به للهلال، والقمر هو المقه، وهو أيضاً «هبل» الذي نصب صنمه في الكعبة رجلاً شامخاً ليكون السيد أو كبير آلهة العرب، والثور معناه: السيد والرب، وكان رمز الخصب والمطر[٨].

ويمثل الثور «بعل» في الاعتقاد الكنعاني إله خصب الحقول والمواشي الذي يتمطى السحب، ويرسل الغيث والعواصف، وله ارتباط بالإلهة ابنة البرق[٩].

و(حاداد) أكبر الآلهة الذكور في سوريا، وهو إله الرعد والخصب والمطر على هيئة «ثور» وهيكل الشمس في «بعلبك» يحوي تمثالاً له، يقبض بيسراه على صاعقة

---

(٥) د. عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، طبع وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص٨٠.

(٦) جيمس فريزر: أدونيس، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار الصراع الفكري، بيروت، ١٩٥٧م، ص١٠٥.

(٧) د. عبد الجبار المطلبي: مواقف في الأدب والنقد، ص٨٦.

(٨) ديتلف نيلسن: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢١٣.

(٩) د. عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، ص٨٨.

وسنابل قمح، ويُمَثَّل (حاداد) في شمال «سوريا» برأْس إنسان له لحية وقرنان، وهما رمز القوة والخصب[10].

وفي «كنعان» كان الإله الثور «بعل» رمزاً للخصب وعودة الحياة وتكاثر الأحياء[11].

وكان «بعل» أكثر آلهة «الفينيقيين» تبجيلاً، وهو إله المطر. وتعبير الأرض التي تسقى من السماء «بعلاً» الذي يجري على ألسنة سكان الشام أثر واضح من تلك العبادة[12].

وكان «يهوه» عند العبرانيين في العصور القديمة يُرْسَمُ في صورة «ثَوْر»[13].
﴿... فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ..﴾.

قال: جعل «موسى» لقومه حجراً مثل رأْس «الثور» يحمل على ثور، فإذا نزلوا وضعوه، فضرب «موسى» ـ عليه السلام ـ بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرةَ عيناً، فإذا ساروا حملوه على «ثور» فاستمسك الماء[15].

وعبد المصريون الثور رمزاً للخصب، وسموه «أبيس»، وعد الملوك المصريون أنفسهم ثيراناً، ولقبوا أنفسهم ثيراناً، فقالوا بـ «الثور القدير» و«ثور السماوات»،

---

(١٠) جيمس فريزر: أدونيس ص١١٣، (سبق ذكره).
(١١) د. عبد الجبار المطلبي: مواقف في الأدب والنقد، ص٨٩. (سبق ذكره).
(١٢) شريف يوسف: الكعبات المقدسة عند العرب قبل الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٢٩، سنة ١٩٧٨م، ص١٨٨.
(١٣) ديتلف نيلسن، التاريخ العربي القديم، ص٢٣٧، (سبق ذكره).
(١٤) البقرة: ٦٠.
(١٥) أبو الفداء، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، (دون تاريخ)، ج١ ص١٠٠.

ومعظم أساطير الخصب في مصر تعزو فيضان النيل لخصوبة «أبيس» الإله «الثور»[١٦].

وكانت عبادة «الثور» تجسيداً أرضيًّا لعبادة القمر السماوي، فالقمر بمنازله المتغيِّرة قد ارتبط منذ زمن مبكر بطقوس الزراعة والخصب واستنزال المطر، فرأوا الهلال كقرون الثور، والثور فيه قوة الإخصاب ومن هذه الجهة جاءت عبادة «الثور» وهذا يتفق مع طبيعة الإنسان القديم في الميل إلى التجسيم أكثر من ميلهم إلى التجريد العام.

وذكر «الشهرستاني» أن الهنود عبدوا أيضاً القمر، واتخذوا له صنماً على صورة «عجل» وبيد الصنم جوهرة[١٧].

ويرى بعض المؤرخين أن ديانات جميع العرب خاصة الجنوبيين تتصل بعبادة القمر، فهو مقدم عندهم على الشمس، لأن الشمس محرقة، أما القمر فهو دليل الركب، ورسول القوافل، فكان القمر هو الأب السماوي، أمَّا الشمس فقد اتخذت منزلة الأم العظمى، وليس عبثاً أن نرى في اللغة العربية التعبير «القمران» للشمس والقمر. ويتخذ القمر أسماء إلهية مختلفة في جزيرة العرب، فهو «ورخ» و «سين» و «شهر» و «عم» و «المقه» و «ود» و «اللات» و «السيد»[١٨].

وقد اتخذ العرب الجنوبيون من «الثور» رمزاً لإلههم «القَمر»، فَعُدَّ من الحيوانات المقدَّسة التي ترمز إلى الآلهة، وقد دعي القمر في بعض النصوص «ثوراً»[١٩].

---

(١٦) عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، ص٩٣، (سبق ذكره).

(١٧) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ـ ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مصورة المؤسسة المصرية العامة عن دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢م ٢٢مج، ج١ ص٥٧.

(١٨) ديتلف نيلسن: التاريخ العربي القديم، (سبق ذكره)، ص٢٠٧ وما بعدها.

(١٩) المصدر السابق، ص٢٠٨.

وكان «المقه» إلٰه «السبأيين» وهو يرمز إلى «القمر»، وكان الناس يقدمون الثيران وحدها قرابين لهذا الإلٰه[20].

و«بعل» كان يعد إلٰهاً وطنيًّا في «تدمر» وكانت عبادته استمراراً لعبادة الخصب والمطر التي كان «بعل» يمثلها في بلاد كنعان.

وكان «ود» إلٰه الثموديين واللحيانيين، وهو نفسه «المقه» الذي عبده العرب الجنوبيون، ويرمزون إليه بـ «الثور» بدليل وجود صورة رأس الثور في أكثر الكتابات اللحيانية والثمودية[21].

وعبد «الأنباط» «ذا شرى» وهو يشابه إلٰه الإغريق «ديونيسوس» وكان على هيئة «ثور»[22].

وقد أشار بعض الكتاب إلى «البقرة» التي يعبدها سكان الصحراء الكبرى الأصليون في المغرب العربي[23].

وتشير الروايات إلى أنه لما أجمعت قريش على هدم الكعبة المشرفة، أخرجوا ما كان فيها من حلي ومال، «وقرني كبش» (أرجح أن المقصود: قرني ثور)، وجعلوها عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى[24].

وهكذا تعبد العرب للثور «بعل» إلٰه الخصب والمطر في كل مكان، وإلى ذلك

---

(٢٠) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، (دون تاريخ)، ٦مج، ج٥ ص١٤٣.

(٢١) المصدر السابق، ج٥ ص١٢٣.

(٢٢) عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، (سبق ذكره)، ص١٠٤.

(٢٣) جيمس ويللارد، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا ١٩٦٧م، ص٤٣.

(٢٤) النجم عمر بن فهد، اتحاف الورى بأخبار أم القرى، مكتبة الخانجي بمصر، ١٤٠٣هـ، ج١ ص١٤٩.

أشـار القـرآن الكـريم، قال تعـالى[٢٥]: ﴿وإنَّ إلياس لمن المُرسلين، إذْ قال لقومه ألا تَتَّقون، أَتدعون بعلاً وتَذَرون أَحسن الخالقين﴾.

ومعنى «بعل» في اللغة العربية يحمل إشارات واضحة إلى عبادته القديمة، فهو: الصنم المعبـود، وقيـل كان صنـماً من ذهب يعبدونه من دون الله، والبعل: الرب، والمالك، والسيد[٢٦].

وقـد سمى العـرب ابن البقـرة الوحشية بـ «الفَرْقد» والفرقدان نجمان معروفان، لكونهما من صنف الحيوان المقدس.

وكان قتل الثور طقساً صيديًّا ـ كما يقول «براندون» في كتابه: (العقيدة في التاريخ القـديم) ـ إذْ كان يُؤ كـل عنـد بعض القبـائـل لكي يظفـر صائده بإحلال قوة معبوده وبعض صفاته فيه[٢٧].

واتَّخَذ الثور تعويذة سحرية في طقوس الاستسقاء، ومن جملة هذه الطقوس أَنهم كانوا يحشون جلد «الثور» بالبذور الزراعية، ويمزقون الجلد ليتدفق منه الحب فيمطرون[٢٨].

قال ابن الفقيـه: على جبـل «نهـاوند» طِلَّسمان: صورة سمك وثور منحوتان من الحجر، قيل: إنهما لأجل الماء لئلا يقلّ أَو يَنْضَب[٢٩].

---

(٢٥) الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٥.

(٢٦) ابن منظـور، جمال الـدين محمـد بن مكرم الأنصاري، (٦٣٠هـ ـ ٧١١هـ)، لسان العرب، مطبعة بولاق، (دون تاريخ)، ٢٠مج، مادة (بعل).

(٢٧) د. أحمد كمال زكي، شعراء السعودية، مطبعة دار العلوم بالرياض، ١٩٨٣م، ص٩٣.

(٢٨) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، طبع دار الكتب، الموصل، العراق، ١٩٨١، ص١٩٢.

(٢٩) القـزويني، زكـريـا بن محمـد (ت٦٨٢هـ)، آثـار البـلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص٣٤٦ و ٤٧١.

وكانت بعض القبائل تحرق معدة أحد الثيران عند حلول المساء، لأن الدخان الأسود يجمع السحب ويسبب سقوط المطر.

وتقدم قبائل «الأنجون» قرباناً للمطر من أحد الثيران السود بينما ينحرون ثوراً أبيض لإحداث الجو الصَّحْو(٣٠).

قال جورج غيرستر(٣١): إن الثور كان في بعض الحِقَب والأماكن معبوداً لأنه يمثِّل الثَّراء والقوَّة، فقد كانت قرونه تُمَثِّل القمر النامي، وكان حليب البقرة رمزاً للخصب، وكثيراً ما عثرنا في القبور السابقة لعهود الإسلام على جماجم بشرية مختلطة جنباً إلى جنب بعظام الثيران، وكثيراً ما نرى في الواحات جمجمة ثور قائمة على مداخل البيوت أو على الجدران المحيطة ببساتين النخل لحمايتهم من الحسد، ومن المحتمل أن تكون هذه الخرافات التي عاشتها الأجيال الطويلة هي آخر ما تبقى من مظاهر عبادة الثيران التي تجمع بين الدين والسحر.

زعموا أن «بشر بن أبي خازم الأسدي» خرج في سنة أَسْنَتَ فيها قومه، وجهدوا، فمروا بصُوار من البقر، وإجْل من الأروى، فذعرت منه، فركبت جبلاً وَعْراً ليس له منفذ، فلما نظر إليها قام على شعب من الجبل وأخرج قوسه، وجعل يشير إليها كأنه يرميها، فجعلت تلقي أنفسها فتتكسر، وجعل يقول:

تتابعي بقر، تتابعي بقر

حتى تكسرت، ثم قال:

أنت الذي تصنع ما لم يُصْنَع

---

(٣٠) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ترجمة أحمد أبو زيد وآخرين، الهيئة المصرية العامة، مصر، ١٩٧١م ج١، ص٢٧٦.

(٣١) جورج غيرستر: الصحراء الكبرى، ترجمة خيري حماد، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦١م، ص٦٤.

أنـــت حططـــت من ذرى مُقَـنَّـــع
كلَّ شَبـــوب لَهَقٍ مُوَلَّـــعِ [٣٢]

ولا شك أن تسـاقـط البقـر من أعلى الجبال كان من التعاويذ السحرية الجاهلية المهمة في الاستسقاء، وربما كان يقوم بهذه الطقوس، الشعراء والسحرة والمتنبئون، إذ كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطـار وجمعـوا ما قدروا عليـه من البقـر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السَّلَع والعُشَر ثم صَعَّدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النيران، وضَجُّوا بالدعاء والتضرُّع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا[٣٣].

وقصـــة بشـــر بن أبي خازم تشـــير إلى أن «الشعـراء» كانـوا يمارسـون طقـوس الاستسقاء، فيقذفون بالبقر من قمم الجبال؛ لأن الإنسان القديم كان ينظر إلى الآلهة نظـرة نفعيـة محضـة، فهم يُصَعِّـدون البقـر إلى الجبـال حيث تسمع الآلهة توسُّلاتهم وشكواهم، ويضجُّون ويبتهلون. ونص النويري على أنهم يختارون جهة الغرب دون الجهات؛ لأن السحب تثور من تلك الجهة، فإذا لم تستجب الآلهة لتوسلاتهم أشعلوا بين عراقيبها النيران كي تأتي بالمطر فتطفىء النيران ويذهب الجفاف والقحط، وإنْ لم تأتِ بالمطر فهي تستحق ذلك المصير البشع.

والثور رمز الخصب والقوة والإرواء، وقد كان العرب إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إمَّا لكدر الماء، أو لقلَّة العطش، ضربوا الثور ليقتحم الماء. وقد علل الجاحظ ذلك فقال[٣٤]: لأنَّ البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل، وكما تتبع أُتن الوحش الحمار، قال

---

(٣٢) بشـر بن أبي خازم الأسـدي، الـديـوان، تحقيق: د. عزة حسن، طبعـة دمشق، ١٩٦٠م، ملحق (١٠).

(٣٣) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت٢٥٢هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر، (دون تاريخ)، ٨مج ج٤ ص٤٦٦.

(٣٤) الجاحظ، الحيوان، (سبق ذكره)، ج١ ص١٨ وما بعدها.

في ذلك عوف بن الخرع:

تَمَنَّتْ طيىء جَهْلاً وجُبْناً ... وقد خاليتُهم فأبوا خلائي
هجوني أَنْ هجوتُ جبال سَلْمى ... كضَرْب الثَّور للبقر الظِّماء

وقال أَنس بن مدرك:

إنَّ قتلي سُليكاً ثم أَعقلُهُ ... كالثَّور يُضْرَبُ لما عافت البَقَرُ[٣٥]

وقال الهَيِّبان الفَهْمي:

كما ضُرب اليَعْسُوب أَن عاف باقرٌ ... وما ذنبه إن عافت الماء باقرُ

ولما كان الثور أَمير البقر، وهي تطيعه كطاعة إِناث النَّحل لليعسوب، سماه باسم أَمير النحل.

وكانوا يزعمون أَن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فتهلك، قال الأعشى[٣٦]:

وإنِّي وما كَلَّفْتموني وربِّكم ... ليَعْلم من أَمسى أَعقَّ وأَحْرَبَا
لكالثور والجنّي يضربُ ظهره ... وما ذنبه أَنْ عافت الماء مشربا
وما ذنبه أَنْ عافت الماء باقرٌ ... وما إنْ تعاف الماء إلّا لِيُضْربا

وقال يحيى بن منصور الذُّهلي في ذلك:

لكالثور والجِنّي يضربُ وَجْهَهُ ... وما ذنبه إنْ كانت الجنّ ظالمه

---

(٣٥) قيل: الثور: معناه الطحلب، لأن البَقَّار إذا أورد القطعة من البقر فعافت الماء، وصدها عنه الطحلب، ضربه ليفحص عن الماء فتشربه.
انظر: اللسان مادة (ثور)، لكن النصوص الأخرى تخالف هذا التفسير.

(٣٦) الأعشى الكبير، الديوان، تحقيق: د. محمد محمد حسين، مطبعة الآداب بالجماميز، مصر، ١٩٥٠م، ص١٥١.

وقال نهشل بن حريّ :

أَتـتركُ عارضٌ وبـنـو عديٍّ وتُـغْـرَمُ دارمٌ وهُـمُ بـراءُ
كَدَأْبِ الـثَّـوْرِ يُضْـرَبُ بالهَـرَاوِي إذا ما عافـت الـبـقـرُ الظِّـماءُ[٣٧]

وليس ضرب الثور من قبيل ضرب القوي ليهاب الضعيف كما علل الجاحظ، وإنما هذا إشارة لطقس سحري قديم، مارسه الإنسان الجاهلي في حيواناته، ولا شك أن هذا الطقس له علاقة بالسقيا والإرواء والإخصاب، فربما كان ابتداء الثور بالشرب إغراء له كي ينزل المطر، أو تكريماً لصانع المطر الذي كانت الغدران من فعله ونتاجه، أو تذكيراً له بعواقب الجفاف والجدب: الإهانة والحرق بالنار.

وهذه الممارسات السحرية بقايا طقوس واحتفالات قديمة تتصل بعبادة الثور وما يرمز إليه من الخصب والمطر. وقد جاءت صورة الثور في الشعر الجاهلي مرتبطة بذكر المطر والماء أو بتوجس نزول المطر وهبوب الريح الباردة، وما يتبعها من برق لامع، ورعد قاصف؛ لأن الثور يمثل قوة إلهية قادرة على التحكم في الرياح والسحب والمطر.

وما عادة استسقائهم بالبقر إلا من مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والمطر، ويبدو أن النار المُضَرَّمَة في حطب السَّلَع والعُشَر إنما هي تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله الثور[٣٨].

وقد نرى في وصف الشعراء للثور بقايا ذلك التراث الديني القديم الذي اندثرت طقوس عبادته، ولم يبق منها سوى إشارات موجزة، توحي بالمعتقد القديم وتومىء إليه. ودائماً يؤكد الشعراء على العلاقة القائمة بين آلهة السماء البعيدة، وما يُجَسِّمها ويُشَخِّصها ويُمَثِّلُها في عالم الأرض من حيوانات مُقَدَّسة، لذلك قرن الشعراء صورة

(٣٧) الجاحظ، الحيوان، (سبق ذكره)، ج١ ص١٩.

(٣٨) د. عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، (سبق ذكره)، ص١٠٧.

الثور بصور الكواكب المعبودة، قال عبيد بن الأبرص[٣٩]:

كالكَوْكَب الدُّرِّيِّ يُشْرِقُ متنُهُ   خرصاً خميصاً صُلْبُهُ يتأَوَّدُ

وقال أبو ذؤيب الهذلي[٤٠]:

من وحش حَوْضي يراعي الوحش مُبْتَقلاً   كأنَّه كوكبٌ في الجَوِّ مُنْحَرِدُ

وقال أوس بن حجر[٤١]:

وآنقضَّ كالدُّرِّيء يتبعه   نِقْعٌ يثور تَخَالُهُ طُنُبا

وقال المثقب العبدي[٤٢]:

تنحسر الغمرة عنه كما   ينحسر النجم عن الفَرْقَد

وقال بشر بن أبي خازم الأسدي[٤٣]:

فبات في حِقْفِ أرطاة يلوذُ بها   كأنَّه في ذُراها كَوْكَبٌ يَقِدُ

وقال الأعشى الكبير[٤٤]:

تجلو البوارق عن طَيَّان مضطمر   تخاله كوكباً في الأفْقِ ثَقَّابا

---

(٣٩) عبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤٤.

(٤٠) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار فراج، طبعة القاهرة، ١٩٣٧م، ٣مج، ج١ ص٦٠.

(٤١) أوس بن حجر، الديوان، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص٣.

(٤٢) المثقب العبدي، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية، ١٩٧١م، ص٤٩.

(٤٣) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، (سبق ذكره)، ص٥٥.

(٤٤) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص٣٩٧.

وقال أيضاً(٤٥):

هجن به فانصاع منصلتاً كالنجم يختار الكثيب أبل

وقال الأعشى أيضاً(٤٦):

وأدبر كالشِّعْرى وُضوحاً ونُقْبَةً يواعن من حَرّ الصريمة مُعْظَما

وعندما تهجم أغباش الدُّجى البهيم على الثور، وتحصبه السماء بوابل من البَرَد والريح والمطر، يلوذ الثور وحيداً منكَرساً في كنف أرطاة يحتفر تحتها كِناساً هو أشبه بصومعة المُتَصوِّف المُتَعَبِّد، أو القديس المُتَبَتِّل.. أحياناً تبدو عليه السكينة والوقار، والتَّأمُّل والخُشوع، وأحياناً أخرى تظهر عليه علامات الأرق والسُّهد، والقَلق، والتوتُّر، والذُّعر، والخوف، والتوجُّس، واليأس، والترقُّب، والترصُّد.. ينتظر المطر الذي يأتي بالحياة والخصب، ويترقب الشمس والنور وانكشاف الهم.

وأحياناً نراه مَعْنِيًّا بترقُّب المطر وتأمُّل السماء والتفكُّر بمشكلات الجفاف، فالثور يَشِم البرق ليَتَعَرَّف على مساقط المطر، قال زهير بن أبي سلمى(٤٧):

- فسار منها على (شَيْم) يؤُمُّ بها جنبَيْ عَمَايةَ فالرَّكَّاء فالعُمُقا

- (يَشِمْنَ بروقَهُ) ويرش أرْيَ الـ جنوب على حواجبها العَمَاء

والثور يوقد النار ويشعلها، والنار ترتبط بالثور ارتباطاً أساسيًّا في طقوس الاستسقاء، قال أوس بن حجر(٤٨):

وانقضَّ كالدُّرِّيِّ يتبعه نِقْعٌ يثور تخالُهُ طُنُبا

---

(٤٥) المصدر السابق، ص٢٧٩.

(٤٦) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص١٥٧.

(٤٧) زهير بن أبي سلمى، الديوان، (سبق ذكره)، ص٤٢ وص٥٧.

(٤٨) أوس بن حجر، الديوان، (سبق ذكره)، ص٣ - ٤.

يخفي وأحياناً يلوح كما رفع المُنير بكَفِّه لَهَبا

وقال النابغة الذبياني(٤٩):

مُوَلِّي الريح رَوْقَيه وجَبْهَتهُ كالهَبْرَقيّ تَنَحَّى ينفُخُ الفحما

وأخذ الثور في تصوُّر امرىء القيس شكل النار، قال(٥٠):

وبات إلى أرطاة حِقْف كأنَّها إذا أَلْثَقَتْها غَبْيَةٌ بيتُ مُعْرس

.. فأدبر يكسوها الرّغام كأنَّهُ على الصَّمْد والآكام جذوة مُقْبِس

فأَدْرَكْنَهُ يأْخُذن بالسَّاق والنَّسا كما شَبْرَق الولدان ثوبَ المُقَدِّس

والبيت الأخير يدل صراحة على قدسية الثور في المعتقد الجاهلي، فالأطفال يتمسحون بأثواب هذا القديس المتعبد الذي يملك قوى روحية كبرى.

ويأْخذ الثور في التصور الجاهلي صورة الملك (صانع المطر)، قال سحيم عبد بني الحسحاس(٥١):

يُنَحِّي تُراباً عن مبيت ومكنس ركاماً كبيت الصَّيْدَنانيّ دانيا(٥٢)

وقال الأعشى الكبير(٥٣):

ثم استمرَّ يُباري ظلَّه جَذِلاً كأنَّه مرزُبانٌ فازَ مَحْبُور

---

(٤٩) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص٦٥.

(٥٠) امرؤ القيس بن حجر، (ت ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص١٠٢.

(٥١) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، تحقيق: عبد العزيز الميمني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٨م، ص٢٩.

(٥٢) الصيدناني: الملك.

(٥٣) الأعشى الكبير، (ت ٦٢٤م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص٤٣.

ودائـماً ينفـرد الثَّـوْر مُتَبتـلاً تحت الشجرة يتطَهَّر بماء المطر، مُكِبًّا كأنه يُصَلِّي صلاةً يقضي بها نُذوراً.

قال النابغة الذبياني(٥٤):

فبـات كأنَّـه قاضـي نُذُور شرى لله ينـتظـرُ الـصَّبَـاحـا

وقال لبيد بن ربيعة(٥٥):

فبـات كأنَّـه قاضـي نُذُور يلوذُ بغَـرْقَـدٍ خَضِـلٍ وضَـالِ

والثـور في الشعـر الجـاهلي يعاني الألم، ويقاسي من الوحدة، ويتوجس خيفة من عدو لا يراه، ومن قوة عظمى لا يقـدر السيطـرة عليهـا، ومن مستقبل غامض محفوف بالمخـاطـر والأهوال، لكنَّ بوادر الأمن والسلام ممكنة: فالمطر ينسكب كأفواه القِرَب، والشمس تَنْثُر الدفء والشعاع الضئيل من بُعْد، والأرطاة حمته من هبوب العاصفة.

وفي معظم الأحيان نرى الثور ونرى معه المطر، والبرق يلمع على سَرَاته كجَذْوة اللَّهب الأصفـر، وبصـرُه عالقٌ في السماء، مشدود إليها، يعالج الليل والريح والمطر، ويَدْرأ بقرونه البرَد الجامد، والرَّعْد المُرجس.

ويمكن القـول: إنَّ الحـديث عن المطـر لا يَتَّضـح تماماً في القصيدة الجاهلية إلا عندما تُسْرد قصة ثور الوحش؛ لأن الثور رمز مشهور من رموز المطر. قال بشر بن أبي خازم الأسدي(٥٦):

كأنهـا بعـدمـا طال الـوجـيـفُ بها من وحش خُبَّـةَ موشـيُّ الـشَّـوَى فَرِدُ

---

(٥٤) النابغة الذبياني، (ت ٦٠٤م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص٢١٥.

(٥٥) لبيد بن ربيعة العامري، (٥٤٠م - ٦٦٩م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص٧٦.

(٥٦) بشر بن أبي حازم الأسدي، (ت ٣٢ق. هـ/ ٥٩٠م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص٥٥.
الصـرد: الشـديـد البرد. منكرس: منكب. العقرب: برج من بروج السماء وله من المنازل: الزباني والشولة والقلب. نثرتها: مطرها.

طاوٍ برَمْلَةِ أورالٍ تضيَّفَهُ إلى الكِناس عشيٌّ باردٌ صَرِدُ
فباتَ في حِقْفِ أرطاة يلوذُ بها كأنه في ذُراها كَوْكَبٌ يَقِدُ
يجري الرَّذاذ عليه وهو منكرسٌ كما استكان لشكوى عينه الرَّمِدُ
باتت له العقربُ الأولى بنَثْرَتها وبلَّهُ من طلوع الجَبْهة الأسَدُ

وقال يضاً[٥٧]:

بأدماءَ من سِرِّ المَهَارى كأنَّها بحَرْبَة موشيُّ القوائم مُقْفِرُ
فباتت عليه ليلةٌ رَجَبيةٌ تُكَفِّئُهُ ريحٌ خريقٌ وتُمْطِر
وباتَ مُكِبًّا يتَّقيها برَوْقِهِ وأرطاة حِقْفٍ خانها النَّبْتُ يَحْفِرُ
يثير ويبدي عن عروقٍ كأنَّها أعنَّةُ خَرَّازٍ تحطُّ وتُبْشَرُ
فأضحى وصِئبان الصَّقيع كأنَّها جُمانٌ بضاحي متنه يتحدَّرُ

وقال الأعشى الكبير[٥٨]:

كأنَّها طاوٍ تَضَيَّفَهُ ضربُ قِطارٍ تحثُّهُ شمْأَلْ
بات يقولُ بالكثيب من الـ ـغَبْيَةِ: أَصْبِحْ ليلُ، لويَفْعَلْ
مُنْكَرساً تحت الغُصُون كما أَحْنى على شِمالِهِ الصَّيْقَلْ

وقال أيضاً[٥٩]:

---

(٥٧) المصدر السابق، ص٨٢.
رجبية: من ليالي شهر رجب. تكفئه: تميله. الخريق: الريح الباردة. أعنة الخراز: سيور الجلد التي يقدها الخراز لعمله. بشر الأديم. قشر بشرته التي ينبت عليها الشعر.
(٥٨) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص٣١٥.
القطار: المطر. الغبية: الدفعة الشديدة من المطر. منكرساً: مندساً على وجهه. الصيقل: الذي يشحذ السيوف ويجلوها. أحنى: انحنى.
(٥٩) المصدر السابق، ص٣٩٧ وما بعدها.
الكور: الرحل. الميساد: الوساد. الميثرة: حشية توضع تحت الرحل. العبعاب: الطويل التام. شفان: ريح وبرد. مرتكم: مجتمع. الأميل: الجبل من الرمل مسيرة يوم طولا. البغر: =

كأَنَّ كُوري ومـيسـادي وميثـرتـي ... كَسَـوْتُهـا أسفـع الخَـدَّين عَبْعـابـا

أَلجـأه قطْـرٌ وشَـفَّـانٌ لُمرْتَـكـمٍ ... من الأمـيـل عليـه الـبَـغْـرُ إكْثَـابـا

وبـات في دَفِّ أَرْطَـاةٍ يلوذُ بها ... يجري الـرَّبـابُ على مَتْنَيْهِ تَسْكَـابـا

تَجْلُو الـبـوارقُ عن طَيَّـان مُضْطَـمِـرٍ ... تَخَالُـهُ كوكـبـاً في الأفْـقِ ثَقَّـابـا

وقال ضابىء بن الحارث البرجمي(٦٠):

فبـات إلـى أرطـاة حقـف تَلُفُّـهُ ... شآمـيـةٌ تُذْرِي الجُـمان المُـفَـصَّـلا

يوائـلُ من وَطْـفـاء لَمْ يَرَ ليـلةً ... أشَـدَّ أَذَىً منهـا عليـه وأَطْـوَلا

وبـات وبـات السـاريـاتُ يُضِفْنَهُ ... إلى نَعِـجٍ من ضائن الـرمـل أهيـلا

شديـد سواد الحـاجـبـين كأنَّـما ... أُسِـفَّ صَلَى نارٍ فأصـبـحَ أَكْـحَـلا

وتحفـل قصـة الثـور الـوحشي برمـوز كثيرة لها علاقة بقدسية الثور، وقدرته على صنع المطر، وإخصاب الأرض، وربما كانت هذه الرموز ترانيم طقوسية تُتْلى في معابد الإله «بعل» غير أن هذه الطقوس اندثرت باندثار ذلك الدين القديم. واحتفظ الشعر الجاهلي بإشارات قليلة تدل على شعائر كبيرة كانت تقام تمجيداً للثور، ولعل قصائد الـرثـاء في الشعـر العـربي تحمـل جانباً من المعتقدات القديمة في الثور، فعندما يريد الشعـراء ضرب المثـل بحتميـة الموت، وتَقَلُّب الزمن، وبَطْش الدهر يختارون «الثور» مثلاً لذلك. فعلى الرغم من إيمانهم بقدرات الثور الخارقة، وقواه الجبارة، وقدسيته،

= الدفعة الشديدة من المطر. أكثاباً: من الكثب وهو الجمع والصب. طيان: جائع من الطوى. مضطمر: من الضمور.

(٦٠) ضابىء بن الحارث البرجمي، (جاهلي مخضرم)، الأصمعيات، تحقيق: عبد السلام هارون، وأحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٦م، ص١٨٢.

يوائـل: يحاذر ويلتمس الملجأ ويطلب النجـاة. الـوطفـاء: السحـابة التي فيها استرخاء لكثرة المـاء. السـاريـات: السحب التي تسري ليلاً. نعج: أبيض خالص البياض. ضائن الرمل: الرمل العريض. الأهيل: الذي لا يثبت. صلى: اسم للوقود. أسفه: ذر عليه.

يغلبه الموت ويصرعه، ويتركه لَقىً للفَنَاء[61].

وفي معارك الثور الدامية يلازمه الكلب في جميع الجولات ملازمته لأصحاب الرَّقيم، ولا شكَّ أنهم اصطادوا الثيران بالقِسِي والسِّهام والخُيول والمُخاتلة، لكنَّ اختيار الكلب في قصة الثور الوحشي ـ والتي لها ما يماثلها في نجوم السماء ـ إشارةً إلى أساطير قديمة ومعتقدات اندثرت وسقطت من ذاكرة الزَّمَن.

والثور دائماً يُعالج الظُّلمة، ويبحثُ عن الشمس، والشمس في المعتقد الجاهلي هي الإلٰهة الأم التي عبدها العرب وأقاموا لها الهياكل والمعابد، والثور (القمر) هو الإلٰه الأكبر أو الإلٰه الأب[62].

وقد نرى في بحث الثور عن الشمس وترقُّبه لها إشارةً إلى المعتقد القديم، وتجسيداً لمفهوم الجاهليين لطبيعة هذين الإلٰهين: الذكورة والأنوثة، وبحث كل منهما عن الآخر، لذلك كان بزوغ الشمس أمراً محتوماً في قصة ثور الوحش.

ويتصف الثور في الشعر الجاهلي بالجلال والحكمة والجمال والهَيْج، ومعظم الشعراء يُؤَكِّدون هذه المزايا فيه، وهي أقرب ما تكون إلى صفات الآلهة القديمة منها إلى صفات البشر.

وقد يرى الإنسان القديم في معبوده نقائص الإنسان، وعيوبه، ومجتمع الآلهة ـ كما يراه الإنسان القديم ـ لا يختلف عن مجتمع البشر، فالمعبود قد يغضب وقد يُخْدَع، وقد يحب، وقد يكره. . لذلك كان الثور يتصف بصفات مجتمع البشر، فقد وصفه الشعراء بالجرأة، والغضب، والحنق، واليأس، والجوع، والتعب، والثبات، والوَهَل، والشجاعة، والهرب، والعبوس، ورسموا صوراً لهواجسه ووساوسه وتذكُّره وكرامته، وشهامته، وبعد أن ينتصر في المعركة التفتوا إلى علامات البِشْر والرِّضى

---

(61) انظر رأي الجاحظ في ذلك، الحيوان، (سبق ذكره)، ج2 ص20.

(62) ديتلف نيلسن، التاريخ العربي القديم، (سبق ذكره)، ص207 وما بعدها.

والانتصار والفرح والزَّهْو، التي تغمر كيانه، لذلك كان ينطلق على الإكام مشرقاً جذلاً محبوراً.

ويمكن أن نلحظ النار التي أُوقدت في عراقيب البقر عند الاستسقاء في أوصاف الشعراء للثور، وكثيراً ما يشيرون إلى «النار» عندما يصفون ثور الوحش:

فالثور يأخذ شكل النار في تصور امرىء القيس كـ «جذوة مقبس»[٦٣]، وهو حداد ينفخ في الفحم عند النابغة الذبياني[٦٤]، وكأنما أُسِفَّ صَلَى نار عند ضابىء البرجمي[٦٥]، ويلوح في عتمة الليل والبرق يظهره (كما رفع المنيرُ بكفِّه لهبا)[٦٦]، والكلاب تلمع في عراقيب الثور كالفتيلة المُوقدة، قال لبيد بن ربيعة[٦٧]:

فَجَالَ ولم يعكم لغُضْفٍ كأنَّها ... دِقاق الشَّعيل يبتدرنَ الجَعَائِلا

ويبيت الثور تحت غصون الأرطى، والنار تنقدح حوله، كأنه الصيقل الذي يشحذ السيوف فيتطاير منها الشرر[٦٨]، أو كأنه نصل السيف الذي يشتعل متنه ضوءاً[٦٩].

ولا شك أن هذه التشبيهات في قصة ثور الوحش قد تبدو ملاحظات فردية دقيقة لمنظر البرق المتقد المتقطع الذي يخيف الثور ويهيجه، لكن هذه الإشارات لا يمكن فهمها فهماً رشيداً بمعزل عن الرؤيا الدينية الجاهلية التي شكلت هذا الشعر؛ لأن الجاهلي كان يمارس طقوس الاستسقاء بعنصرين أساسيين هما: البقر والنار، لذلك

---

(٦٣) امرؤ القيس، الديوان، (سبق ذكره)، ص١٠٢.
(٦٤) النابغة الذبياني، الديوان، (سبق ذكره)، ص٦٥.
(٦٥) الأصمعيات، (سبق ذكرها)، ص١٨٣.
(٦٦) أوس بن حجر، الديوان، (سبق ذكره)، ص٣.
(٦٧) لبيد بن ربيعة، الديوان، (سبق ذكره)، ص٢٤٠.
(٦٨) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص٣١٥.
(٦٩) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص٣٣٥.

جاءت صورة النار متصلة بصورة الثور.

ونلحظ في قصة ثور الوحش ضروباً من تكرار قوالب فنية لغوية محددة، نحس من خلالها أَنَّ الشعراء جميعاً يَنْهلون من معين واحد، يسيطر عليهم سحر كلمات محددة ورثوها من تراث الأمة، ومن رواسب مظلمة في أعماقهم أوما يمكن أن يُدْعى بـ «النماذج العليا» التي بنى عليها «كارل يونج» نظريته. ولا شك أَنَّ الممارسات الطقوسية والسحرية تظل في ضمير الأمة تراثاً حيًّا مهما امتدَّ الزمن، والشعر الجاهلي لم يكن بعيداً عن العفوية والفطرية، ذلك لأن طبيعة العصر الجاهلي كانت طبيعة شعرية بصفة عامة تسيطر عليه القوة الميتافيزيقية التي تتحكم في صياغة الكلمات؛ لذلك كان التكرار اللفظي والأسلوبي مَعْلم أساسي من معالم الشعر الجاهلي؛ لأن الشعراء جميعاً يَنْهلون من التراث العربي المجهول المليء بالسحر والخرافة والتعاويذ والأساطير..

وفي قصة ثور الوحش نلحظ تكرار الفعل «بات» عند كثير من الشعراء، وهذا التكرار يكون اصطلاحاً نحتاج فيه ربط المجاز أو الرمز أو العلامة بأسطورة مجهولة المعالم[70]، ولننظر في الفعل «بات» في قولهم:

- وباتَ إلى أرطاةِ حِقْفٍ كأنَّها ... إذا ألْثَقَتْها غَبْيَةٌ بَيْتُ مُعْرِس[71]
- وباتَ في دَفِّ أرطاةٍ يلوذُ بها ... يجري الرَّباب على مَتْنَيْه تَسْكابا[72]
- فبات إلى أرطاة حقف تلفه ... شآمية تذري الجمان المفصلا[73]
- فبات إلى أرطاةِ حِقْفٍ تَضُمُّه ... شآميةٌ تُزْجي الرَّباب الهَواطلا[74]

---

(٧٠) أحمد كمال زكي، التفسير الأسطوري للشعر القديم، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، إبريل، ١٩٨١، ص١١٥ وما بعدها.

(٧١) امرؤ القيس بن حجر، (ت٥٤٠م)، الديوان، ص١٠٢.

(٧٢) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، (ت٦٢٤م)، الديوان، ص٣٩٧.

(٧٣) صابىء بن الحارث البرجي، الأصمعيات، ص١٨٢.

(٧٤) لبيد بن ربيعة العامري، (ت٦٦٥م و ٦٦٩م)، الديوان، ص٢٣٩.

ـ فبـاتَ في حِقْـف أَرْطَـاةٍ يلوذُ بها	كأنَّـه في ذُراهـا كوكـبٌ يَقِـدُ(٧٥)
ـ بات بحِـقْـفٍ من الـبَـقَّـار يَحْفِـزُه	إذا استَكَفَّ قليـلاً تُربـه انهـدَمَـا(٧٦)
ـ فبـاتَ كأنَّـه قاضـي نُذُور	شَرَى لله ينـتظـرُ الـصَّـبَـاحـا(٧٧)
ـ فبـاتَ كأنَّـه قاضـي نُذُور	يلوذُ بغَـرْقٍ خَضِـلٍ وضَـال(٧٨)
ـ باتَـتْ عليـه ليـلةٌ رَجَـبـيـةٌ	نَصْـبـاً تسـحُّ المـاء أوهي أَبْـرَدُ(٧٩)
ـ فبـاتـت عليـه رَجَـبـيـةٌ	تُكَـفِّئُـهُ ريـحٌ خريـق وتُمْطـر(٨٠)
ـ باتـت عليـه ليـلةٌ لثـقٌ	أوَّلُهـا شَنَّـانـةٌ ومَطَـرْ(٨١)
ـ فبـات يقـول: أَصْبِـحْ ليـلُ، حتى	تَجَلَّى عن صريـمـتـه الظَّـلام(٨٢)
= بات يقـول بالـكـثـيـب من الـ	غَبْيَـة: أَصْبِـحْ ليـلُ، لو يفعـل(٨٣)

إنَّ ضروب التكرار السابقة من قبيل التكرار اللفظي والأسلوبي الذي يستند إلى قيمة بلاغية، بل إن هذا التكرار رمزٌ ثابت في الأعماق المظلمة للشاعر الجاهلي الذي يؤمن بسحر الكلمات التي بقيت حيةً في ضمير الأمة بنضارتها وفطرتها، فالثور «القمر» مُسْتَقرُّه الليل؛ لذلك نلحظ بوضوح أنَّ «نزول المطر» لا يكون إلاَّ ليلاً، وعندما تأتي

(٧٥) بشر بن أبي خازم الأسدي، (ت ٥٩٠م)، الديوان، ص٥٥.
(٧٦) النابغة الذبياني، (ت ٦٠٤م)، الديوان، ص٦٥.
(٧٧) النابغة الذبياني، (ت ٦٠٤م)، الديوان، ص٢١٥.
(٧٨) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص٧٦.
(٧٩) عبيد بن الأبرص، (ت٦٠٠م)، الديوان، ص٨٢.
(٨٠) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص٨٢.
(٨١) طرفة بن العبد البكري، الديوان، ص١٨٥.
(٨٢) بشر بن أبي خازم، الديوان، ص٢٠٤.
(٨٣) الأعشى الكبير، الديوان، ص٣١٥.

«الشمس» يتوقف سقوط المطر، وبَحْث الثور عن النور، واشتياقه للشمس، وترقبه لها إشارة إلى المعتقد القديم، وتجسيداً لمفهوم الجاهليين لطبيعة هذين الإلٰهين: الذكورة والأنوثة؛ لذلك كان بزوغ الشمس في قصة ثور الوحش أمراً محتوماً، ولذلك أيضاً كان بَيَات الثور واستقراره في أعماق الظُّلمة لازمةً ضرورية في الشعر الجاهلي. وقرنا الثور يرمزان إلى «الهلال»؛ لذلك يُبْرِزُ الشعراء قرون الثيران دون باقي أعضائها بروزاً واضحاً، ويجعلون الثور مُكِبًّا على روقيه، يتطهَّر بماء المطر، ويستقبل المطر بهما:

- مُوَلِّي الريح رَوْقَيْه وجَبْهَتَه ... كالهَبْرقيّ تَنَحَّى ينفُخُ الفحما[84]

- مولِّي الريح روقيه وجبهته ... حتى دَنا مِرْزَمُ الجوزاء أو خَفَقَا[85]

- مكبًّا على روقيه يحفرُ عِرْقَها ... على ظهر عُريان الطريقة أَهْيَما[86]

- وبات مكبًّا يتقيها برَوْقِهِ ... وأَرطاة حِقْفٍ خانها النبتُ يحفرُ[87]

- إذا وكَفَ الغصون على قَرَاه ... أدار الروق حالاً بعد حَال[88]

والفعل «تَضَيَّفَ» يتكرَّر في قصة ثور الوحش تكراراً يستوعب معتقد الجاهليين في الثور وماله من قدسية وحرمة، وما يرمز إليه من قدرة على الإخصاب. فعندما يستدعي الثور المطر يُلْجئه إلى استضافة شيئين:

الرَّملة العقيم التي تشتاق إلى المطر كي تلقح وتخصب.

وشجرة الأرطاة - غالباً - وهي دائماً «أَرطاة حِقْف» لا ماء حولها ولا غدير، وقد يلفتنا الثور إلى نتاج المطر في الكثيب والحِقْف.

---

(٨٤) النابغة الذبياني، الديوان، ص٦٥.

(٨٥) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص٤٢.

(٨٦) الأعشى الكبير، الديوان، ص٣٣١.

(٨٧) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص٨٢.

(٨٨) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص٧٧.

والضَّيْف ـ في المعتقد العربي القديم ـ له حُرْمة لا تُهان ولا تُبْتَذَل، وحُرمة الثور جاءت من دوره في الإرواء والإخصاب؛ لذلك تَكَرَّر الفعل «تَضَيَّفَ» في أشعارهم :

ـ طاوٍ برملة أَوْرَال تَضَيَّفَه إلى الكِناس عَشِيٌّ باردٌ صَرِدُ[89]

ـ تَضَيَّفَهُ إلى أرطاةِ حِقْفٍ بجنب سُويقة رِهَمٌ وريح[90]

ـ أَضَلَّ صِوارَه وتَضَيَّفَتْهُ نَطُوفٌ أَمرُها بيد الشَّمال[91]

ـ تَضَيَّفَ رملة البَقَّار يوماً فبات بتلك يضربُهُ الجليد[92]

ـ كأنَّه طاوٍ تَضَيَّفه ضَرْبٌ قطارٍ تحته شَمْأَلُ[93]

أو فريدٍ طاوٍ تَضَيَّفَ أَرْطَا ةً يبيتُ في دَفِّها ويُضاقُ[94]

ـ وباتَ وباتَ الساريات يُضِفْنَه إلى نَعِجٍ من ضائن الرَّمل أَهْيَلا[95]

---

(٨٩) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص٥٥.

(٩٠) المصدر السابق، ص٥١.

(٩١) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص٧٦.

(٩٢) الأعشى الكبير، الديوان، ص٣٦١.

(٩٣) المصدر السابق، ص٣١٥.

(٩٤) المصدر السابق، ص٢٤٩.

(٩٥) ضابىء بن الحارث البرجمي، الأصمعيات، ص١٨٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

مواضع ورود المطر في الشعر الجاهلي

المطر والمرأة - المطر والضيفان - المطر والجيش

المطر والناقة - المطر والفرس - المطر وحمار الوحش

المطر والظليم - المطر والأوابد الأخرى - موضع المطر الأساسي



المطر والمرأة

إنَّ «فكرة المطر» في الوقفة الطللية هي ما يشغل عقل الشاعر الجاهلي عندما يتذكر المحبوبة . . لأنَّ المرأة والمطر شيئان متَّصلان متَّحدان في ضميره. فقد كان الشاعر يبكي الطَّلل أو يبكي رحيل المرأة وانحباس المطر. لذلك كانت وقفة الشاعر الجاهلي أمام الطَّلل وقفة تَأَمُّل في سرّ المرأة الراحلة وفي سرِّ المطر، ومن أجل ذلك أيضاً بكى وشكى ، ووقف واستوقف، ودعا ورجا، ونَدَبَ وتَعَذَّب .

والمرأة الراحلة يدعون لديارها بالسُّقيا؛ لأن أطلالها التي انطمست واندثرت وماتت يريدون لها الحياة والرَّحمة والتَّطْهير والبَعْث، ويمكن أنْ يكون الدُّعاء بسقيا الأطلال والقبور بقايا تراث ديني قديم كان أصلاً طَقْساً سحريًّا يُمارس على عظام الموتى التي استخدمها العرب في استدعاء المطر(*)، ومن ثَمَّ ارتبط نزول المطر بالأرض الخراب والمرأة الراحلة .

وتأتي في الشعر الجاهلي صور كثيرة تربط بين الثَّغر العَذْب وفكرة المطر، يتحول معها ثغر الحبيبة الباسم إلى نَبْعٍ للخير المطلق ومصدرٍ لماء الحياة، نحسُّ من خلاله أَنَّ الشاعر الجاهلي لم يكن يتغزَّل وإنَّما كان يُعَبِّر عن رغبته في استقبال المطر.

---

(١) عبيد بن الأبرص، (ت٦٠٠م)، الديوان، تحقيق د. حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٥٧م، ص٢٩ ـ ٣٠.
المشعشعة : المخلوطة بماء السحاب. القديح : أخذ منها بالقَدَح .

(*) انظر تفصيل ذلك في بحث: «الاستسقاء في الشعر الجاهلي» للمؤلف، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، العدد الأول، جامعة مؤتة، ١٩٨٦ .

المرأة تمنح المطر من ثغرها أو هي تمنح من مُقَبَّلها خِصْب الحياة ونَماءَها، ورحيلُها يعني القَحْل والمَحْل، والشاعر يريد هذا المطر، لذلك كان دائماً رُضَاب المرأة مطراً صافياً بارداً.

وكثيراً ما يمزج الشعراء رُضاب المرأة بالخمر المُعَتَّق أو العسل المُصَفَّى، أو بعبارة أُخرى، بالنشوة الروحيَّة، ورحيق الحياة، وهذا التلازم مُتَكَرِّرٌ في الشعر الجاهلي.

إذا ذُقْتُ فاها قلتُ طَعْم مُدامةٍ ... مُشَعْشَعةٍ تُرْخي الإزار قَديحُ

بماء سحابٍ من أباريق فضَّةٍ ... لها ثَمَنٌ في البائعين ربيحُ

وقال امرؤ القيس(٢):

كأنَّ المُدام وصوبَ الغمامِ ... وريحَ الخُزامى ونَشْرَ القُطُرْ

يُعَلُّ به بَرْدُ أنيابها ... إذا طَرَّب الطائرُ المُسْتَحِر

وقال بشر بن أبي خازم(٣):

كأنَّ مُدامةً من أذْرُعَاتٍ ... كُمَيْتاً، لونُها لونُ الرُّعَافِ

على أنيابها بغريض مُزْنٍ ... أحالَتْهُ السَّحابَةُ في الرِّصافِ

وقال مالك بن حريم الهَمْداني(٤):

---

(٢) امرؤ القيس بن حجر الكندي (ت ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص١٥٧.
القُطُر: العود الذي يتبخر به. يعل به: يسقي به، وهو الشرب الثاني بعد النَّهل. المُستَحِر: المصوت بالسَّحَر

(٣) بشر بن أبي خازم الأسدي (ت ٥٩٠م)، الديوان، تحقيق: د. عزة حسن، طبعة دمشق، ١٩٦٠م، ص١٤٣.
الرُّعاف: الدَّم الذي يسبق من الأنف. الغريض: الطَّري من اللَّحم والماء واللَّبن والتمر.
الرِّصاف: جمع الرصف: وهو الماء الذي ينحدر من الجبال على الصخر فيصفو.

(٤) مالك بن حريم الهمداني، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار=

كأنَّ جَنَى الكــافــور والمسك خَالِصاً ... وبَــرْدَ الـنَّــدَى والأقحــوانَ المُنَــزَّعَــا
وقَلْتــاً قَرَتْ فيــه السحــابــةُ ماءَهــا ... بأنيــابهــا، والـفــارسـيَّ المُشَعْشَعــا

وقال حسان بن ثابت[٥]:

تَبَـلَتْ فؤادك في المـنــامِ خريــدةٌ ... تشــفـي الـضـجيــعَ ببــاردٍ بَسَّــامِ
كالمِســْكِ تَخلُطُــهُ بماء سحــابــةٍ ... أو عاتــقٍ كدمِ الــذَّبيــحِ مُدامِ

ويختار الشعراء لثَغْر المحبوبة العَذْب رائحة أزهار البادية التي رَشَّها النَّدى والرَّذاذ الخفيف فَتَتَضَوَّع شذىً وعطراً.

فثَغْر المحبوبةِ سُقي بريح الخُزامى ونَشْر البَخُور[٦] وخالطه الكافور والمسك والأقحوان[٧] وكأنما شِيْبَ بالحَوْذان الذي رُشَّ بالمطر[٨] أومُزِج بالأقحوان والحَنْوة والفَغْو والخُزَامى كما يقول الحارث بن صريم الأصغر[٩]:

ومــا نَفْــحُ روضٍ ذي أقــاحٍ وحَنْــوةٍ ... وذي وَرَقٍ من قُلَّةِ الحَــزْنِ عازبِ
ولا ريــحُ فَغْــوٍ أو خُزامــى وحَــنْــوةٍ ... أَرَشَّــتْ عليهــا ساريــاتُ السَّحــائبِ

= المعارف بمصر، ١٩٧٦م، ص٦٣. وشعر همدان وأخبارها، جمع: د. حسن أبوياسين، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص٢٩٣.
القَلْت: النُّقْرة في الصخر تمسك الماء. قَرَت: جَمَعَت. الفارسيّ: الشراب الفارسي. المشعشع: المزوج بالماء.

(٥) حسان بن ثابت الأنصاري، (ت٥٤هـ)، الديوان، تحقيق: د. سيد حنفي، طبعة الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٤م، ص١٠٧.

(٦) امرؤ القيس بن حجر، الديوان، ص١٥٧.

(٧) مالك بن حريم الهمداني، الأصمعيات، ص٦٣.

(٨) قيس بن الخطيم، (ت ٦١٢م)، الديوان، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٢م، ص٦٧.

(٩) الحارث بن صريم الأصغر، شعر همدان وأخبارها، تحقيق: د. حسن أبوياسين، طبعة دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص٢٤٨. =

بأطيبَ مِنْ فيها إذا ما تقلَّبَتْ　　مع الليل وَسْنَى جانباً بعدَ جَانب

وعندما يقرن الشعراء المرأة بالرَّوْضَة التي جادَ عليها المطر الهَطَّال يجعلون المرأة أطيب رائحةً وأذْكى عطراً وأنفح نَشْراً.

قال عنترة بن شداد العبسي[10]:

وكأنَّ فأْرةَ تاجرٍ بقَسيمةٍ　　سَبَقَتْ عوارضَها إليكَ من الفَمِ

أو روضةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَها　　غَيْثٌ قليلُ الدِّمْن لَيْسَ بمَعْلَمِ

جادتْ عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ　　فتركْنَ كلَّ حديقةٍ كالدِّرْهَمِ

سَحًّا وتَسْكاباً فكلُّ عشيةٍ　　غَرِداً كفعل الشَّارب المُتَرَنِّمِ

هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَه بذراعِهِ　　قَدْح المُكِبِّ على الزِّناد الأجْذَمِ

رُضاب المرأة العَذْب تَحَوَّل إلى غيثٍ جادَ على روضة نديَّةٍ طيبة النَّشْر، فتَحَوَّل قحلُ الطبيعة غِنىً (كلّ حديقةٍ كالدِّرهم) وشاركت الحشرات الإنسان في نَشْوته وطَرَبه فترنَّمت ثَمِلةً، وأَكَبَّت كما الإنسان الذي يقدح النار من الزِّناد يستدعي بذلك المطر.

واستخدام النار في طقوس الاستمطار مَذْهَبٌ معروف في الفكر الميثوبي الجاهلي[11]. إنَّ ريق المرأة ثانوي في هذه الصّور المبتكرة، لأنَّ ريق المرأة يعني دفء

= الحَنْوة: نبات طيب الرائحة. القُلَّة: أعلى الجبل. الحَزْن: ما غلظ من الأرض. العازب: الكلأ الذي لم يُرْعَ من قبل. الفَغْو: نَوْر طيب الرائحة. الخُزامي: نبت طيب الرائحة أيضاً. الوَسَن: أول النوم.

(١٠) عنترة بن شداد العبسي (ت ٦١٤م)، الديوان، تحقيق: محمد سعيد مولوي، طبعة المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٧٠، ص١٤٥.

الفأرة: وعاء المسك. التاجر: العطار. القسيمة: الجونة أو العير التي تحمل المسك.

العوارض: منابت الأضراس.

الأُنُف: التي لم تُرْعَ. الدِّمن: قليل اللبث. المَعْلم: المشهور. الثَّرَّة: الكثيرة. لم يتَصَّرم: لم =

الحياة واستمرارها، ويعني الاستقرار في المكان والارتباط بالوطن، وهو معادل للمطر الذي يُؤدِّي انحباسه إلى الشَّتات والهجرة والضياع والجوع وموت العاطفة.

واستخدم شعراء الجاهلية رُضَاب المرأة مُعَادلاً موضوعيًّا لفكرة المطر التي يشتاقون إليها، ويستخدمون وصف الريق وسيلة للتعبير عن الرغبة في استقبال المطر بحيث تختفي المرأة ويبرز المطر، أو تتحول المرأة إلى سحابة ثرَّة سجمة منجبة للخصب والخير والصفاء..

قال الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن[12]:

بَكَرَتْ سُميةُ بُكْرَةً فتمتَّعِ	وغَدَتْ غُدُوَّ مُفَارقٍ لم يَرْبُعِ
وتزوَّدَتْ عيني غَدَاةَ لَقيتُها	بِلوى البُنَيْنَةِ نظرةً لم تُقْلِعِ
وتَصَدَّفتْ حتى اسْتَبَتْكَ بواضحٍ	صَلْتٍ كمُنْتَصِبِ الغزال الأتْلَعِ
وبمقلتي حوراء تحسِبُ طَرْفَها	وسْنانَ، حرَّةَ مُسْتَهلِّ الأدْمُعِ
وإذا تنازعك الحديثَ رأيتَها	حَسَناً تبسُّمُها لذيذَ المَكْرَعِ
بغريض ساريةٍ أدرَّتْهُ الصَّبَا	من ماء أسجَرَ طَيِّبِ المُسْتَنْقَعِ

= ينقطع ولم ينفد. الأجذم: المقطوع اليد.

(11) الميثوبي: صانع الأساطير، مشتق من الميثولوجيا. انظر بحثي المشار إليه سابقاً «الاستسقاء في الشعر الجاهلي».

(12) الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن الغطفاني، الديوان، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ص٤٦ - ٥٠. والمفضليات ص٤٣ - ٤٥.
تصدَّفت: أعرضت وانحرفت. استبتك: صَيَّرَتْكَ سبياً لها. الواضح: الناصع البياض يعني عنقها. الصَّلْت: المشرق الجميل. الأتلع: الطويل العنق. وسنان: به سِنَةٌ وهي النعاس. المُسْتَهَلّ: مجرى الدمع. الغريض: الطري من كل شيء. السارية: السحابة تسري ليلاً. أَدَرَّتْهُ: استخرجته كما يستخرج الحالب اللَّبن. الماء الأسجر: الذي لم يصف تماماً. البطاح: بطون الأودية. الحريصة: المطرة التي تحرص وجه الأرض أي: تقشره. النِّطَاق: المياه. الغَلَل: الماء يجري في أصول الشجر.

ظلمَ الـبِطـاحَ له انهـلالُ حريـصـةٍ فصَـفَـا الـنِّطَـافُ له بُعَـيْـدَ المُـقْـلَعِ

لعـب الـسـيـولُ به فأَصبـحَ ماؤهُ غَلَلاً تَقَطَّـعَ في أُصُـول الخِـرْوَع

أَسُـمـيَّ ويحـكِ هل سمـعتِ بغَـدْرَةٍ رُفـع الـلواءُ لنـا بها في مَجْمَـعِ . .

ثغـر المـرأة نبـعٌ لماء الحيـاة أَو مصـدرٌ للمطـر، ويمكن أَن نلحظ في المطر العُذْرِيَّة والبُكُورة والنَّقاء والطُّهْر، وهي نفسها صفات سمية (الحُرَّة)، أَو قل: إِن رحيل سميَّة يعني رحيل المطر، وقُربها يعني الخير والخصب ودفق ماء الحياة.

المطر والضيفان

ويـأتي وصف المطـر في معـرض الحديث عن قِرى الضِّيفان وطُرَّاق الليل والعُفَاة الملهوفين والجياع المقرورين ممَّنْ قذَفَتْ بهم الصَّحْراء في فم الموت.

ويختار الشعراء وقتاً معيَّناً تجودُ فيه النفوسُ السَّمْحَةُ بما تملكِ عندما تَشُحُّ الألبان ويُصَـوَّحُ البَقْـل ويعمُّ الجَـدْب وتهب الـريـح العجفاء والصقيع الجاف أوعندما تَنِشُّ الغدران، ويتحسَّر ورق الطَّلْح.

ويضيِّق الشعراء الدائرة، ويختارون وقتاً من أيام السَّنَة الشَّهباء وهي تلك الليلة الليـلاء، ذات الـريح العاصف والصقيع الحاصب والتي تُلْجِىء الأشوال إلى كنيفها تلوذُ من سَفْـع ريـح الشَّـمال. وقـد يعـرضـون لمنظـر الضَّيف الجائع المقرور أوطالب المعروف الملهوف الذي تَبُلُّهُ السماء فتزداد حاله سوءاً.

ويتكـرر في هذا المـوضـع الحـديث عن: ريـح الشمال الحَرْجَف، والثلج، ورشّ المطـر، والصُّـراد، والمُـزْن، والسحـاب ذي الهيـدب، والشَّفَّـان، والـرِّيـح النكبـاء العـاصفـة، ونَـوْء المطر، والبرَد، والرِّياح الشآمية ذات البر وق. وغالباً ما يكون المطر عقيماً عاصفاً صرصراً. تَشُلُّه ريحُ الشمال الباردة وتقذِفُ معه البرَد والثَّلْجَ والحَصْباء والسَّفْي.. فتتحول الصحراء إلى جماد.

قال المثقب العبدي(١٣):

(١٣) المثقب العبـدي، عائـذ بن محصن، (ت ٥٨٧م)، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصير في، طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص١١٧. =

وسارٍ تَعَنَّاهُ المبيتُ فلمْ يَدَعْ — له طامِسُ الظَّلْماءِ والليلُ مَذْهَبا
رأى ضَوْءَ نارٍ من بعيد فخالَها — لقد أكْذَبَتْهُ النفسُ بل راء كَوْكَبا
رفعتُ له بالكفِّ ناراً تَشُبُّها — شآمية نكباءُ أو عاصفٌ صَبَا
فلمّا أتاني والسماء تَبُلُّه — فلقَّيْتُهُ أهلاً وسَهْلاً ومَرْحَبا

وقال عنترة(١٤):

إذا الرِّيحُ جاءَتْ بالجَهام تَشُلُّهُ — هَذَا ليلُهُ مِثْلَ القِلاص الطَّرائِدِ
وأعقب نوءُ المُدْبِرين بغُبْرَةٍ — وقَطْرٍ قليلِ الماءِ باللَّيلِ باردِ
تفي حاجة الأضياف حتى يُريحَها — على الحيّ منَّا كلُّ أروعَ ماجدِ

وقال طرفة بن العبد(١٥):

إنَّا إذا ما الغيمُ أمْسَى كأنَّه — سماحيقُ ثَرْبٍ وهْيَ حمراءُ حَرْجَفُ
وجاءت بصُرَّادٍ كأنَّ صقيعَهُ — خِلال البيوتِ والمَبَارك كُرْسُفُ
وجاء قَريعُ الشَّوْلِ يرقُصُ قَبْلَها — إلى الدِّفء والراعي لها مُتَحَرِّفُ
نَرُدُّ العِشارَ المُنْقِيات شَظِيُّها — إلى الحيِّ حتى يَمْرَعَ المُتَصَيِّفُ

وقال المسيب بن علس(١٦):

= الساري: السائر عامة الليل. تعنّاه: تجشمه وأنصبه وأعياه.

(١٤) عنترة بن شداد العبسي، (ت ٦١٤)، الديوان، (سبق ذكره)، ص٣٣٤.
الجَهام: السحاب لا ماء فيه. تشله: تسوقه. الهذاليل: القطع المتفرقة. القِلاص: الإبل الشابّة. الطرائد: ما يطرد من الإبل عند الغارة.

(١٥) طرفة بن العبد، عمرو بن عبد البكري، الديوان، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥، ص١٣٠.
السماحيق: شحم رقيق على ثُرْب الشاة، الثَّرْب: الشحم الذي يغطي الأمعاء. حَرْجَف: شديدة. الكرسف: القطن. قريع الشول: فحل الإبل اللواقح. المتحرف: البعيد. العِشَار المُنْقِيات: النوق الحوامل السِّمان. الشظية: عظم الساق.

(١٦) المسيب بن علس، زهير بن مالك، المفضليات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار=

وإذا تهيـجُ الـرِّيـحُ من صُرَّادهـا ثَلْجـاً ينيـخُ الـنِّيْـبَ بالجَعْـجَـاعِ
أَحْـلَلْتَ بيتَـكَ بالجـميـع وبعضهم متـفـرِّقٌ ليـحُـلَّ بالأوزاعِ

وقال سنان بن أبي حارثة المُرِّي[17]:

وقـد يَسَـرْتُ إذا ما الشَّـوْلُ رَوَّحَهـا بَرْدُ الـعَـشِـيِّ بشَـفَّـانٍ وصُـرَّادِ
ثُمَّـتَ أَطـعـمتُ زادي غير مُدَّخِـرٍ أهـل المَـحَـلَّةِ من جارٍ ومـن جادِ

وقال عمرو بن شأس الأسدي[18]:

إذا الشَّـوْلُ راحت وهي حُدْبٌ حَدابـرُ وهـبَّتْ شمالاً حَرْجَفـاً تحفـرُ الفحـلا
رأيـتَ ذوي الحـاجـاتِ يَتَّبِـعُـونَنَـا نُهين لهم في الحُجْـرَةِ المـالَ والـرَّسَـلا

وقال أيضاً[19]:

وإنِّي لأعطـي غَثَّـهـا وسَـمِـيْـنَهَـا وأَسـري إذا ما الليـلُ ذو الظُّلْمـة آدلَهَمْ
إذا الـثَّـلْجُ أضحى في الـديـار كأَنَّـه منـاثـرُ ملحٍ في السُّهـول وفي الأكَمْ
حذاراً على ما كان قَدَّمَ والـدي إذا رَوَّحَـتْـهـم حَرْجَفٌ تطـرُدُ الصِّـرَمْ

= المعارف بمصر، ١٩٥٢م، ص٦٢.
الصراد: ريح باردة برَشّ مطر. النيب: النوق المسان. الجعجاع: موضع البروك. الأوزاع: المتفرقون.

(١٧) سنان بن أبي حارثة المري، المفضليات، ص٣٥٠.
يسرت: كنت أحد الأيسار وهم المتقامرون. الشول: الإبل التي شالت ألبانها، أي: ارتفعت وجفَّت بعد إلقاح. الشَّفان والصُّراد: ريح باردة. الجادي: المجتدى الذي يطلب الجِدة أي العطية.

(١٨) عمرو بن شأس الأسدي، شعره، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، طبعة النجف الأشرف، ١٩٧٦م، ص٤٦.

(١٩) المصدر السابق، ص٦٨.
مناثر: جمع منثر وهو مكان الانتثار. الصِّرْمة: القطعة من الإبل.

المطر والجيش

وترتبط صورة المطر بصورة الجيش الذي يهتز ويَتَحَوَّل إلى سيول جارفة تغمر الوديان والسفوح. والخيول في المعركة تنطلق كَعَارضٍ متفجِّرٍ أو كَسَحابٍ دَفَعَهُ الرِّيح فٱندفَعَ يسحقُ كلَّ شيء أمامه. أمَّا السيوف فتتهاوى في عتمة المعركة كالبَرَد المنثور، أو كالمطر المنسكب، لكنَّها لا تمطر بالخير والرَّحمة، بل تمطر العذاب والنِّقمة والدم الأحمر..

ودائماً نرى وجه الحَرْب العبوس في الشعر الجاهلي ناقةً لقحت الأسِنَّة والرِّماح وحملت العداوة والبَغْضاء، وولدت الشُّؤْم والموت ودَرَّتْ دَرًّا كريهاً: دم الجريمة.

وقد سمُّوا الجيش الكثيف عارضاً وسحاباً، قال سلامة بن جندل[20]:

مَوْقِفُنا في غَيْرِ دارِ تَئِيَّةٍ ... ومُلْحَقُنا بالعارضِ المُتَأَلِّقِ[21]

وقال جَسَّاس بن نشبة التَّيْمي[22]:

فلما دَنَوا صُلْنا فَفَرَّقَ جمعَهُم ... سحابتُنا تَنْدَى أَسِرَّتُها دَما[23]

---

(٢٠) سلامة بن جندل التميمي، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، طبعة حلب، **١٩٦٩**، ص١٦٣.

(٢١) تئية: مكث وتلبُّث. متألق، يبرق ويضيء. العارض: الجيش شبَّهَهُ بالعارض من السحاب الذي يُظِل السماء.

(٢٢) جساس بن نشبة التيمي، ديوان الحماسة لأبي تمام، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة القاهرة، **١٩٥٥**، مج١، ص١٢٦.

(٢٣) سحابتنا: جيشنا الذي يشبه السحابة. تندى: ترشح. الأَسِرَّة: الأوساط والطرائق، يعني

وهـذه التسميـة من قبيـل التفـاؤل بالجيش فهو سحاب يمطر الموت الأحمر على الأعداء ويمطر الخير والرحمة والمغنم على فرسانه .

وصـورة المطـر من حيث هو مادة للحيـاة ومـادة للمـوت ظاهـرة في الحـديث عن الجيش ؛ فالجيش مطر رحمة وهو أيضاً مطر نِقْمَة .

قال المخبل السعدي[24] :

وإنَّـا أُنـاسٌ تعـرفُ الخيـلُ زَجْرَنـا   إذا أُمْطـرتْ سُحْبُ الصَّـوارم بالـدَّمِ

وقال الحارث بن صريم الأصغر[25] :

وكنَّـا إذا ما استمطَـرَ النـاسُ رَعْـدَنـا   رَعَـدْنـا فأمطـرنـا مُثَـقَّـفَـةً سُمْـرا
نجـود بها في كلِّ يوم كريهـةٍ   لأعـدائنـا حتى يُدِينـوا لنـا قَسْـرا

وقال هلال بن رزين[26] :

وأيـقـنـت الـقـبـائـل من جَنَـابٍ   وعـامـر أنْ سيـمـنَـعـهـا نصـيرُ
أَجـادت وَبْـلَ مُدْجِـنـةٍ فدرَّتْ   عليـهـم صَوْبَ ساريـةٍ درور
فولّـوا تحت قِطْـقِطِـهـا سِراعـاً   تكـبُّـهُـمُ المُـهَـنَّـدةُ الـذُّكـور[27]

واستخـدام المطـر في موضع النِّقمة والعذاب والشر والهلاك والموت كثيرٌ في الشعر

بطون الأدوية .

(٢٤) المخبل السعدي، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، تحقيق : عبد الحميد المعيني، طبعة نادي القصيم الأدبي، ١٩٨٢م، ص١٢٥ .

(٢٥) الحارث بن صريم الأصغر، شعر همدان وأخبارها، تحقيق : د. حسن أبو ياسين، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص٢٤٧ .

(٢٦) هلال بن رزين، ديوان الحماسة، (سبق ذكره)، ج١ ص١٢٦ .

(٢٧) أجادت : أرسلت، أي : أتت سحابة الجيش بمطر. الوَبْل : المطر الشديد القَطْر. المُدْجنة، المظلمـة. الصَّـوْب : نزول المطـر. السارية : السحابة التي تأتي ليلاً. الدرور: الكثيرة الدّر. القِطْقِط : صغار البَرَد. تكبُّهم : تصرعهم. المُهَنَّدَة : السيوف.

الجاهلي على نحو ما جاء في القرآن الكريم[٢٨].

ويتكرر في الشعر الجاهلي تشبيه المحاربين بالسيول التي جاشت وطَمَت وأغرقت وسحقت وأهلكت، أو بالمطر المنصب الذي يقلع كلَّ شيء، أو السحاب الذي يطمّ ويعمّ ويشمل الأعداء بالموت الزؤام.

قال عنترة بن شداد:

- إذا ما مشوا في السَّابغات حسبْتَهُمْ سيولاً وقد جاشت بهنَّ الأباطحُ[٢٩]

- فجاءوا عارِضاً بَرَداً وجئْنَا حريقاً في غريفٍ ذي ضرام[٣٠]

- سلي فزارة عن فعلي وقد نَفَرَتْ
في جحفلٍ حافلٍ كالعارضِ الهَطِلِ[٣١]

وقال بشر بن أبي خازم[٣٢]:

فلمّا رأونا بالنِّسار كأنَّنا نَشَاصُ الثُّريَّا هَيَّجَتْهَا جنوبُها..

وقال الجميح الأسدي[٣٣]:

لَجِبٍ إذا ابتدروا قنابلَهُ كنشاص يوم المِرْزَم السَّجْمِ

---

(٢٨) انظر القرآن الكريم، الأعراف آية ٨٤، وهود آية ٨٢، والشعراء آية ١٧٣، والأنفال آية ٣٢، والفرقان آية ٤٠.

(٢٩) عنترة بن شداد العبسي، (ت ٦١٤م)، الديوان، تحقيق: عبد المنعم شلبي، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (دون تاريخ)، ص٤٣.

(٣٠) المصدر السابق، ص١٥٨.

(٣١) المصدر السابق، ص١٣٢.

(٣٢) بشر بن أبي خازم الأسدي، (ت ٥٩٠م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص١٦.

(٣٣) الجميع الأسدي، منقذ بن الطماح بن قيس الأسدي، المفضليات، ص٣٦٧.
اللّجب: ذو الأصوات لكثرته. القنابل: جماعة الفرسان. النِّشاص: ما ارتفع من السحاب. المِرْزم: نجم له نوء. السَّجْم: السائل.

وقال قيس بن الخطيم[٣٤]:

جاءتْ بنـو الأوْسِ عارِضـاً بَرِداً تَحْلُبُـهُ الـريـحُ مُقـبـلاً حَلْبَـا
أرْعَـنَ مثـل الأتـيّ أعـقَـبَـهُ صَوْبُ مُلِثٍّ يُسَـيِّـلُ الحَـدَبَـا

وقد يأتي التعبير في الشعر الجاهلي عن الموت بالماء، قال أوس بن حجر[٣٥]:

صَبَـحْـنَ بني عَبْسٍ وأفْـنَـاءَ عامـرٍ بصَـادِقَـةٍ جَوْدٍ من المـاءِ والـدَّمِ

وقد نرى وَجْهاً للشَّبَه بين الجيش الجَحْفل الذي يسيل من الآكام على السفوح والـوديـان بالمطـر المنصبّ أوبالسيل العاتي الذي يتدافع تدافعاً هائلاً رهيباً . . . لكنَّ الشعراء لم يقصدوا هذه المشابهة الشكلية، ولا تمثيل الحركة في الزحف والتدافع، فقد كانـوا أصـدق حِسًّـا وأقـدر على تجسيم روح المـاء . . فالمـاء عنصر أساي من عناصر الحيـاة، وعَـدَّهُ الإنسـان القـديم أقـوى من الـتُّراب والهـواء والنـار، والمـاء فيـه القوة والتَّـدمـير . . وهـذا المعنى أراده الشعراء للجيش والمحاربين، ولا معنى لكثرة الجيش وتدافعه إذا لم يكمن فيه قوة الماء وتدميره.

(٣٤) قيس بن الخطيم، الديوان، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٢م، ص١٧٦.
الـبَرِد: الـذي فيـه بَرَد، أي جاء أولهم خفيفـاً كسحابٍ فيه بَرَد. الأرعن: الجيش يُشَبَّه برعن الجبل وهو أنفه. الأتِيّ: سيل يأتيك من غير أن يصيبك مطره. صَوْب مُلِثّ: مطر دائم.

المطر والناقة

تعلَّق الإنسان الجاهلي بشيئين مهمَّيْن في حياته: المطر والإبل؛ لأن طبيعة الحياة الـرعـويَّـة تفرضُ عليه تقديرهما، ولأن الصحراء الظامئة لا يطفىء عطشها إلَّا المطر، والحنـاجـر الجافة لا ترتوي إلَّا بِدَرِّ الناقة. . ولأنَّ الإبل تشتاق للمطر وتفرح به، ولأنَّ رحلات الصحراء والهجرات المتوالية كانت ـ في أغلبها ـ بَحْثاً عن الماء والمرعى.

وقد صَوَّر الشعر الجاهلي شَوْق الإبل للمطر وفرحها به، فهي لذلك تَشِيمُ البرق وتتعرفُ على مسقط الغيث وتنزع إليه.

قال عمرو بن قميئة(٣٦):

نَوَازِعُ للخَـال إذْ شِمْـنَـهُ على الـفُـرُدات يَحُلُّ السِّجَـالا(٣٧)

وقال الطفيل الغنوي(٣٨):

---

(٣٥) أوس بن حجـر التميمي، الـديـوان، تحقيق: محمـد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص١١٩.

(٣٦) عمرو بن قميئة، أبو كعب، (جاهلي قديم)، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، طبعة دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٥م، ص١٦٧.

(٣٧) الخـال: الغيم والسحـاب الذي يُظَنُّ فيه المطر. شِمْنَه: نظرن إليه لتحقيق أين يكون مطره. الفردات: موضع. السِّجال: الدلاء الضخمة المملوءة، وأراد بها هنا: المطر.

(٣٨) الطفيـل الغنـوي، الـديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٧م، ص٨٣.

ظعائن أَبْرَقْنَ الخريف وشِمْنَهُ   وخِفْنَ الهُمَام أن تُقَادَ قَنَابِلُه[39]

وقال خفاف بن ندبة[40]:

فيَمَّمْنَ اليَمَامَةَ مُعْرِقاتٍ   وشِمْنَ بروض عالجة الغَمَاما

وقد جمعت اللغة العربية بين المطر والإبل، فسموا ماء السماء دَرًّا[41]، وأطلقوا على الرياح التي تُلْقِح الغيث اسم: الحراجيج والنائجات والرَّامسات، وهذه التسميات يطلقونها على الإبل وجاءت في شعرهم كثيراً[42].

وجعلوا للسحب بَرْكاً وصدراً كصَدْر الجمل، قال امرؤ القيس[43]:

وأَلقى ببسيان مع الليل بَرْكَهُ   فأَنزل منه العُصْمَ من كلِّ مَنْزِلِ

ويتكرَّر في الشعر الجاهلي تشبيه السُّحب بجماعات النوق، وأصواتها بالرَّعد المزمجر، وكثيراً ما يبرز الشعراء في أكوام الغيم المُتَلَبِّد أَصوات النوق العِشار الحوامل التي تحنُّ إلى أولادها، أو بالنوق المُصَفَّحات اللاتي عُزلن عن أولادهن فيندبن ويشتكين بتَرْجيعٍ موجعٍ، وحنين مُؤْلم، أو تلك الخلايا (النوق التي عطفت على ولد غيرها لتَدِرَّ) التي ماتت أولادها فأصابتها آلام الثُّكْل فأخذت تدعو بصوت شَجِيٍّ وتنتحبُ بحنينٍ مُحْزِنٍ.

قال عبيد بن الأبرص[44]:

---

(39) الخريف: أول ما يجيء من المطر. الهُمَام: الملك. القنابل: جماعات الخيل.

(40) خفاف بن ندبة السلمي، شعره، حققه: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968م، ص95.

(41) أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم، الرياض، 1983، ج1 ص261.

(42) المصدر السابق، ج2، مادة (حرج) و(نأج) و(رمس).

(43) امرؤ القيس بن حجر الكندي، (ت 540م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1964م، ص24.

(44) عبيد بن الأبرص، (ت 600م)، الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي،=

كأَنَّ فيـه عِشَـاراً جِلَّةً شُرُفـاً ... شُعْـثـاً لَهامِـيـم قد همَّتْ بإرشـاحِ
بُحَّـا حنـاجـرهـا هُدْلاً مَشَـافِـرُهـا ... تُسـيـم أولادهـا في قَرْقَـرٍ ضَاحـي[٤٥]

وقال أبو ذؤيب الهذلي[٤٦]:

أَمِـنْـكِ بَرْقٌ أبيـتُ الـلـيـلَ أَرقُبُـهُ ... كأنَّـه في عراض الـشَّـأْمِ مصـبـاحُ
يَجُشُّ رَعْـداً كَهَـدْرِ الـفَحْـلِ تتبعُـهُ ... أُدْمٌ تَعَطَّفُ حَوْلَ الفَحْـل ضَحْضَـاحُ
فهـنَّ صُعْـرٌ إلـى هَدْرِ الـفـنـيـق ولم ... يَجْفُـر ولم يُسْـلِهِ عنهُـنَّ إلـقـاحُ[٤٧]

وقال خفاف بن ندبة[٤٨]:

كأنَّ الحُـدَاة والمـشـايـعَ وَسْطَـهُ ... وعـوذاً مطـافـيـلاً بأَمْـعَـزَ مُشْـرِقِ

وقال لبيد بن ربيعة[٤٩]:

كأَنَّ مُصَـفَّـحـاتٍ في ذُرَاه ... وأنـواحـاً عليـهـنَّ المـآلي
. . وحَـطٌّ وحـوشَ صاحـةَ من ذُراهـا ... كأنَّ وعـولهـا رُمْـك الجِـمـال

= القاهرة، ١٩٥٧م، ص٣٤ وما بعدها. والقصيدة تنسب لأوس بن حجر، الديوان، ص١٣ - ١٧.

(٤٥) العشار: النوق الحوامل. الجلّة: السمان. الشُرُف: السمان أيضاً. الشعث: المتلبدة الشعر. اللهاميم: الغزاز. أرشاح: من أرشحت الناقة إذا اشتد فصيلُها وقوي لأنها تحنّ في هذا الوقت.

(٤٦) أبو ذؤيب الهذلي، (ت ٢٨هـ)، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار فراج، القاهرة، ١٩٣٧م، ج١ ص١٦٧.

(٤٧) يجش: يستخرج. ضحضـاح: كثير، وأصله قليـل، وأراد جماعـة الإبـل. صعر: ميل. لم يجفر: لم تذهب غلمته.

(٤٨) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، ص٢٥.

(٤٩) لبيد بن ربيعـة العـامـري، (ت ٥٤٠م)، الـديوان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبع وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢م، ص٨٨ وما بعدها.

وقال حسان بن ثابت(٥٠):

طوى أبــرق الـعَــزَّاف يُرْعِــدُ مَتْنَــهُ حنــين المَتَــالي نحــو صَوْتِ المُشـايــع

ومن الجـانب الآخـر نراهم يُشَبِّهون جماعات الإبل بأكوام الغيم، وسُرْعتها وهي منطلقـة بسـرعـة السَّحـاب الخفيف أو السحـاب الذي أطاع الريح، وأصواتها بهزيم المطر المُنْثَال.

قال امرؤ القيس(٥١):

تروحُ إذا راحَــتْ رواح جَهَــامــةٍ بإثــر جَهَــامٍ رائــحٍ مُتَــفَــرِّق

وقال الأخنس بن شهاب التغلبي(٥٢):

تَطـايَــرُ عن أعــجـاز حُوش كأنَّهــا جَهَــامٌ أَرَاقَ ماءَه فهــو آئــبُ

وقال الطفيل الغنوي(٥٣):

إذا وردتْ ماءً بلَيْــلٍ كأنَّهــا سَحَــابٌ أطــاعَ الــرِّيحَ من كُلِّ مَخْرِمِ

وقال المخبَّل السعدي(٥٤):

لها لجَبٌ حول الحــيــاض كأنَّــه تَجاوبُ أَغْــيــاثٍ لهنَّ هَزِيــمُ

وجـاءت السحب في أكثـر من موضع في الشعر الجاهلي بصورة النوق العِشار، أو

---

(٥٠) حسان بن ثابت الأنصاري، (ت ٥٤هـ)، الديوان، تحقيق: سيد حنفي، طبع الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٤م، ص٢٧٨.

المتالي: النوق ومعها أولادها. المشايع: الراعي، والصوت: الشياع.

(٥١) امرؤ القيس بن حجر الكندي، (ت ٥٤١)، الديوان، ص١٧٠.

(٥٢) الأخنس بن شهاب التغلبي، (جاهلي قديم)، المفضليات، ص٢٠٥.

(٥٣) الطفيل الغنوي، الديوان، (سبق ذكره)، ص٧٨.

(٥٤) المخبـل السعـدي التميمي، شعـر بني تميم في العصـر الجاهلي، تحقيق: عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي، ١٩٨٢م، ص١٢٤.

النوق المتالي، أو النوق الحِيال التي تُلْقِحُها رياحُ الغَيْث، والرياح هي التي تحلب دِرَّة الناقة (السماء) كما يحلب الأجير نوقه؛ يَبُسُّ لها، ويَمُسُّها برِفْق، ويُصْدِرُ أصواتاً رقيقةً حتى تدرَّ عروقُ ضروعها بالمطر العَذْب النقي.

قال امرؤ القيس(٥٥):

فلما تَدَلَّى من أعالي طَميَّةٍ ... أَبَسَّتْ به ريح الصَّبَا فتَحَلَّبا

وقال أيضاً(٥٦):

راح تُمْرِيهِ الصَّبا ثم انتحى ... فيه شؤبوبُ جنوبٍ مُنْفَجِر

وقال خفاف بن ندبة(٥٧):

إذا ما مَرَتْهُ ريحٌ يمانيةٌ ... يردُّ ريعانَهُ إلى نَضَد

وقال طرفة بن العبد(٥٨):

مرته الجنوبُ ثم هبَّت له الصَّبا ... إذا مَسَّ منها مسكناً عُدْمُلاً نَزَلْ

كأَنَّ الخلايا فيه ضَلَّتْ رِبَاعُها ... وعُوذاً إذا ما هَزَّهُ رعدُه احتفلْ

وقال الطفيل الغنوي(٥٩):

أَبَسَّتْ به ريحُ الجنوب فأَسعدتْ ... روايا له بالماء لَمَّا تَصَرَّم

---

(٥٥) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، ص٣٤٠.

(٥٦) المصدر السابق، ص١٤٥.

(٥٧) خفاف بن ندبة السلمي، شعره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

(٥٨) طرفة بن العبد البكري، الديوان، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥، ص١١٣.

(٥٩) الطفيل الغنوي، الديوان، ص٧٥.

وقال سحيم عبد بني الحسحاس[٦٠]:

مرتْـهُ الـصَّبـا وانـتـحـتْـهُ الجنـو ... بُ تَطْحَـرُ عنـه جَهَـامـاً خِفَـافـا
يكُـبُّ الـعِـضَـاه لأذْقـانهـا ... كَكَـبِّ الـفـنيـق اللِّقـاح العِجَـافـا

وقال لبيد بن ربيعة[٦١]:

مَرَت الجـنـوبُ له الـغـمام بوابـلٍ ... ومُجَـلْجِـلٍ قَرِدِ الـرَّبَـاب مُديـم

وقال أبو دؤاد الإيادي[٦٢]:

وغـيـثٍ تَوَسَّـن منـه الـرِّيـا ... ح جُونـاً عِشـاراً وعُـونـاً ثقـالا
إذا كَرْكَـرَتْـهُ ريـاح الجـنـو ... ب أَلْـقَـحْـنَ منـه عجَـافـاً حِيـالا
وإِنْ راحَ ينهضُ نَهْضَ الـكـسـيـ ... ر جَأْجَـأَهُ المـاءُ حتـى أسـالا

فالسحب هنا ليست بُخاراً متكاثفاً ـ كما يقول علماء الطبيعة ـ إنما هي نوق عِشار ونوقٌ حِيال تُلْقحها رياح الصَّبا أو رياح الجنوب في الغالب.

أيمكن أن يكـون العـرب قد تصـوروا السـماء ناقـة حقيقيـة لا مجازاً، والمطر من درِّها؟ هذا ما أُرجّحُهُ؛ فقد سمَّوا السماء (الجرباء) وهي التي أَصابها العُرّ لكثرة النجوم فيهـا تشبيهـاً بالجَـرَب في بَدَن البعـير، وسمّـوا النـاقـة (عليـاء) والعليـاء من أَسـماء السماء[٦٣]، وقد عرفت الميثولوجيا القديمة مثل هذا التصور، فقد مثَّلَ الفراعنة السماء

---

(٦٠) سحيم عبد بني الحسحاس الأسدي، الديوان، تحقيق: عبد العزيز الميمني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٨م، ص٤٦ وما بعدها.

(٦١) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص١١١.

(٦٢) أبو دؤاد الإيادي، الديوان، ضمن كتاب: دراسات في الأدب العربي، تحقيق: غوستاف فون غرنباوم، ترجمة: إحسان عباس وآخرين، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م، ص٣٣١.

(٦٣) أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، ج١ ص٢٦٣.

امرأةً منحنيةً فوق الأرض يَتَحَلَّبُ المطرُ من ثَدْيَيْها، وتصوَّروا السماء بقرة هائلةً ولدت الشمس، فكان لها ضرع كبير يحلب مطراً[٦٤].

(٦٤) فرانكفورت (هـ) وآخرين، ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، طبع مكتبة الحياة، بغداد، ١٩٦٠م، ص٣١ وص٦١. وانظر تفصيلات أخرى لهذا الموضوع في كتابي: الإبل في الشعر الجاهلي، الجزء الأول، ص٢٦٣ وما بعدها، طبعة دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م.

المطر والفرس

فكرة المطر وفكرة الفرس متماثلتان في ذهن الشاعر الجاهلي تماثلاً غريباً؛ فالفرس مُسِحّ وسابح ودرير، وجهد الفرس يرتبط دائماً بالوابل المُتَحَلِّب أو بشُؤْبوب الغيث أو شؤبوب العشي، والبرق اللامع يلمع ويغمض كخيلٍ بُلْق تَكَشَّفُ عنها أجلالها، وغالباً ما تأتي صورة الخيل المُسْتَرْسِلة بصورة السيل العاتي أو المطر المنصبّ الذي يتلقّاه الإنسان بخوف وتَهَيُّب. وقد عَبَّرَ مجمّع بن هلال (من تيم الله بن ثعلبة) عن هذه الفكرة بتركيز شديد فقال(٦٥) :

وخيل كأسراب القَطَا قَدْ وَزَعْتُها   لها سَبَلٌ فيه المَنِيَّةُ تَلْمَعُ

(السَّبَل : المطر).

فالخيل كأسراب القَطَا الذي يريد الماءَ، والعرب يضربون المثل بهداية القطا؛ لأنه يهتدى به في المجاهل، ويعرف الماء.. لذلك كان الخيل لها سَبَلٌ.

وقد نرى في هذه الصورة معاني التَّتابع والاسترسال والتحفُّز والانطلاق والانثيال والهجوم والمباغتة والاندفاع.. لكن هذه المعاني كلّها لا يمكن أن تلغي من أذهاننا فكرة المطر التي تشتمل عليها صورة الخيل.

وقد عَقَرَ العربُ الخيل على قبور الموتى من الأشراف والأسياد وكانوا يُلَطِّخون

---

(٦٥) مجمع بن هلال، ديوان الحماسة لأبي تمام، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٩٥٥م، ج١ ص٢٩٧.

القبور بدمائها، والعلماء مختلفون في الباعث على العقر، قالوا: إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره في حياته إكراماً لضيفانه(٦٦)، وقال آخرون: إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام، وقيل: إنَّ الخيل أنفس أموالهم، فكأنهم يريدون بذلك أنَّها قد هانت عليهم لعِظَم المُصيبة(٦٧).

واستمرَّت طقوس العَقْر على القبور حتى عصور متأخرة، فقد عقر الفرزدق على قبر بشر بن مروان والي العراق لأخيه عبد الملك(٦٨)، ودعا للعقر زياد الأعجم وهو يرثي المغيرة بن المهلب، قال(٦٩):

فإذا مَرَرْتَ بقبره فاعقرْ به كُوم الهِجَان وكلَّ طِرْفٍ سابح
وأنْضَحْ جوانبَ قبره بدمائها فلقد يكونُ أخَا دَمٍ وذَبَائح

ولا أعتقد أنَّ نحر الخيل على القبر وتبليله بالدم عادة يراد بها إظهار تقدير أهل الميت أو تمثيل كرم الراحل بعد وفاته، بل لا بد أن يكون هذا النَّحر له علاقة ما بالاستمطار فعظام الموتى استخدمها العرب في طقوس الاستسقاء(٧٠)، والفرس لها علاقة ما بالمطر، ذكر القزويني أنَّ بعض الصينيين يجتمعون في سني القحط ويلقون فرساً في غدير عندهم، والناس يقفون على أطرافه كلما أراد الفرس الخروج من الماء

---

(٦٦) الخالديان، أبو بكر محمد (ت ٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد (ت ٣٩٠هـ)، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، حققه: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥م، ج٢ ص٣٥٧.

(٦٧) أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر بالفجالة، ١٩٧٢م، ص٤٩٢.

(٦٨) محمد نعمان الجارم، أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٢٣م، ص٩٨.

(٦٩) الخالديان، الأشباه والنظائر، ج٢ ص٣٥٧.

(٧٠) ابن قتيبة الدينوري، كتاب المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، ص٤٣٣.

منعـوه، ومـا دامت الفـرس في المـاء يأتيهم المطـر، فإذا مُطـروا قدر كفـايتهم، وامتلأ الغـديـر، أخـرجـوا الفرس وذبحوه على قلة الجبل، وتركوه حتى تأكله الطير، فإن لم يفعلوا ذلك في شيء من السنين لم يُمْطروا[71].

فلا عجب ـ إذنْ ـ أن ترتبط الفرس بصورة دُفُعات المطر التي تنثال في عتمة الليل فهي لذلـك أشـد عنفـاً وأكثر برودةً ودائماً ينثال مطر الفرس (عشيةً) بما يوحي بالمباغتة والمداهمة غير المتوقَّعة، فهو لذلك يُسَبِّب القلق والتوتُّر والتأزُّم؛ لذلك يتكرر في وصف الفـرس العبـارات التـاليـة: شؤ بوب العشي، غيث العشي، الشؤ بوب ذي البَرَد، شؤ بوب غيث. .

قال امرؤ القيس[72]:

ووَلَّى كشُؤْبوب العَشِيِّ بوابلٍ ... ويخرجْنَ من جَعْدٍ ثَرَاه مُنْصَبِّ
خفاهُنَّ من أنفاقهنَّ كأنما ... خَفَاهنَّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّب

وقال أيضاً[73]:

وأَدْرَكَهنَّ ثانياً من عِنانه ... كغَيْثِ العَشيِّ الأقْهَبِ المتودِّق

وقال النابغة[74]:

والخيلُ تَمْزَعُ غَرْباً في أعِنَّتها ... كالطَّيْر تنجو من الشُّؤْبوب ذي البَرَد

---

(٧١) القـزويني، زكـريـا بن محمـد، آثـار البـلاد وأخبـار العبـاد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص٥٤. وانظر بحثي المشار إليه سابقاً: الاستسقاء في الشعر الجاهلي.

(٧٢) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، (سبق ذكره)، ص٥٠.
الجَعْد: الشديد النداوة. الشؤبوب: دفعة المطر. خفاهن: أظهرهن واستخرجهن. الأنفاق: أسراب تحت الأرض. الوَدْق: المطر. المُجَلِّب: الذي له جَلَبَة.

(٧٣) المصدر السابق، ص١٧٤.

(٧٤) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص٢٣.

وقال علقمة الفحل[٧٥]:

فأتْبَعَ آثار الشياهِ وليدُنا حثيثٍ كغيث الرَّائح المُتَحَلِّب
خفى الفأْرُ من أنفاقه فكأنَّما تَخَلَّله شؤبوبُ غَيْثٍ مُنَقِّب

وقال زهير بن أبي سلمى[٧٦]:

فأَتبعَ آثارَ الشياه وليدُنا كشُؤْبوب غَيْثٍ يَحْفِشُ الأكْمَ وابلُه

وقال الطفيل الغنوي[٧٧]:

كأَنَّ رِعال الخيل لما تَبدَّدَتْ بوادي جَرادِ الهَبْوَة المُتَصَوِّب
وهَصْنَ الحصى حتى كأَنَّ رُضاضَهُ ذُرى بَرَدٍ من وابلٍ مُتَحَلِّب

وقال طرفة بن العبد[٧٨]:

مرفوعُها زولٌ وموضوعُها كَمَرِّ غَيْثٍ لَجِبٍ وَسْطَ ريحْ
تثعب بالفارسِ ثَعْباً كما يَثْعَبُ بالقرقر ماء النَّضِيحْ

وقال لبيد بن ربيعة[٧٩]:

---

(٧٥) علقمه الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م، ص٩٤.

(٧٦) زهير بن أبي سلمى، الديوان، تقديم، أحمد زكي العدوي، دار الكتاب المصرية، ١٩٤٤م، ص١٣٥.

(٧٧) الطفيل الغنوي، الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨م، ص٢٥ - ٢٦.

(٧٨) طرفة بن العبد: الديوان، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥م، ص١٧١.
الرفع: المبالغة في السير. زول: نهوض. لجب: كثير الصوت. تثعب: تتدفق في سيرها. القرقر: أرض مطمئنة لينة.

(٧٩) لبيد بن ربيعة، الديوان، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة وزارة الإرشاد والأنباء الكويت،=

طوتـه المـنـايـا فوق جرداء شَطْبَـةٍ تَدِفُّ دفـيـف الـرائـح المُـتَـمَطِّـرِ

وقال خفاف بن ندبة(٨٠):

أَصـاحِ ترى الـبرقَ لم يَغْـتَـمِضْ إذا زَعْـزَعَـتْـهُ الجنـوبُ استَطـارا
كأَنَّ تَكَـشُّـفَـهُ بالـنَّـشَـاص بُلْقٌ تَكَـشَّـفُ تَحْمـي مهَـارا

وقـد نرى في أرسـال الخيل المتتابعة أَثناء الغارة شَبَهاً بأَرسال المطر المتدافع، لكن الشعراء لا يريدون التتابع والتدافع والمباغتة والهجوم فقط، إنما يريدون ما في المطر من معـاني النِّقْمَـة والعـذاب، وهـذه المعـاني تتمثَّـل في ذلـك السيـل العاتي الذي يُمَثِّل الشعراء به اندفاع الفرس وانحطاطها، كقول امرىء القيس(٨١):

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْـبِـلٍ مُدبِـرٍ معـاً كجُلْمـود صَخْـرٍ حَطَّـه السيلُ من عَلِ
كمـيـت يزلُّ الـلِّبْـدُ عن حال متْنِـهِ كما زَلَّـتِ الـصَّـفْـواء بالمُـتَـنَـزَّلِ

= ٢٩٦٢م، ص٤٩.

(٨٠) خفـاف بن ندبـة السلمي، شعـره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعـة المعـارف، بغـداد، ١٩٦٨م، ص٧٨ وما بعدها.

(٨١) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، (سبق ذكره)، ص٢٢ وما بعدها.

المطر وحمار الوحش

مشكلة المطر أهم المشكلات التي يعرض لها الشاعر الجاهلي في قصة حمار الوحش وأتنه، وتبدأ القصة بوصف حمار الوحش المكتنز شحماً ولحماً، وهو يراعي أتنه في روضة مُعْشبة قد انهلَّ عليها المطر فأينعت وأزهرت. . يتودد لهذه الأُتن ويتعشَّقهن، ويَنْعم بحياة أُسريَّة ناعمة مطمئنة، لكنَّ طِيْب العيش لا يدوم. . والمشكلة تَبْدأ عندما يتوقَّف نزول المطر ويَقِلُّ النَّدى ويُصَوَّح البقل وتَنِشّ الغدران وتهبّ رياح السّموم الحارة. . من هنا تبرز المشكلة الأساسية في قصة حمار الوحش: مشكلة الماء أو مشكلة المطر.

تأْتي الأتن إلى الحمار الحكيم يستشرنه في أَمرهن، فيبيت ليله ساهراً تُؤَرِّقه الهموم، ثم تُسْعِفُه الذاكرة ويدفعه الظَّمأُ إلى اتخاذ القرار الصَّعْب. . الهجرة إلى مساقط الغيث وعيون الماء، فيعزم أَمره، ويأْمر الأتن بالهجرة، يسوقهن ويستحثُّهن بالعضّ والكَدْم، ويصدق حسّه إذ يستدعيه صوت الماء العذب البارد، فتعوم الأتن في شريعة الماء تروي غُلَّتها وتطفىء عطشها الملتهب، لكن الصَّياد الجائع يتحفَّز ثم يقذفها بسهم طائشة تطير فوق ظهورها، فتنطلق الحمر مذعورة فزعة تنشد السلامة، ويعضُّ الصياد أَنامله ندماً يلوم حظَّه العاثر ويتذكَّر زوجه اللَّجوج وأولاده المُسْغبين. . وهكذا تبقى الحمر في الصحراء العربية ظَمْأى، ويبقى الصياد وأهله جوعى.

وسأُمثِّل لهذه القصّة بقول ربيعة بن مقروم[٨٢]:

(٨٢) ربيعة بن مقروم، المفضليات، ص١٨١ وما بعدها. =

كأنّي أوشِّحُ أنساعَهَا ... أقبَّ من الحُقْبِ جَأْباً شَتِيما

يُحَلِّىء مثلَ القَنا ذُبَّلاً ... ثلاثاً عن الورْد قد كُنَّ هِيما

رَعَاهُنَّ بالقُفِّ حتى ذَوَتْ ... بُقُولُ التَّنَاهِي وهَرَّ السَّموما

فلمّا تَبيَّنَ أنَّ النَّهارَ ... تَوَلَّى وآنس وَحْفاً بَهِيما

رَمَى الليلَ مُسْتعرضاً جَوْزَهُ ... بهنَّ مِزَرًّا مِشَلًّا عَذُوما

فأوردها مع ضَوْء الصَّباح ... شرائعَ تَطْحَرُ عنها الجَميما

طوامِيَ خُضْراً كلونِ السَّماء ... يزينُ الدَّراريُّ فيها النُّجوما

وبالماء قَيْسٌ أبو عامرٍ ... يُؤَمِّلُها ساعةً أنْ تَصُوما

ويمكن أنْ نُلَخِّص العناصر الأساسية الثابتة في قصة حمار الوحش بالنقاط التالية:

(أ) رعي الحمار وأُتُنه في الرياض المُعْشبة التي هي من نتاج المطر.

(ب) جفاف الغدران، وهجوم الجَدْب والمَحْل، وهبوب رياح السموم والحَرّ اللافح.. والإحساس بالظما والعطش.

(جـ) مشكلة الماء هي أساس القضية في قصة حمار الوحش.. فالحمر عطشى لم ترد الماء ولم تَهْتَدِ إلى موضعه.. وهي مضطرة للهجرة بحثاً عنه.

(د) رحلات الحُمُر الوحشية تنتهي غالباً بورود الماء الذي يجمع حوله الأعداء، ومن أجله تنشب الحروب ويتم الصراع مع الجوعى والطامعين.

= أوشِّح: أشد. الحُقْب: التي بطونها بياض. الجَأْب: الغليظ. الشتيم: الكريه الوجه. يُحَلِّىء: يمنع من الماء. ذُبَّلاً: ضوامر. هيماً: عطشى. القف: الأرض الصلبة. التناهي: أرض تحجز الماء. هرّ: كره. صوادي: عطشى. خزر: ضيقة العيون. تغيما: أن تعطش. الوحف: ما غزر من النبات واسودّ، يريد الليل. جوزه: وسطه. الزَّرّ: العَضّ. الشَلّ: الطَّرْد. العَذْم: العَضّ. تطحر: تدفع. الجميم: ما اجتمع على الماء من قذى. الطوامي: الكثيرة الماء.

(هـ) المـاء في قصـة حمار الـوحش أهم عناصر هذه القصَّة وهو مُحَرِّك الأحداث فيها . .
فالهجـرة كانت حول المـاء . . والصِّـراع كان عند الماء أو من أجله ، وكأنما الماء هو الأمل المنشود والغاية القصوى في حكاية حمار الوحش .

ودائماً يكون المَشْرع العَذْب هو الهدف الذي تسعى إليه الحُمُر المُهاجرة أو الشاعر الظامىء .

قال امرؤ القيس[83] :

ـ فأَوْرَدَهـا من آخـر اللَّيْـل مَشْـرَبـاً ... بلاثـقَ خُضْـراً ماؤُهـن قَليصُ
ـ جَأْبٌ أَضَـرَّ به الـتـعـداء صيفـتـه ... حتـى دَعَـتْـهُ عيـونٌ ماؤُهـا شعـب

وقال أوس بن حجر[84] :

تَذَكَّـر عَيْـنـاً من غُمازَةَ ماؤُهـا ... له حَبَـبٌ تَسْـتَـنُّ فيـه الـزَّخـارفُ
له ثَأْدٌ يَهْتَـزُّ جَعْـدٌ كأَنَّـه ... مُخالـطُ أرجـاء الـعُـيـون القـراطفُ

وقال زهير بن أبي سلمى[85] :

عَزَم الـورود فآب عَذْبـاً بارداً ... من فوق شدّ يسـيـل وأَلهـب

وقال بيد بن ربيعة[86] :

فَتَـضَـيَّـفـا ماء بدَحْـل سَاكـنـاً ... يَسْـتَـنُّ فوق سَرَاتـه الـعُـلْجُـوم

وقال أبو ذؤيب الهذلي[87] :

---

(٨٣) امرؤ القيس بن حجر الكندي ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص١٨٠ و ٣٠٤ .
(٨٤) أوس بن حجر، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص٦٧ .
(٨٥) زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص٣٧١ .
(٨٦) لبيد بن ربيعة ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص١١٦ .
(٨٧) أبو ذؤيب الهذلي ، المفضليات ، ص٤٢٣ .

فَشَرَعْنَ في حَجَرات عذبٍ باردٍ حَصِب البطاح تَغِيبُ فيه الأكرُعُ
فشربنَ ثم سَمِعْنَ حِسًّا دونه شرفُ الحجاب وريب قَرْعٍ يَقْرَعُ

وقال الأعشى(٨٨):

فأوردها عَيْناً من السِّيفِ ريّه بها برأ مثل الفسيل المُكَمَّم

وقال متمم بن نويرة(٨٩):

حتى إذا وَرَدا عيوناً فَوْقَها غابٌ طوالٌ نابتٌ ومُصَرَّعُ
لاقى على جنب الشريعة لاطِئاً صفوانَ في ناموسه يَتَطَلَّعُ

ومن هنا يتبين لنا أن قصة حمار الوحش لا يمكن فهمها بمعزل عن فكرة المطر الذي انهلَّ فأنبت الرياض المُعْشِبة التي رعتها الحُمُر ناعمة البال، ثم أدَّى توقف نزول المطر إلى الجفاف والقَحْط فكانت الهجرات في الصحراء العريضة بحثاً عن مورد آمن، وما أكثر هذه الموارد في الصحراء العربية، ودائماً تنتهي رحلة الحُمُر بالوصول إلى شريعة الماء التي لا يتحقق عندها الأمن والسلام، فتؤثر الحُمُر السلامة، وتبتعد عن المواجهة والصراع، وستبقى تبحث عن المورد الآمن أوعن الماء الصافي في كل مكان في الجزيرة العربية.

(٨٨) الأعشى، الديوان، (سبق ذكره)، ص١٢١.
(٨٩) متمم بن نويرة، المفضليات، ص٥٠.

المطر والظليم

للمطـر أهميـة بالغـة في قصة الظليم والنعامة التي تكرر ذكرها في الشعر الجاهلي، فالتَّنُّوم، والآء، والحَنْظل، وما يَنْعَم به النَّعام من نبات الصحراء، كل ذلك من نتاج المطـر، والمطـر يثـير الفـزع والهَلَع في قلب الظليم، فيهيـج هلعـاً وفـزعاً، فيهرب من العـاصفـة والـريـح والغيم المتكـاثف والـرَّذاذ وهو يفعلُ ذلك ليحْفظَ البيض من المطر الـذي يفسـده ويضُـرُّ به، أو ليبني حياة آمنة ولينجبَ الذُّرِّية ويحفظ النَّوع من الهلاك، ومـا إنْ يصـل الظليم والنعـامـة إلى العش حتى تسـرع النعـامـة فتجثم عليـه ناشرةً جنـاحيهـا الغـزيـرين لتحمي البيض من المطـر ولتبعث فيـه دفء الحياة، ودائماً نرى الظليم يعالج الظُّلْمة ويعاني الريح والمطر، قال زهير بن أبي سلمى[٩٠]:

هَلْ تُبْـلِغَـنِّي إلـى الأخيـار ناجِيـةٌ ... تَخْدي كَوَخْـدِ ظليـم خاضـبٍ زَعِـرِ

في يوم دَجْـنٍ يوالي الـشَّـدَّ في عَجَـلٍ ... إلـى لوى حَضَـنٍ من خيفـةِ المَطَـرِ

وقال علقمة الفحل[٩١]:

حَتّـى تَذَكَّـر بيـضـاتٍ وهَـيَّجَـهُ ... يومُ رَذَاذٍ عليـه الـريـحُ مَغْـيـومُ

وقال لبيد بن ربيعة[٩٢]:

تنـجـو نَجَـاء ظليـمِ الجَـوّ أفْـزَعَـهُ ... ريـحُ الـشَّـمَال وشَـفَّـانٌ لَها دِرَرُ

---

(٩٠) زهير بن أبي سلمى، الديوان، (سبق ذكره)، ص٣١٦.

(٩١) علقمة الفحل، الديوان، ص٥٩.

(٩٢) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص٦٨.

وعندما يصف الشعراء أكوام الغيم المتكاثف يُشَبِّهونها بالنعام المُعَلَّق من أرجله، وهـذه الصـورة تبرز بوضـوح تأثـير المطـر في النعـام، فهو شَرٌّ مستطير ونقْمَة كبرى، يؤدِّي إلى هلاك النعـام وتعليقـه من أرجله؛ لذلـك كان الشعـراء يرسمون دائماً فَزَعَ الظليم من المطر وخوفه وهربه وشَدِّهِ وهلعه.

قال سلامة بن جندل(٩٣):

وَمَجَـرِّ ساريـةٍ تَجُرُّ ذُيُـولَهـا ... نَوْسَ الـنَّعـام تُنَـاط بالأعْـنَـاق

وقال خفاف بن ندبة(٩٤):

فدع ذا ولـكـن هل ترى ضَوْء بارقٍ ... يُضـيء حَبِـيًّـا في ذُرى مُتَـألِّـقِ
يَجُرُّ بأكـنـاف الـبِـحـار إلى المَـلا ... رَبَـابـاً له مثـل الـنَّـعَـام المُـعَـلَّقِ
إذا قلت تَزْهَـاهُ الـريـاح دَنَـا له ... رَبَـابٌ له مثـلُ الـنَّـعـام المُـوَسَّقِ

وقال الأعشى(٩٥):

بل هل ترى بَرْقـاً على الـ ... جَبَـلَين يُعـجـبـني انـجـيـابُـهْ
من ساقـط الأكْـنَـاف ذي ... زَجَـلٍ أرَبَّ به سَحَـابُـهْ
مثـل الـنَّـعـام مُعَـلَّقـاً ... لَمَّا دنـا قَرِداً رَبَـابُـهْ

---

(٩٣) سلامة بن جندل، الديوان، ص١٣٦.

(٩٤) خفاف بن ندبة، الأصمعيات، ص٢٥ ـ ٢٦.

(٩٥) الأعشى، الديوان، ص٣٢٥.

المطر والأوابد الأخرى

ويأْتي ذكر المطر في وصف العُقاب والقَطا والضَبّ والذئب.

والعُقَاب شديدة الوحشيَّة تعتصم في ذُرى الجبال الشاهقة، وتقترب من النَّدَى والطَّلِّ والغيم، وقد شُهرت بوقفتها الشامخة على قمم الآكام، وهي تنفض الضَّريب والنَّدى عن ريشها المتكاثف استعداداً للانقضاض على الفريسة. قال الأجدع الهمداني[96]:

إذا قيل يوماً يا صباحاً رأيتَها كعِقْبان يوم الدَّجْن أَلْثَقَها القَطْرُ

وقال سلمة بن الخرشب الأنماري[97]:

خُداريةٍ فَتْخاء أَلْثَقَ ريشَها سحابةُ يومٍ ذي أهاضيب مَاطِر

وقال الحارث بن وعلة[98]:

نجوتُ نجاءً لم يَرَ الناس مثلَهُ كأَنِّي عُقَابٌ عند تَيْمَنَ كاسِرُ
خُداريةٌ سَفْعاء لبَّدَ ريشَها من الطَّلِّ يومٌ ذو أَهاضيبَ ماطِرُ

وقال عبيد بن الأبرص[99]:

---

(٩٦) الأجدع الهمداني، شعر همدان وأخبارها، (سبق ذكره)، ص٢٢٤.
(٩٧) سلمة بن الخرشب الأنماري، المفضليات، ص٣٧.
(٩٨) الحارث بن وعلة، المفضليات، ص١٦٥.
(٩٩) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص١٨.
اللّقوة: العُقاب. الطَّلوب: المُلِحَّة في الطَّلَب. تَحِنّ: تتغير رائحتها. إرَم: جبل صغير. =

كأنَّها لِقْوةٌ طلوبُ تَجِنُّ في وَكْرِها القُلُوبُ
باتَتْ على إِرَمٍ رابئةً كأنَّها شَيْخَةٌ رَقوبُ
فأَصْبَحت في غَداةِ قِرَّةٍ يسقُطُ عن ريشها الضَّريبُ
فأَبصرتْ ثَعْلباً من ساعةٍ ودونه سَبْسَبٌ جَديبُ
فنفضتْ ريشَها وانْتَفضَتْ وَهْيَ من نهضة قريبُ

وتأْتي صورة المطر متَّصلة بالحديث عن موارد الماء في الصحراء الطَّامسة الصُّوى حيث لا دليل على الماء سوى القَطَا الهادي الذي ضُرب به المثل في الهداية(١٠٠)، لأنَّه يهتدى به في المجاهل ويعرف مواضع الماء.

والحديث عن القَطَا يأْتي في معرض قياس سرعة الفرس والناقة ويجعل الشعراء القطا ظامئاً في يوم حرور، لذلك فهو يُصَبِّحُ الشريعة مسرعاً متهاوياً:

قال عبيد بن الأبرص في صفة الخيل(١٠١):

القائد الخيل تَرْدي في أَعِنَّتِها وِرْدَ القَطَا هَجَّرتْ ظِمْأً إلى الثَّمَدِ

وقال أَيضاً(١٠٢):

ثم عجناهُنَّ خُوصاً كالقَطَا الـ قَارِبِ الماء من أَيْنِ الكَلال

أَمَّا الإِبل الناجية السريعة فهي كأَسراب القَطَا التي هاجها العطش، فانطلقت تتهاوى نحو شريعة الماء فجراً.

ـ وكُنَّ كأَسراب القَطَا هاج وِرْدَها مع الصُّبْح في يوم الحَرور رَمِيضُ(١٠٣)

= رابئة: تأبى الأكل والشرب. الرقوب: التي لا يعيش لها ولد. قِرَّة: برد. الضَّريب: الصقيع.

(١٠٠) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، (دون تاريخ)، ج٥ ص٥٧٣.

(١٠١) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص٥٩.

(١٠٢) المصدر السابق، ص١١٧.

(١٠٣) المصدر السابق، ص٨١.

- تهالَكُ منهن النَّجاء تَهَالُكاً   تَقَاذفُ إحدى الجُون حان ورودها[104]
- يَدَّرِعْنَ الليل يهوين بِنَا   كهوِيِّ الكُدْرِ صَبَّحْن الشَّرَع[105]
- كأنَّها وقد بدا عوارضُ   بجَلْهَةَ الوادي قَطاً نَوَاهض[106]

ويتحدث الشعراء عن فِعْل المطر والسيل في جُحْر الضَّبِّ الكيِّس الذي يَتَّخذ جُحْره في كُدْية (الموضع الصلب) مرتفعة، ويصفون جدّ الضَّبِّ وهمَّته ومهارته في تلافي المطر والسيل، لذلك كانت براثنه ناقصة كليلة؛ لكنَّ سيول الصحراء شديدة العنف تُغْرِق الضَبَّ وجَاره، ولا تنفعه خِفَّتُه ومهارته، قال امرؤ القيس[107]:

ديمة هَطْلاء فيها وَطَف   طبقُ الأرض تَحَرَّى وتَدِرّ
.. وترى الضبَّ خفيفاً ماهراً   ثانياً برثُنَهُ ما يَنْعَفِرْ

وقال طرفة بن العبد[108]:

وضِبابٍ سفر الماءُ بها   غَرِقَتْ أَوْلاجُها غيْرَ السُّدَدْ
فَهْيَ موتى لعب الماءُ بها   في غُثَاءٍ سَاقَهُ السَّيْلُ عُدَدْ

وغالباً ما يُذكر الذئب والمطر معاً، وكلَّما وصفوا خيولهم بالذئاب، جعلوا الندى قد بَلَّها، والمطر أَحْرجها، والصقيع قد حَفَزَها على التوحُّش والاندفاع والتهوُّر، كقول الطفيل الغنوي[109]:

---

(١٠٤) النابغة الذبياني، الديوان، ص٩٨.

(١٠٥) سويد بن أبي كاهل اليشكري، الديوان، تحقيق: شاكر العاشور، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٧٢م، ص٢٧.

(١٠٦) الشماخ بن ضرار الذبياني، الديوان، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص٥٠٤.

(١٠٧) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، (سبق ذكره)، ص١٤٤.

(١٠٨) طرفة بن العبد البكري، الديوان، ص٢٨.

(١٠٩) الطفيل الغنوي، الديوان، ٦٣.

كأنَّــه بَعْــدَمــا صدَّرْنَ من عَرَقٍ　　سِيْــدٌ تَمَطَّــرَ جُنْــحَ الــليــل مَبْــلُولُ

وقال الحصين بن الحمام المُرِّي[110]:

وأَجْــرَدَ كالسِّــرحــان يَضْــرِبُــهُ النَّــدَى　　ومَحْبــوكَــةٍ كالسِّيــد شَقَّــاءَ صِلْدِمَــا

(١١٠) الحصين بن الحمام المُرّي، المفضليات، ص٦٦.

موضع المطر الأساسي

وفي هذا الموضع يُعْنى الشعراء بملاحظة البرق ومراقبة الغيم، ويتتبعون تَحَرُّك الرياح ويستطلعون الغيوم المتكاثفة، والسُّحُب الجَهَام، ويبتهلون ويأْرقون ويَسْهَدون، ويتلهَّفون ويشتاقون، فإذا الانبثاق العظيم يَنْهَلّ، وإذا الكون طوفانٌ غامرٌ وبحرٌ متلاطم. . ويتلَقَّى الشعراء المطر المنثور من رحم السماء بحُبّ ووَجْد، فيتابعون انهلاله على السفوح والبِقاع، ويحسُّون الفَوْز والانتصار والظَّفَر عندما تغمُر الأمطار البِقاع جميعاً، ويُعْنى الشعراء بتتبع الأماكن التي صابها مَطَرُ السَّماء وما خَلَّفه من آثار كالسيول العاتية والوديان الهادرة التي تحطُّ الوعول من ذُراها، والسِّباع من آجامها، والضِّباب من أنفاقها، ويصفون ما يتركه المطر من نشوة في قلب الإنسان والحيوان والطير وما ينشر على الصحراء العقيم من برود مُنَمْنَمة ووَشْي عبقريّ من النَّوْر والزَّهْر والنبات. . وكثيراً ما يَبُثُّ الشعراء آمالهم وأَشواقهم ورغباتهم في تلقي المطر، ويذكرون انطباعاتهم أمام مشاهد الخير والرحمة، وقد يدعون لأحبابهم بالسُّقْيا في ختام وصف المطر، وسأُمثِّل لذلك بقصيدتين: الأولى: قصيدة امرىء القيس المشهورة، قال فيها(111):

أَحَارِ تَرَى بَرْقاً كأَنَّ وميضَهُ ... كَلَمْعِ اليدين في حَبيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِيء سَناهُ أَو مصابيحَ راهِبٍ ... أَهَانَ السَّليطَ في الذُّبال المُفَتَّلِ
قَعَدْتُ له وصُحْبَتي بين حَامرٍ ... وبين إكامٍ بُعْدَ ما مُتَأَمَّلِ

---

(111) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، ص24 وما بعدها.

وأَضْحَى يَسُحُّ الماء عن كلِّ فِيقَةٍ ... يَكُبُّ على الأذْقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ
وتَيْماء لم يتركْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... ولا أُطُماً إلّا مَشِيداً بجَنْدَلِ
كأنَّ طميَّةَ المُجَيْمِر غُدْوةً ... من السَّيْل والغُثَاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ
كأنَّ أباناً في أفانين وَدْقِه ... كبيرُ أُناسٍ في بجادٍ مُزَمَّلِ
وألقى بصحراء الغَبيط بَعَاعَهُ ... نزول اليمانيّ ذي العياب المُخَوَّلِ
كأنَّ سباعاً فيه غَرْقى غُدَيَّةً ... بأرجائِهِ القُصْوى أنابيش عُنْصُلِ
على قَطَنٍ بالشَّيْم أيمنُ صَوْبِهِ ... وأيسرُهُ على السِّتار فيَذْبُلِ
وألقى ببَسْيان مع الليل بَرْكَهُ ... فأنزل منه العُصْمَ من كُلِّ مَنْزِلِ(١١٢)

والقصيدة الثانية للبيد بن ربيعة العامري، قال بعد وصف الطَّيف والرحلة والمرأة المهاجرة(١١٣):

يا هل ترى البَرْقَ بتُّ أَرقُبُه ... يُزْجي حبيًّا إذا خَبا ثَقَبا
قعدتُ وَحْدي له، وقال أبو ... ليلى: متى يَغْتَمِنْ فقدْ دَأَبا
كأنَّ فيه لمَّا ارتفقتُ لَهُ ... رَيْطاً ومِرْباع غانمٍ لجَبا
فَجَادَ رَهْواً إلى مداخلَ فالصَّحْـ ... ـرَةَ أمست نِعاجُهُ عُصَبا
فحَدَّرَ العُصْم من عَمايَة للسَّهْـ ... ـلِ وقَضَّى بصاحَةَ الأرَبا
فالماءُ يجلو مُتُونهنَّ كَمَا ... يَجْلو التلاميذُ لؤلؤاً قَشِبا

---

(١١٢) الوميض: لمع البرق. الحَبِيّ: ما حبا من السحاب، أي ما عرض لك وارتفع. المُكَلَّل: الذي في جوانب السماء كالإكليل. السَّنَا: الضوء. السليط: الزيت. حامر: موضع. الفِيْقَة: ما بين الحلبتين. الكنهبل: ما عظم من شجر العضاه. طميّة: اسم جبل. المجيمر: أرض لبني فزارة. البِجاد: كساء مُخَطَّط. الوَدْق: المطر. الأفانين: الضروب والأنواع. الغبيط: موضع. البَعَاع: الثقل، ذو العياب. المخول: الكثير المتاع والخدم. العُنْصل: نبت بَرّي يشبه البَصَل. قطن: اسم جبل. الشيم: النظر إلى البرق والمطر ليعلم أين هما. الستار ويذبل وبسيان: جبال معروفة. البَرْك: الصدر. العُصْم: الأوعال.

(١١٣) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص٢٩ - ٣٣.

=

لاقى البَدِيُّ الكِلابَ فاعتلَجا   موجُ أتِيَّيْهما لِمَنْ غَلَبا
فَدَعْدَعا سُرَّةَ الرَّكاء كما   دَعْدَعَ ساقي الأعاجم الغَرَبا
فكلُّ وادٍ هدَّتْ حوالبُهُ   يَقْذفُ خُضْر الدُّباءِ فالخُشُبا
مالت به نَحْوَها الجنوبُ معاً   ثم ازدهتْهُ الشَّمالُ فانقَلَبا
فقلتُ صابَ الأعراضَ رَيِّقُهُ   يَسْقي بلاداً قد أمْحَلَتْ حِقَبا
لتَرْعَ من نبته أُسَيمُ إذا   أنبتَ حُرَّ البُقول والعُشُبا
وليَرْعه قومها فإنَّهم   مِنْ خيرِ حيٍّ علمتهُمْ حَسَبا

في ضوء النصين السابقين يمكن أن نلحظ العناصر التالية في وصف المطر:

(أ) مناجاة الرفيق، والشكوى من الهَمِّ والغَمِّ، والتعبير عن الأرَقِ والسُّهاد والتَّوَتُّر.

(ب) الشاعر الجاهلي هو الذي يتابع المطر ويتأمله ويقعد له، ويراقبه، أو هو الذي يُصَلِّي ويبتهل من أجل نزوله.

(جـ) الحديث عن الرياح والسحاب والبَرْق والرَّعْد.. ووصف العاصفة واللَّيل البهيم.. ودائماً ينزل المطر طُوفاناً مُدمراً، وسيولاً عارمة تقلع كل شيء، وتَحُطُّ كلَّ شيء، وتهلك كلَّ شيء.

(د) المطر يُسْتَنزل من السماء وِلادةً بعد أنْ تُلْقح الريح السَّحاب، وهي ولادة عسيرة تتم بعد النَّصب والسَّهر والعَذاب، أو يُسْتَنْزَل دَرًّا وهذا يعني أُمومةَ السماء للأرض.

(هـ) وصف فعل مطر السماء بأهل الأرض، وهذا الفعل نلحظ فيه الرَّحمة والعَذَاب،

= يُزْجي: يسوق. الحَبِيّ: السَّحاب المرتفع. ثقبَ: أضاء. يَغْتَمِن: يسكن. دأبَ: أكثر من الماء. ارتفقت: اتكأت. الرَّيْط: الملاحف. اللَّجِب: الجيش الظافر. المرباع: ربع الغنيمة. عُصُباً: قطعاً. البَدِيّ والكلاب: واديان. اعتلجا: اعتركا. الأتي: السَّيل. الغَرَب: القدح من خشب. دَعْدع: ملأ. الحوالب: الأودية. الدُّبَاء: القَرْع. ازدهته: استخفَّته. الرَّيِّق: أول المطر.

أو قل الرَّغْبَة والرَّهْبَة، والعشق والخوف. فالطيور تُغَرد ثملةً نَشْوى؛ لكن السِّباع تَغْرق، والضِّباب تهلك، والوعول تتساقط صَرْعى. وقد نحسُّ رغبة الشعراء في المطر وخوفهم منه، فهو رحيم حبيب يُشْفي الكَبِد المَكْلومة، ويسقي ديار الحبيبة الراحلة.. وهو عنيف رهيب يَقْلَعُ ويَمْحَقُ ويُهْلِكُ ويُدَمِّر.

(و) التركيز على فكرة النار في وصف المطر، فالبرق مصابيح راهب، أو كما نَوَّر للعجم أَمْرَهُمْ، أو كمصباح بانٍ بأهله، أو كأنَّه الشُّعَل الثاقبة.. وقد نلمح في هذه الفكرة الرغبة في الطُّهْر والقَدَاسة.

انتهى بحمد الله تعالى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مصادر الكتاب ومراجعه



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

(١) الآلوسي، محمود شكري:
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق: محمد بهجت الأثري، المكتبة الأهلية بمصر ١٩٢٤م.

(٢) إبراهيم عبد الرحمن:
الشعر الجاهلي، قضاياه الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٩م.

(٣) ابن الأجدابي، أبو إسحاق (ت ٦٥٠هـ):
الأزمنة والأنواء، تحقيق: د. عزة حسن، دار سمير، دمشق ١٩٦٤م.

(٤) أحمد الحوفي:
(أ) الغزل في العصر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٨م.
(ب) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر بالفجالة ١٩٧٢م.
(ج) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٨م.

(٥) أحمد الربيعي:
الرمزية في مقدمة القصيدة، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٧٣م.

(٦) أحمد بن أبي طاهر:
بلاغات النساء، طبعة النجف الأشرف ١٣٦١هـ.

(٧) أحمد كمال زكي:
(أ) شعراء السعودية، مطبعة دار العلوم، الرياض ١٩٨٣م.
(ب) الأساطير، دار العودة، بيروت ١٩٧٩م.
(ج) دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٠م.

(٨) الأزدي، أبو بكر، محمد بن الحسن بن دريد (ت٣٢١هـ):
وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع، حققه: عز الدين التنوخي، طبعة دمشق ١٩٦٣م.

(٩) الأزرقي:
تاريخ مكة، طبعة دار الأندلس، إسبانيا (د. ت).

(١٠) الأصفهاني، أبو نعيم:
دلائل النبوة، طبعة عالم الكتب بيروت (دون تاريخ).

(١١) الأصمعي، عبد الملك بن قريب:
الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

(١٢) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس:
الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر ١٩٥٠م.

(١٣) الأعلم الشنتمري:
مختار الشعر الجاهلي، نشر: مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٤٨م.

(١٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي (ت ٥٤٠):
الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

(١٥) أمين مدني:
التاريخ العربي وبدايته، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

(١٦) الأنصاري، أبو زيد سعيد بن أوس (ت ٢١٥هـ):
كتاب المطر، دار الثقافة، بيروت (د. ت) وتحقيق: لويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٥م.

(١٧) أوس بن حجر:
الديوان، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت ١٩٦٧م.

(١٨) ابن بشر:
عنوان المجد في تاريخ نجد، مطبعة وزارة المعارف، الرياض (د. ت).

(١٩) بشر بن أبي خازم الأسدي (ت ٥٩٠م):
الديوان، تحقيق: عزة حسن، دمشق ١٩٦٠م.

(٢٠) البيروني:
الآثار الباقية من القرون الخالية، ليبزج ١٩٢٣م.

(٢١) التبريزي:
(أ) شرح القصائد العشر، مكتبة صبيح، القاهرة ١٣٦٧هـ.
(ب) شرح المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة ١٩٧٧م.

(٢٢) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي:
ديوان الحماسة، تعليق: محمد عبد المنعم الخفاجي، القاهرة ١٩٥٥م.

(٢٣) بنو تميم:
شعر بني تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: د. عبد الحميد المعيني، نادي القصيم الأدبي ١٩٨٢م.

(٢٤) التيفاشي:
سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠م.

(٢٥) الثعالبي:
ثمار القلوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٦٥م.

(٢٦) الجاحظ :
(أ) البرصان والعرجان، تحقيق : عبد الفتاح الحلو، طبعة الرياض ١٩٨٠م .
(ب) البيـان والتبيـين، تحقيق : عبـد السـلام هارون، مطبعـة مصطفى البابي الحلبي مصر ١٩٦٨م .
(ج) الحيوان، تحقيق : عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر (د . ت) .

(٢٧) جرير الخطفي :
الديوان، تحقيق : نعمان محمد أمين، دار المعارف بمصر (د . ت) .

(٢٨) جواد علي :
تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي (د . ت) .

(٢٩) جورج غير ستر :
الصحراء الكبرى، ترجمة : خيري حماد، المكتب التجاري، بيروت ١٩٦١م .

(٣٠) جيمس فريزر:
(أ) الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧١م .
(ب) أدونيس، ترجمة : جبر إبراهيم جبرا، دار الصراع الفكري، بيروت ١٩٥٧م .

(٣١) جيمس ويللارد:
الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا ١٩٦٧م .

(٣٢) حاتم الطائي :
الديوان، تحقيق : عادل سليمان جمال، مطبعة المدني القاهرة، ١٩٧٥م .

(٣٣) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٦هـ) :
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة مصر ١٢٧٤هـ .

(٣٤) الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن:
الديوان، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.

(٣٥) حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤هـ):
الديوان، تحقيق: د. سيد حنفي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م.

(٣٦) حسين عطوان:
مقدمة القصيدة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.

(٣٧) خفاف بن ندبة السلمي:
شعره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨م.

(٣٨) ابن خلدون:
(أ) المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، مصر (د. ت).
(ب) كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر، طبعة القاهرة ١٩٧١م.

(٣٩) ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ):
وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م.

(٤٠) الخنساء:
شعرها، تحقيق: أكرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت ١٩٦٣م.

(٤١) ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢١هـ):
كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد وما حمد من الكلام، طبع ضمن مجموعة حرزة الحاطب وتحفة الطالب، طبعة ليدن ١٨٥٩م.

(٤٢) أبو دؤاد الإيادي:
الديوان ضمن كتاب دراسات في الأدب العربي، تحقيق: غوستاف غرنباوم، ترجمة إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٩م.

(٤٣) ديتلف نيلسن:

التـاريـخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م ومطبعة لجنة البيان ، القاهرة ١٩٥٨م .

(٤٤) الزبيدي :
تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية بمصر ١٩٤٤م .

(٤٥) زكريا إبراهيم :
مشكلة الفن ، مكتبة مصر بالفجالة (د . ت) .

(٤٦) زهير بن أبي سلمى :
الديوان ، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م .

(٤٧) سام وبري أبشتين :
الصحراء ، ترجمة : مصطفى بدران ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .

(٤٨) سحيم عبد بني الحسحاس :
الديوان ، تحقيق : عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ١٩٦٨م .

(٤٩) سلامة بن جندل :
الديوان ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، طبعة حلب ١٩٦٩م .

(٥٠) ابن سلام الجمحي :
طبقات فحول الشعراء ، شرح : محمود شاكر ، مطبعة المدني القاهرة (د . ت) .

(٥١) سويد بن أبي كاهل اليشكري :
الديوان ، تحقيق : شاكر العاشور ، دار الطباعة الحديثة ، البصرة ١٩٧٢م .

(٥٢) ابن سيده :
كتاب المخصص ، طبعة المكتب التجاري ، بيروت (د . ت) .

(٥٣) شريف يوسف :
الكعبـات المقـدسـة عنـد العرب قبل الإسلام ، مجلة المجمع العلمي العراقي ،

بغداد مج ٢٩ سنة ١٩٧٨م.

(٥٤) الشماخ بن ضرار الذبياني:
الديوان، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

(٥٥) شيخ الربوة:
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة ليبزج ١٩٢٣م.

(٥٦) طاش كبري زادة
مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طبعة الهند (د. ت).

(٥٧) الطبري:
تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م.

(٥٨) طرفة بن العبد:
الديوان، تحقيق: لطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م.

(٥٩) الطفيل الغنوي:
الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٦٣م.

(٦٠) طه الهاشمي:
تاريخ الأديان، مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٣م.

(٦١) عادل جاسم البياتي:
(أ) رمز المرأة في أدب أيام العرب، مجلة آفاق عربية، العدد (١٢) آب ١٩٧٧م.
(ب) مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة آفاق عربية، العدد (١٢) آب ١٩٧٧م.

(٦٢) عامر بن الطفيل:
الديوان، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت ١٩٦٣م.

(٦٣) عبد الجبار المطلبي:

مواقف في الأدب والنقد، دار الرشيد بغداد، ١٩٨٠.

(٦٤) عبد الحميد زايد:

من أساطير الشرق الأدنى القديم، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، وزارة الإعلام الكويت ١٩٧٥م.

(٦٥) عبد الرزاق الخشروم:

الغربة في الشعر العربي، طبعة دمشق ١٩٨٢م.

(٦٦) عبد الكريم النهشل القيرواني:

الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق منجي الكعبي، طبعة الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس ١٩٧٨م.

(٦٧) عبد المنعم الزبيدي:

مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي، منشورات جامعة قارينوس ليبيا ١٩٧٥م.

(٦٨) عبده بدوي:

قضايا الأدب واللغة، الكويت ١٩٨١م.

(٦٩) عبيد بن الأبرص (ت ٦٠٠م):

الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧م.

(٧٠) عروة بن الورد:

الديوان، تحقيق: كرم البستاني وعيسى سابا، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م.

(٧١) عريب بن سعد الكاتب:

كتاب الأنواء، تحقيق: المستشرق: دوزي، طبعة ليدن، بريل ١٨٦١م.

(٧٢) عزة النص:

المزاج الطبيعي لمنطقة نجد، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الأول، السنة الأولى ١٩٧٠م.

(٧٣) علقمة الفحل :

الديوان، تحقيق : لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب ١٩٦٩م .

(٧٤) علي البطال :

الصورة الفنية في الشعر العربي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٠م .

(٧٥) عمرو بن شأس الأسدي :

شعره، جمع وتحقيق : يحيى الجبوري، طبعة النجف الأشرف، العراق ١٩٨٦م .

(٧٦) عمرو بن قميئة :

الديوان، تحقيق : حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٦٥م .

(٧٧) عمرو بن معديكرب الزبيدي :

شعره، تحقيق : مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٤م .

(٧٨) عنترة بن شداد :

الديوان، تحقيق : عبد المنعم شلبي، المكتبة التجارية الكبرى (د . ت)
وتحقيق : محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٧٠م .

(٧٩) غير ستر، جورج :

الصحراء الكبرى، تعريب : خيري حماد، المكتب التجاري، بيروت ١٩٦٠ .

(٨٠) فالتر براونه :

(أ) مشكلات الشعر الجاهلي، مجلة المجلة، مصر، يوليو ١٩٦٣م .

(ب) الوجودية في الشعر الجاهلي، مجلة المعرفة، دمشق ١٩٦٣م .

(٨١) فرانكفورت (هـ) وآخرين:
ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، طبعة: مكتبة الحياة، بغداد ١٩٦٠م.

(٨٢) الفرزدق:
الديوان، تحقيق: إسماعيل الصاوي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (د. ت).

(٨٣) ابن قتيبة:
(أ) كتاب الأنواء في مواسم العرب، طبعة حيدرآباد، الهند ١٩٥٦م.
(ب) عيون الأخبار، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٣هـ.
(ج) كتاب المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(٨٤) القزويني، زكريا بن محمد:
آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

(٨٥) قطب الدين الحنفي:
الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، المطبعة العثمانية، مصر ١٣٠٣هـ.

(٨٦) قيس بن الخطيم (ت ٦١٢هـ):
الديوان، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ١٩٦٢م.

(٨٧) د. قيس النوري:
الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل ١٩٨١م.

(٨٨) الكتبي:
فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.

(٨٩) ابن كثير، الحافظ، أبو الفدا إسماعيل:
(أ) البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م.

(ب) تفسير القرآن الكريم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة (د . ت).

(٩٠) لبيد بن ربيعة:

الديوان، تحقيق د. إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت **١٩٦٢**م.

(٩١) المتلمس الضبعي، جرير بن عبد المسيح:

الديوان، تحقيق: كارل ڤولرس، طبعة ليبزج **١٩٠٣**م.

(٩٢) محمد حسن عبد الله:

مقدمة في النقد الأدبي، الكويت **١٩٧٥**م.

(٩٣) محمد عبد الله دراز:

الدين، طبعة مصر **١٩٥٢**م.

(٩٤) محمد غنيمي هلال:

(أ) في النقد التطبيقي والمقارن، دار نهضة مصر (د . ت).

(ب) الوقوف على الأطلال، مهرجان الشعر الثالث، دمشق **١٩٦١**م.

(٩٥) محمد نعمان الجارم:

أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، القاهرة **١٩٢٣**م.

(٩٦) محمد النويهي:

الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية بمصر (د . ت).

(٩٧) محمود الجادر:

قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة الثقافة، دمشق **١٩٨٠**م.

(٩٨) المرزوقي، أبو علي (ت **٤٢١**هـ):

كتاب الأزمنة والأمكنة، طبعة حيدرآباد، الهند **١٣٣٢**هـ.

(٩٩) مطاع صفدي وإيليا حاوي:

موسوعة الشعر العربي، شركة خياط، بيروت **١٩٧٤**م.

(١٠٠) مصطفى الجوزو:
من الأساطير العربية والخرافات، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧م.

(١٠١) مصطفى ناصف:
(أ) قراءة ثانية لشعرنا القديم، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب (د. ت)
(ب) دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة (د. ت)

(١٠٢) ابن منظور، جمال الدين، محمد بن جلال الدين الخزرجي (ت٧١١هـ):
(أ) نثار الأزهار في الليل والنهار، المطبعة العثمانية، القاهرة (د. ت).
(ب) اللسان.

(١٠٣) الميداني:
مجمع الأمثال، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١م.

(١٠٤) النابغة الذبياني:
الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

(١٠٥) ناصر الدين الأسد:
مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(١٠٦) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥هـ):
الفهرست، مطبعة دانشكاه، طهران (د. ت).

(١٠٧) نصرت عبد الرحمن:
(أ) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى عمان ١٩٧٦م
(ب) الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي، دار الفكر، عمان ١٩٨٥م.
(ج) المطر: مواضع وروده في جانب من الشعر الجاهلي، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية مج٦ ع٢، ١٩٧٩م.

(١٠٨) نوري القيسي :
الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠م .

(١٠٩) النويري، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ) :
نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية ١٩٣٢ .

(١١٠) هاوزر، آرنولد :
فلسفة تاريخ الفن، ترجمة : رمزي عبده جرجس، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٨م .

(١١١) الهذليون :
شرح أشعار الهذليين، تحقيق، عبد الستار فراج، القاهرة ١٩٦٥م .

(١١٢) الهَمْدانيون :
شعر هَمْدان وأَخبارها، جمع وتحقيق : حسن أبو ياسين، دار العلوم، الرياض ١٩٨٣م .

(١١٣) وهب رومية :
الرحلة في القصيدة الجاهلية، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، بيروت ١٩٧٥م .

(١١٤) وهب بن منبه :
كتاب التيجان في ملوك حمير، طبعة وزارة المعارف العثمانية، الهند ١٣٤٧هـ .

(١١٥) ياقوت الحموي :
معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٥م .

(١١٦) يوسف خليف :
الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية، مجلة المجلة، العد (١٦) إبريل ١٩٥٨م .

(١١٧) يوسف اليوسف :
مقالات في الشعر الجاهلي، طبعة وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٥م .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com